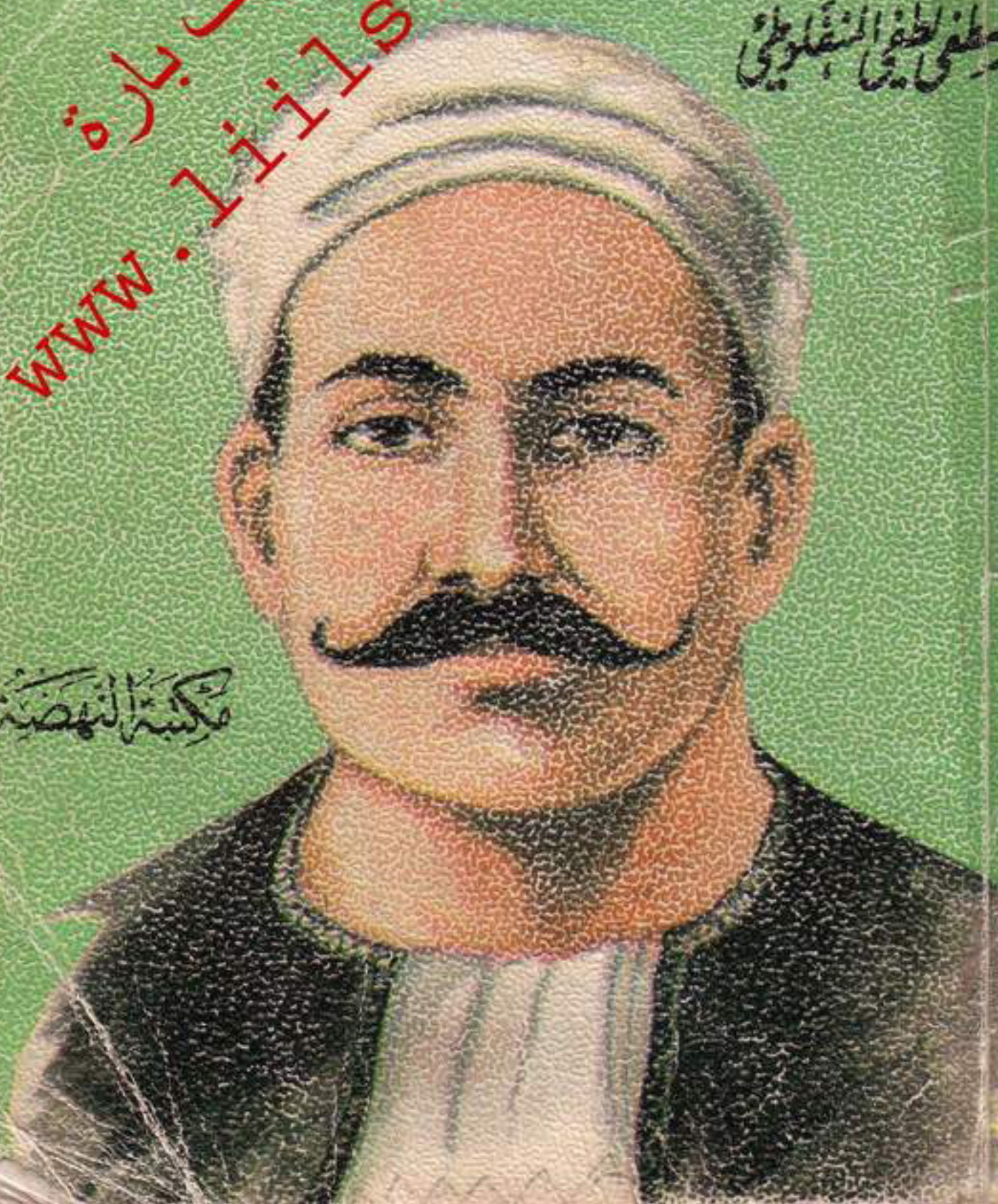


مكتبة النهضة

تتوقف بارة
www.hills.com

مصطفى لطف المنقلاوي

مكتبة النهضة



ولا عهد لي بمثله ، فأظل أنتقل من مكان إلى مكان ، وأفر من الحديقة إلى المنزل ومن المنزل إلى الحديقة ، كأنني أفتش عن شيء ، وما أفتش عن نفسي التي فقدتها ولا أزال أنشدتها ، فإذا نال مني التعب أريت إلى أشجار الزيزفون في الحديقة لأستريح في ظلها قليلاً ، فلا يكاد يعلق نظري بأول زهرة يروقي منظرها من بين أزهارها حتى أشعر كأنني أنتقل من هذا العالم شيئاً فشيئاً إلى عالم جميل من عوالم الخيال ، فأتغلغل فيه كما يتغلغل الطائر المحلق في غمار السحب ، وتمر بي على ذلك ساعات طوال لا أعود بعدها إلى نفسي إلا إذا شعرت بسقوط الكتاب من يدي ، فإذا استفتت وجدتي لا أزال في مكاني ، ولا يزال نظري عالماً بتلك الزهرة الجميلة التي وقفت عليها .

يقولون إن فصل الربيع فصل الحب ، وإن العواطف تضطرم فيه اضطراماً فتأنس النفوس بالنفوس ، وتقرب القلوب من القلوب وتمتليء الحدايق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواهر الأغصان ، وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار ، أما أنا فلا أصدق من كل هذا شيئاً ، فإن أجمل الساعات عندي تلك الساعة التي أخلو فيها بنفسي فأناجيهها بهمومي وأحزاني وأذرف من العبرات ما أبرد به تلك الغلة التي تعتلج في صدري .

وأعجب ما أعجب له من أمر نفسي أنني أبكي على غير شيء ، وأحزن لغير سبب ، وأجد بين جنبي من الهموم والأشجان ما لا أعرف سبيله ولا مأتاه ، حتى يخيل إليّ أحياناً أن عارضاً من عوارض الجنون قد خالط عقلي فيشتد خوفاً واضطراباً .

إن الذين يعرفون أسباب آلامهم وأحزانهم غير أشقياء لأنهم يعيشون بالأمل ويحبون بالرجاء ، أما أنا فشقية لأنني لا أعرف لي

ماء ما عالجته ، ولا يوم شفاه فأرجوه .

كأن أسباب العيش حاضرة لدي ، وأني لا يعرف له سعادة في الحياة غير سعادتني ، ولا هناك غير هنائي ، ولا يمجبه منظر من مناظر الخصال في العالم سوى أن يراني ناسمة ، ويرى أزهار حديقته ضاحكة ، بل ربما أظفر أسر حديقته أحياناً حتى تذبذب أوراقها وتحتوت زهراتها في سبيل قضاء مراقبي وحاجاتي ، فإنا إن شكوت فإنا أشكو بظراً وأشرأً وكفراناً بأنعم الله التي يسبها حتى ويسلبها إلي ، فظفرك اللهم ورحمتك ، فإني ما اعترفت بجميلك ، ولا أحسنت القيام بشكر أباديك .

إني لأذكر يا سوزان تلك الأيام التي قضيناها معاً ، وتلك السعادة التي كنا نهمر أغصانها ، ونجني ثمارها . ونظير في سعادتها بأجنته من الآمال والأحلام ، فأندبها وأبكي عليها ، وأسرن إليها حين الليل إلى مطلع الصبح والجدب إلى ديمة القطر .

(٣)

من إدوار إلى استيفين

الآن عرفت أنك لا تتق بي ولا تعتمد عليّ وأنت لا تزال تنظر إليّ بالعين التي تنظر بها إلى أولئك الذين أكثرت مغاضبتهم والبرم بهم من أفراد أسرتك ، فقد كنت عني ما كنت أرجو أن تغضي به إليّ من تيرم ذات نفسك فيما اعترمت عليه من رحلتك لأعرف ماذا تريد وأين تريد ولكني لم أؤثر أن أنزل بك في الود إلى المنزلة التي نزلت بي إليها ، فلم أر بدأً من أن أكسب إليك .

إنا نبتنا معاً يا استيفين في تربة واحدة ، تحت سماء واحدة يفتقونا ماء واحد وجو واحد ، وما زلنا كذلك حتى شينا فاختلنا كما تختلف الشجرتان المتجاورتان في منبهما ثمرة وشكلا ، ولذلك أنت نفر مني القرار كله وتنقض عني ، ولا تراني أسلك فجاً من فجاج الأرض إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تعدد إلا سلكت فجاً غيره ، لأنك أصبحت تعدد بحياة غير التي أسعد بها ، وهنأ بعيش غير الذي أسأ به ، ونظرب لنعمة غير التي تسمها مني ، ولا نستطيع أن نرى في وجهي تلك المرأة التي تحب أن ترى فيها صورتك واضحة جلية لا لغوض فيها ولا لإسقام .

إنك لا تنقضني يا استيفين ، ولكك لا تحب أن تراني ، لأنك تعلم أن لي في الحياة رأياً غير رأيك ، وطريقاً غير طريقك ، فأنت تخاف أن تسمع مني ما يفضحك في تصوراتك وأحلامك ، ويكثر عليك لفائفك التي تجدها في العيش في ذلك العالم الخيالي المظلم ، وتضع بها فيه فناعة الشعراء المحزونين بالعيش بين أشباح عيالهم السوداء .

كمن كما نشاء وعش كما تريد ، فتستغني أيام شبابك وتستغني باقتضائها أمانتك وأحلامك ، وهنالك نزل من سمائك التي تطير فيها آل أرضي التي أسكنها ، فتعارف بعد التناكر وتتواصل بعد الضامع وتلتقي كما كنا .

لا بد أن تفرق اليوم لأننا غير متفقين ، ولا بد أن نجتمع بعد اليوم لأننا مستقن ، فلا بأس أن تكب إليّ وأكسب إليك ، وأن تتواصل على البعد إبقاء على تلك الصلة التي بيننا ، واحتفاظاً بها ، ورعاية لها حتى يأتي ذلك اليوم الذي تجلج فيه عن نفسها وتبرز من مكنتها .

إن أهلك بمجيون لأمرك كثيراً ، ويرون أنك مكرت بهم ، وأسلطتهم عن مقاصدك وأغراضك فسافرت خفية من حيث لا يعلمون بأمرك ولا ببنتك التي اثبتتها ، ويقولون إنك ما سافرت على هذه الصورة إلا لأنك عدلت عن رأيك في الزواج من تلك الفتاة التي أعدها لك ، وعندني أهم أسبابها فيما يقولون ، وأنت عظماء فيما فعلت ، لأنك تعلم أن والديك فقير لا يملك من المال أكثر مما يسع لأيام حياته ، وقد كان لك في هذا الزواج من تلك الفتاة التي اختارها لك حظك من سعادة العيش وعنايته لولا أنك شاعر ، وانتعراهم يفهمون من معنى السعادة غير ما يفهمه الناس جميعاً .

أحورك يحبك كثيراً ، ولا يزال يحدثنك عنك كما أحدثه ، فاذكرنا كما نذكرك واكتب إلينا بكل شيء .

(٤)

خواطر استيفين

مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق إلا أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الصجر ولا أزال ساهراً فلق المصبح ، أطلب الراحة فلا أجدها ، وأعتف بالغمض فلا أعرف السبيل إليه .

إن كان إدوار يسخر مني في كتابه ويبدأ بي ، وينلني يوم أرى فيه أوهاماً كاذبة وأسلاماً باطله ، ما كنت أحسبه أماني وآمالاً ، ويرى أن جميع ما أقدره لنفسي من سعادة في الحياة وهناء أشبه شيء بالخيالات الشعرية التي يسعد الشعراء بتصورها ، ولا يعلمون

بوجودها . فلئن كان حقاً ما يقول فما أمر طعم العيش ، وما أظلم وجه الحياة .

لا .. لا .. إن الذي لحرس في قلبي هذه الآمال الحسان لا يمحى عن أن يصعدنا بطقه وعنايته حتى نخرج نمارها وننلأها أزهارها ، وإن الذي أنبت في جناسي هذه القوادم والخوافي لا يرضى أن يبغضني ويتركني في مكاني كبيراً لا أهبط ولا أظير . وإن الذي سلطني كل ما يأمل الآملون في هذه الحياة من سرور وغبطة ، ولم يبق لي منها إلا حلاوة الأمل ولذته ، لأجل من أن يشو على القسوة كلها فيلسفي تلك الثمالة الباقية التي هي ملائكة مجيشي ، ونوام حياتي ...

على أنني ما ذهبت بعيداً ، ولا طلبت مستجيلاً . فكل ما أطمح فيه من جمال هذا العالم وزخرفته ، رفيق آس بقربه وجواره . وأجد لذة العيش في التحدث معه ، والسكون إليه ، وما الرجال كما يقولون إلا أنصاف مائلة تطلب أنصافها الأخرى بين غداوع النساء ، فلا يزال الرجل يشعر في نفسه بذلك النقص الذي كان يشعر به آدم قبل أن تتغير صورة ضلعه الأيسر حتى يمتد بالمرأة التي خلقت له فيقر قراره ، وبلقى عصاه .

ويعد : فأني مقذور من المقذورات تضيق به قوة الله وحكمته ، وأي عقل من العقول الإنسانية يستطيع أن يدع في تصوراتنا وتخيالاتنا اللعنية فوق ما تدع يد القدرة في مصنوعاتها وآثارها ، وهل الصور والخيالات التي تتخلل بما اذهاننا وتموج بها عقولنا إلا رسوم شبيهة لحقائق هذا الكون وبهائمه ، ولو أن سامعاً سمع وصف منظر الشمس عند طلوعها ، أو مهبط الليل عند نزوله ، أو جمال غابة من الغابات ، أو شعوخ جبل من الأجيال . ثم

رأى بعد ذلك حياً ، ما كان يراه تصوراً وخيلاً ، لعلم أن جمال الكائنات فوق جمال التصورات وحقائق الموجودات فوق هوائف الخيالات ، لذلك اعتقد أنني ما تحللت هذه السعادة التي أهدرتها لنفسي إلا لأنها كانت من الكائنات الموجودة وأنها آتية لا ريب فيها .

إن اليوم الذي أشر فيه بنحية آسالي ، وانقطاع حبل رجائي ، يجب أن يكون آخر يوم من أيام حياتي . فلا خير في حياة يجيها المرء بغير قلب ، ولا خير في قلب يخفق بغير حب .

(٥)

الحب

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى « مولر » والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجدول متكئاً على قامة فلم يرد من أن يجبه فيها بتحية حبي بأحسن منها ، ثم أراد أن يستمر أدواجه فرآه ينظر إليه نظرة المستوقف ، ورأى كأن كلاماً يتحير في شفه فاستحيا أن يجزي لسيله فوقف ، فقال له مولر : ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماه ، فأراد استيفن نفسه على كلمة يعصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته ، ثم بدا له أنه إن فعل أرابه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد ، وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئاً طريفاً ، أو أمراً مريباً ، ثم استمر مولر في حديثه يقول : إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدره علي إلا تلك الرعدة التي أشر بها تمشي في أعضائي ، فما أمر مذاق الشبخوخة ، وما

أنقل موونتها ، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت لا أحفل بتكباء ولا رمضاء ، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل يوم بتكبير الغراب إلى قسم الجبال وشواطئ الأنهار عاري الرأس حالاً القدم ، أروح وألب وأناثر طرائد الصيد في مسارحها وملاعبها ، فأصبحت ولم يبق لي من تلك الذكريات إلا وفتي في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من غيوبها البيضاء كساء أنفي به هذه الرعدة ، وأنتظر نظري بروية القنيت الصخيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك القنبة الثلجية . وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال : إن ماجدولين لم نزل اليوم كما بدأنا فعلها بنجيرة ، قال : نعم ، هي بنجيرة ، ولكن خيفاً من أقرباتنا نزل بنا أس فلم أر بدأ من أن أكل إليها أمره والعتابة به فتركتها وذهبت لتأني ، وإن كنت أعلم أن ماجدولين ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة ، ولا يقنعها من الشمس تلك الميوط البيضاء التي تتحفر إليها من نافذة غرفتها . ثم ذهبت في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة ، ولأنهما وكذلك إذ فتح باب المنزل ، وإذا ماجدولين وأرشميد مقلان يجلسا فتتهلل ، وتحدثه فينسم ، وكان منظرهما منظر عاشقين يتنازلان ، لا قريبين يتسامران . فتميل لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده غير مستحسن ولا مستعذب .

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلهو بالنظر إلى بعض الزهرات وود لو وجد السبيل إلى الحرب متهما لولا أنها اعترضت طريقه فسلما عليه فرد رداً قاتراً .

ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خبيلة من الخمائل ، فما خطا فيها بعض خطوات حتى سمع الفتي يتررب في الصلحك ، فما

شك أنهما في شأنه ، وأنه قد أصبح موضوع هزئهما وسخرتهما ،
وأبهما ماضحكا إلا لثبته به والزراية عليه ، فأحس في قلبه بديب
البض لذلك القنى ، وود بجدد الأثف لو وجد السبيل إلى متازلته
في ميدان خصام يضربه فيه ضربة تهشم أنفه وتخصب الذي فيه
عينه ليقنعه أنه ليس سخرية الساعر ، ولا أضحوكة الفاحك .

ثم عاد إلى نفسه يسألها عن السب في انقباضه ووحشته ،
وعن تلك الحال الغريبة التي ألمت بفؤاده منذ الساعة ويقول :
مالي وعلما القنى ؟ وبأي حق أحمل له بين جنبي ما أحمل مسن
الصخينة والموجدة ؟ فما أنا بعاشق لفتاة فأغار منه عليها ! ولا
هو بزاحم في علق هوى فأبغضه فيه ! ولم يزل يسأل نفسه أمثال
هذه الأسئلة فلا يجبه ، ويراجع عقله فلا يهديه ، حتى عرف أنه
لا يسمع عمارج الحميلة صوتاً فبرز من مكته فلم ير أمامه أحداً
لخروج من الحديقة هائماً على وجهه بين النباتات والأحراش حتى
أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته ، وإته ليس أمام
باب غرفة ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر ما كان قد
نسيه ، وعلم أنها تسمر مع قريبها أرشيد ، وأنه لا بد أن يكون
سعيداً بهذا الحديث وهذه الخلوة ، فنفس عليه ذلك ، ولا يفس
الإسنان على صاحبه شيئاً يكون في نظره حقيراً ، فتريث في مشيته
قليلاً حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لا يشعران بموقفه ،
فدنا منهما وأنتأ يسمع حديثهما فلم يفهم كلمة مما يقولان ، ثم
انقطعاً عن الحديث وأنتأث ماجدولين تغني غناء شجياً قد يكون
عقياً للنبأ في نفس استيفن لولا أن أذناً أخرى غير أذنه تراحمه
على سماعه ، ثم انقطع الغناء أيضاً فسمع حنق نعال تتقدم نحو
الياب . فابتعد عن مكانه حتى خرج القنى وخرجت ماجدولين
وراءه تشبه في غلالة رقيقة يضاء لا تلبسها الفتاة إلا بين يدي

استبقها أو من لا تحشمه من ذوي قرباها ، قرأى في وجهها
صورة جديدة غير التي كان يراها من قبل ، وأحس في نفسه بشيء
غير الذي كان يحس به عند رؤيتها ، ثم عادت إلى الغرفة وأغلقت
الباب ورأعها فعاد إلى موقفه الأول ، وما زال راكماً أمام بابها
حتى مدت جلوة النهار في فحة الليل ، فصعد إلى غرفته ،
وقد علم أن الذي قام بنفسه منذ اليوم ليس الخديان ، ولا الجنون
ولا الرسواس ، ولا حرارة الحمى كما كان يظن ، وإنما هو الحب !

(٦)

الدعوة

دخل مولر على ابنة ذات يوم فقال : يا بنية إني دعوت
اليوم جارنا الذي يسكن في الغرفة العليا من منزلنا إلى العشاء عندنا
في الساعة السابعة فأعدي له الطعام ، واعطي أنك ستفينا في هذه
الليلة فقد وعدته بذلك ، وقد لقيت من كرم هذا القنى وطور
هنته وشدة عارضته وكثرة ذكائه وسعة علمه بالنبات وطيباته
ما حبه إلي ، وأنزله من نفسي المزة العليا ، ولا بد أن أتخذه
صديقاً ، وأن تكون تلك الدعوة فاتحة تلك الصداقة ، ثم تركها
وخرج إلى الحديقة وظل مشتغلاً بشأنه فيها حتى مالت الشمس
إلى مغربها فعاد إلى المنزل وجلس إلى نافذة غرفته المظلة على
الحديقة يتنظر ضيفه ، وإته كذلك إذ رآه خارجاً من باب الحديقة
يعدو عدواً شديداً ، وفي يده رسالة مفضوضة فهتف بابتته يقول :
يا ماجدولين ، ما أحسب إلا أن جارنا قد حبل بينه وبين الوفاء
بوعدته فقد رأيت الساعة خارجاً يعدو من باب الحديقة ، ثم رأيت

قد سلك تلك الطريق التي لا ينتهي فيها السائر إلى عرض إلا بعد
سفر عشرة أميال ، فقالت : لا بد أن يكون قد عرض له شأن
ما كان يقدره في نفسه . فلا بد أن تنتظره حتى يعود . ثم جلسا
صامتين ، هذا يدخن لثامته وتلك تحبب ثوبها ، حتى علما أنه
لن يعود ، فقاما إلى العشاء ، ثم إلى المنام .

(٧)

الزيارة

جلس مولر إلى ابنته ، فنظر نظرة في النجوم ، وقال : ما
أحسب إلا أن السماء ستطرنا في هذه الليلة مطراً غزيراً يبلل
هذه التربة الظامّة ، ويملا هذه البقاع الجرداء ، فما أجمل الربيع ،
وما أجمل غيوته المنهلة ، وما أجمل أرضه بعد أن يكسوها الغمام
من نسج يده تلك الغلال الخضراء ، فقالت ماجدولين : لا تنس
يا أبت أن كثيراً من ضعفاء السابلة وطرائد الليل يعانون في مثل
هذه الليلة الماطرة من تنفق الثبوت فوق رؤوسهم واعتراض
الوحول في طريقهم ، وبعد الثقة عليهم ما لا طاقة لهم باحتماله ،
فوارحمته لهم إن الشقاء كامن لهم في كل شيء . حتى في الشؤون
التي يسعد بها غيرهم ، فاكاتب مولر وقال : نعم يا ماجدولين
لهم أشقياء برؤساء ولا بد أن يكون استيفين واحداً منهم ، فقد
مر المزيج الأول من الليل ، ولم يعد إلى المنزل حتى الساعة بعد
ما قضى ليلة أسس خارجه ، فأخذت هذه الكلمة مكانها من نفس
ماجدولين فأطرقت برأسها ثقلب صحائف كتابها ولا تقرا منه
شيئاً ، وإنهما لكذلك إذا طارقت يفتحن الباب خفياً ضعيفاً .

فماضت ماجدولين ودعش مولر وقامت جنيفاف إلى الباب
فتحتة فإذا استيفين مائل بعنقه فاستأذن ودخل ، وهو يقول :
عفواً يا سيدي إن كنت ترى أنني لم أف لك بوعدتي فقد أرسل
إلي أنني كتاباً يدعوني فيه إلى مقابلة على الحدود لتوديعه قبل
سفره إلى الحرب ، فأعجلني كتابه عن كل شيء . حتى عن اصنافي
إليك فمشيت إليه عشرة أميال لا أثريث ولا أنتد حتى يلغته فودعته
وداعاً جمع بين السرور له والحسزن عليه . أما السرور فلأنني
رأيت فرحاً مضطاً برحلته يعني أنشودة الحرب مرة ، وبلاد
جواده أخرى . وبمضي مشية الحبيلاء بين ريش قبعة وشماثل
سيفه . وأما الحزن فلأنني أخاف أن يسبني العدو إليه فيحول بيني
وبينه . فأصبح في هذه الحياة غريباً متفرداً ، لا أجد بين هذه
القلوب الخافقة حولي قلباً يحزن لحزني . ولا يسين هسده
العيون الناطرة إليّ عينا تبكي هكائي . وهنا لرفت من عينه دموع
كادت تبكي لها ماجدولين . ولكنها لم تفعل ذلك حياءً وخجلاً ،
وأثقت عليه نفرة عطف ورحمة من حيث لا يشعر ، حتى إذا
التفت إليها استردت نظرتها وألقنها على صفحة كتابها . فقال
مولر : لا تجزع يا ابني فإنه أرحم بك من أميئك وأرحم بأنيئك
من نفسه . ثم أخذ يده إلى مائدة الشاي وجلسا يشربان معاً وأتت
مولر يحدث صاحبه عن الشاي ومفرسه ، ومنته وأعواده وأوراقه ،
وأنواعه وألوانه ، وطريقة طبخه وأصل كلمته ومصدر اشتقاقها
وأراء علماء النبات في ذلك وردود بعضهم على بعض وردوده
هو عليهم جميعاً ، وما زال يثرثر في ذلك ويسهب طائلاً أن استيفين
حاضر معه واستيفين عنه في شغل بما يختلس من نظرات ماجدولين
وما تختلس من نظراته حتى فرغاً من شايهما ، فأقترح مولر على
أبته أن تعني لهما صوتاً فأشادت نغمة نغمة تحالطها رعدة الخائف

أو رثة المحزون ، فما أتت عليه حتى طرب له استيقظ طرفاً ملك
 عليه قلبه وأحاط بمواطنه ومشارعه ، وشمر كأن القضاء يدور
 به ، وكان قد بدلت الأرض غير الأرض والسوات ثم عاف
 أن يمتد به شوطه إلى أبعد من ذلك فتهاهض للقيام فمشى معه
 مومر إلى الباب يشيخه ويقول : زونا يا استيقظ كلما بدا لك أن
 تقفل ، فما حون مزارك باب موصد ، فالتصرف بقلب غير قلبه ،
 وعقل غير عقله ، وحال بين جنبه غريبة لا عهد له بمثلها
 من قبل .

(٨)

المراة

قضت ماجدولين ليلتها راكمة في معبدها مستترقة في صلاتها
 تدعو الله تعالى أن يعينها على أمرها ، وينير لها ظلمة هذه الحياة
 الجديدة التي بدأت تسير فيها ، وقد ألت بنفسها في تلك الساعة
 عاطفة غريبة متنوعة الألوان مختلفة الأشكال ، كأنما هي مزيج
 من الحب والخوف والسرور والحزن والأمل الواسع ، والرجاء
 الخائب ، فكانت تبسم مرة حتى تلعب ثيابها وتبكي أخرى حتى
 يبتل رداؤها ، ولا تعلم ما الذي أصحكها ، ولا ما الذي أبكها
 ولم تزل على حالها تلك حتى حلق طائر الكرى فوق أجنحتها ،
 فاضطجعت في مصلاها ، وأسلمت روحها إلى خالقها .

أما استيقظ ففضي إليه جالساً إلى نافذة غرفته بقلب وجهه في
 السماء كأنما هو يساهر كراكيها ويحومها ، ويقضي إليها بما لم

بنفسه في تلك الساعة من سروره إلا أنه أصبح يشعر في نفسه برد
 الراحة من البحث على ضالة غرام ظل يشدها ويتعلق بأثارها
 عهداً طويلاً حتى وجدها . وأن نفسه التي كانت حبيسة بين جنبيه
 قد أشرقت عليها شمس الحب فالتعنت ورفرت بمناحيها في
 القضاء . فأنشأ يحدث نفسه ويقول : أحمدك اللهم فقد ظفرت
 بالحياة التي كنت أقدرها لنفسي ، ووجدت المرأة التي كنت أصورها
 في مخيلتي ، وما المرأة إلا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة
 على هذا الكون فتبهر ظلمته ، والتبريد الذي يعمل على يده نعمة
 الخالق إلى المخلوق ، والهواء المتردد الذي يهب الإنسان حياته
 وقوته ، والمراج الذي تعرج فيه النفوس من الملأ الأدنى إلى الملأ
 الأعلى ، والرسول الإلهي يطالع المؤمن في وجهه جمال
 الله وجلاله ، هي وجه هذه الفتاة التي عثرت بها اليوم قد صبرت
 بحباتي وسعادتي ، وبيني وإيمانتي .

وكان يجمل إليه وهو يحدث نفسه بهذا الحديث أن الحب الذي
 ملأ قلبه قد فاض عنه إلى جميع الكائنات التي براها بين يديه ،
 فكان يرى في صفحة السماء صورة الحب ، ويسمع في حفيف
 الأشجار صوت الحب ، ويسرّج في السيم المترقق رائحة
 الحب ، ويرى في كل ذرة نيراً باسماً ، وفي كل نامة عوداً ناعماً .

ولم يزل يهتف بهذه التصورات حتى انحدر برقع الليل عن
 وجه الصباح فهجع في مرقده قليلاً . ثم قام فنزل إلى الحديقة
 يترقب نزول ماجدولين إذ منزهاتها فلم تنزل حتى أخذت الشمس
 مكانها من كبد السماء . فراه من أمرها ما رآه فلم ير بدأ من
 زيارة مولد فمشى إلى المنزل بقدم مضطربة وقلب خفاق حتى
 بلغ الباب فقرعه . ثم شعر أن شعبة من شعب قلبه قد سقطت

بين أضلاعه . وأن لسانه قد التوى عليه فأصبح لا يتلن ولا يبين
فقدم على أن لم يكن قد سلك سبيلاً غير تلك السبيل . وتحتى لو
فترت الخادم قبلاً في حطائها إليه حتى يستجمع رويته وأثاته .
ويسترد إليه ما تفرق من شمنه ، فكان له ما ثناه ولم تفتح حجاب
الجاب إلا بعد فراغها من شأن كان لها . فسألها أين مولر ففتت
أمامه إلى قاعة الأضياف ثم تركته وذهبت لتخبير سيدها بمكانه .
وكان يقرأ في قاعة الكتب . فلما خلا استيقن بنفسه أحد يدور
بعينه في جواب العرفة فرأى على مقربة منه باباً مفتوحاً بلوح
من ورائه سرير قائم . فعلم أنه مخدع ماجدولين . فسمع فلم
يز أحدًا فهاجته الشوق إلى اقتحامه فافتحه . وهو يعلم أسبا
المخاطرة بعينها ولكنه كان على حال لا يتفتح فيها بما يعلم . فدخل
واقرب من السرير فوجد الفراش لا يزال مشعثاً . ولكان رأس
ماجدولين من الوسادة لا يزال منقوصاً ، ورأى بين يدي السرير
حوضاً مملوءاً ماء وإن جانبه كرسي قد انشرب فوقه رداء مثل .
ثم نظر إلى الأرض فرأى بلبلاً يمثل أقداماً صغيرة ، فعلم أن في
هذا السرير كانت ماجدولين نائمة . وفي هذا الماء كانت تبرد
وبهذا الرداء كانت تنصح . وعلى هذه الأرض كانت تنقل .
فجمد في مكانه حدود الصبر في هيكله . وأخذ يقول في نفسه
لقد سعد السرير الذي لاسمها . والرداء الذي ضمنها . والأرض
التي ثلثت أقدامها . والماء الذي اندر على جسمها . ثم مشى
إلى الرداء المنشر فأخذ يلمسه كما يلم العابد المتشدد ستائر معبده .

ونهاقت على الأرض يقبل آثار تلك الأقدام . ثم خيل إليه
أنه يسمع من ورائه صوتاً فرجع إلى نفسه وعاد منتبهاً إلى مكانه
الأول . فماتت إلا قليلاً حتى دخل عليه مولر فغضب وقال له :
عفواً يا استيفن فقد شغلني عنك أي كنت أفتش في قواميس اللغة

عن أصول أعلام نائية ما زلت معيماً بأمرها منذ اليوم . لعل
لك أن تكون عوناً لي عليها على شرط أن لا تغارق منزلي قبل
الغداء . فابتم استيفن ابتسامة الرضا والقبول . لأنه علم أنه
سيضفي وقتاً طويلاً في منزل ماجدولين . ثم ذهباً معاً إلى قاعة
الكتب فلما أخذها مكاتبها منها أنشأ مولر يسرد على صاحبه تلك
الأعلام التي يقول إنها تشغله ويشرح له مدلولاتها وما رآه عندها
التيات في مصادر اشتقاقها وما بدا له في التأخذ عليهم . فإذا ورد
في كلامه اسم كتاب قام إلى خزنة الكتب واستخرجه وتصفح
أوراقه حتى يجد الكلمة التي يريدونها بنقمة المازي . الساخر
ويقول : هكذا يرى الأستاذ فلان ! أما أنا فأرى غير ما يراه !
وماذا عليّ إن بدا لي غير ما بدا له فالعلم ليس وفقاً على المؤلفين
والمؤلفين إنما هو فرع الحجة بالحجة ودفع الرأي بالرأي .

وما زال يهدر في حديثه هدير الجمل المخشوش واستيفن لاه
يردد النظر إلى باب القاعة من حين إلى حين على يرى ماجدولين
داخله . فقال له مولر : أراك تنظر إلى الباب كثيراً كأنك تخاف
أن يبلع عليك العرفة والحج فيكندر عليك خلوتنا . فاعلم أنه ما من
أحد في هذا المنزل يستطيع أن يخالف أمرى ويتحتم على باب
قاعتي من غير إذن . وهنا صاحبت الخادم لدعوه إلى الغداء فلم
يقطع حديثه . فصاحت به مرة أخرى فهض متفانلاً ومشى
مبتاطلاً لا يقطع حديثه حتى وصلا إلى غرفة الطعام . فراع استيفن
أنه لم ير حول المائدة غير مقعدين . فعلم أن أحدهما له . وأن
الأخر لا يمكن أن يكون لأحد غير مولر . فوجم وجوم الخزين
المكتتب واستمر يأكل صامتاً لا يتحدث ولا يصغي إلى حديث
حتى فرغاً . فقال له مولر : لقد أراد الله بي خيراً إذ أرسلك
إليّ في هذا اليوم فقد كدت لا أجد لي في هذه الوحدة مؤسراً .

ولا على هذه المائدة رفيقاً ، لأن ابنتي سافرت منذ الصباح لزيارة إحدى صواحبها ولا أحسبها راجعة قبل المساء فهل لك أن تنزل الحديقة لترتاض فيها قليلاً ؟ فنزلاً ، فما أمتنا فيها إلا قليلاً حتى سمع مولر صوت اللامد تصيح به من الثالثة أن قد عادت سيدتها ، فمد يده إلى استيفن مودعاً وتركه مكانه حائراً مشدوهاً وليس وراء ما به من المم غابة .

(٩)

الحيرة

كان من أمر استيفن بعد ذلك أنه كلما رأى ماجدولين في الحديقة فر من وجهها ، وسلك طريقاً غير طريقه ، ليختل بنفسه لحظة يعبور فيها الموقف الذي يفقه بين يديها ، والتحية التي يحمل به أن يحييها بها ، فلا يصل إلى ما يريد من ذلك حتى يراها راجعة أدراجها إلى المنزل ، فكان يحمل في سبيل ذلك من المم ما يقلق مضجعه ويقلل سنده ، ويعول بينه وبين قراره ، فلا يرى بدأ من القرار بنفسه إلى اللذات والأجسام والقيام على وجهه في قدم الجبال ، وعلى ضفاف الأنهار ليبروح عن نفسه بعض ما ألم بها ، واستمر على ذلك أياماً طويلاً لا يمشي في الحديقة ولا يرى ماجدولين ولا يزور مولر ، حتى نلتت نفسه ، وذهب به اليأس كل مذبح ، فعاد يوماً من بعض مذاهبه محموراً لا يكاد يتماسك ضعفاً واضطراباً فلزم غرفته أياماً يعالج داء قلبه وداء جسمه ما لا طاقة له باحتماله .

وكانت جنيفاف قد ألمت بحملة حاله فكاشفت بها سيدتها فقصت

إلى غرفته ليعوده فراه مستيقفاً بعض الاستفاقة فسأله عما به فانتحل له علناً فجلس إليه بمادته ساعة ، فلما أراد القيام مد استيفن يده إلى معلقة بنسج كانت في آنية إلى جانب وسادته وقال له : إنني جمعت هذه الطاقة لماجدولين لأنني أعلم ولعها بالتريب المستطرف من الزهر ، فلعلك تنوب عني في تقديمها إليها ، فأخذها مولر شاكرًا وانصرف .

ومرت بعد ذلك أيام كان فيها استيفن بين بأس الحياة ورجائها حتى أدركته رحمة الله فأبل من مرضه فنزل إلى الحديقة وقد استقر في نفسه العزم على أن لا يفر من وجه ماجدولين إذا رآها وأن يتقدم نحوها فيحييها ويحادثها ، ويتفلسف لها جملة حاله ، ولم يلبث أن رآها مقبلة عليه وجهاً لوجه فلم ير سبيلاً للفرار من بين يديها ، فحيها فحيته ثم أغضى فأغضت ، فلم ير بدأ من المخاطرة بكلمة يخرج بها من هذا الصمت المعب ، فاستنصر فوته وتجمع تجمع من يريد الوثوب فوق هوة عميقة ، وأراد أن يقول شيئاً فسمعها تتكلم ، فاستفاق وحسد الله على أن كفاه تلك المؤونة ، قالت : أراك يا سيدي شاحب اللون ، خائر النفس فلعلك عاجلت من مرضك هذا عناء كبيراً ، قال : نعم ، قالت : أشكر لك يا سيدي هديتك الثمينة التي بعثت بها إلي ، ولقد أعجبتني منها أن تلك الزهرة هي أحب الزهور إلي ، فكأنما ألمت ما في نفسي ، وإني أعجب لشعرنا في إلفالهم ذكر هذه الزهرة في أشعارهم كما ذكروا غيرها مما لا يقوم مقامها ، ولا يكافئها في حسنها وروائها ، ولا أذكر أنني قرأت لأحد منهم شعراً فيها إلا قطعة صغيرة لشاعرنا جيتي ، وهنا وجد استيفن متسماً في الحديث عن الشعر والشعراء ، والذيات والزهر ، فاستمر يحادثها ساعة حتى حان وقت رجوعها فودعته وانصرفت ، فصعد إلى غرفته وقد

عزم أن يرأسها فيما عجز عن مفاتها فيها .

(١٠)

من سوزان الى ماجدولين

كما قد عزمنا على أن تزورك في قريبك يا ماجدولين أنا ووالدي
فحدثت حادث حال بيننا وبين ذلك : دعانا أحد الأصدقاء لزيارته في
بلدته ، وهي على بعد ثلاثة فراسخ من قربتنا ، ولا تبعد عن قريبك
إلا قليلا فذهبا إليه صبيحة يوم وقضينا في منزله عدة ساعات
حتى إذا زلقت الشمس عن كبد السماء خرج القوم إلى الخلاء
لتنزه في غاباته وأجماته ، وأنت تعلمين فيما تعلمين من أمر
أنني لا أجد في نفسي تلك اللذة التي يجدها الشعراء للسيول في
جمال الطبيعة وحسنها . ويهجنها ورواؤها ، ولا أغبط عما يعشون
به من منظر الغابات والأحراش والجبال والآكام ، ولا أطرب
تحرير الماء ، ودوي الريح . وهريم الرعد . وحرارة الشمس ،
ووعث الطربق ، وحشوة الأرض ، واقتحام الصخور ، والشعر
بين أنوار الفلاة وأنجادها . كما يطربون ، ولكنني لم أر بدأ
من مصالحتهم وبجاملتهم . فمشيت صامتة ومشوا يتحدثون بمجال
الحياة القروية . ويشدحون بعيش العزلة بين سكون الطبيعة
وهذونها ، وجمال الكائنات وجلالها ، والله يعلم أنه ما من أحد
منهم يعلم من نفسه أنه صادق فيما يقول ، أو أنه يتبع نفسه
ذلك الشقاء الذي يحد الأشفياء عليه ، فكان مثلهم في ذلك كمثل
أولئك الكتاب المرابين الذين يكتبون الفصول الطوال في مدح
الصلاح ، والتبويه بذكره . والله على يده البيضاء في خدمة المجتمع
الإنساني . حتى إذا مر ذلك المسكين بأحدهم وأراد أن يمد يده .

لمصالحتهم تراجع وكفكف يده شئنا بها أن تلوثها بأفئادها تلك اليد
السوداء .

وما زلتنا كذلك حتى بلغنا شاطئ النهر فراعنا أن رأينا هنالك
جمعا عظيما من الناس يتدفق فوق الشاطئ الآخر تدفق الموج
المراكم ، ويشير إلى الماء بأصبعه وينادي : الفریق الفریق ،
النجدة النجدة ! فالتفتنا حيث أشاروا ، فلذا رجل بين معترك
الأمواج بصارع الموت والموت يصصره ويقالب القضاء والقضاء
يقبله ، يظفر نازة فبمد يده إلى الناس فلا يجد بدأ تمتد إليه ، ويرسب
أخرى حتى تنسبط قوفه صفحة النهر فتحسبه من الماء لكنين ، وما
زال يتخطى ويتثبث ، ويقفهر ، ثم يحنفي ، ويتحرك ثم يسكن ،
حتى كمل ساعده ، ووهت قوته ، وابيضت عيناه ، واستحال
أذنه ، ولم يبق أمام أعيننا منه إلا رأس يضطرب ، وبدت تحتلج ،
فبكي الياكون وأعول المولون ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض
كأنما يشاهلون عن رجل رحيم ، أو شهيم كريم ، وإلهم لكذلك
إذا رجل عار يدفع الجمع بمنكيه ، ويتزلق بين الناس اتزلاق
السهم إلى الرمية ، حتى ألقى بنفسه في النهر وسبح حيث هبط
الفریق قهبط وراه ، وما هي إلا نظرة والتفتاة أن انفرج الماء
عنها فلذا هما صاعدان ، وقد أمسك الرجل بلذراع الفریق .
فكبر الناس إعجابا بهيمة المخلص ، وفرحا بنجاة المسكين .

ولكننا ما كدنا نستقيم من هذا المنظر المحزن حتى راعنا منظر
آخر أجمل منه وقما وأعظم هولاً ، فقد رأينا الفریق كأنما جن
جنوته فظن أن محاصه يزيد به شراً ، وأنه ما أمسك بلذراعه إلا
وهو يريد أن يهوي به إلى فجاج الماء فيعيد سبته الأولى ، فأقلت
منه وضربه بجمع يده في صدره ضربة شديدة ، ثم أنشأ أظفاره

في حقه ولقد بساقيه لفة علنا أن عظامه تُنْ لها أنبياً ، فاستأس
الرجل وعلم أنه هالك ما من ذلك يد ، فرطع يديه إلى السماء
وهتف بإسم أظنه اسمك يا ماجدولين ، فلم أقهم ماذا يريد ،
ولا من هي تلك التي يريد ، ثم ما ليثا أن هوى الماء بهما ، وجرى
بجراه فوقهما ، فنفقت القلوب ، ووجضت الصدور وخضفت
الأصوات واستندت الأعناق ، وتواثبت الأحشاء وترابلت الأعضاء ،
ومشى اليأس في الرجاء مشى الظلام في الأضواء ، ومرت على
ذلك دقائق لا تضطرب فيها موجة ، ولا تهب نسمة ، فزعت
إلى أبي ذاعة حائرة وقلت : أيلعبد العرق كثيراً في مصارعة
الموت ؟ فكيف ليكافي ، وقال : نعم يا بنية ، ولقد يبلغ الأمر
بعضهم أن يدور يده في قاع الماء يفتش عن حجر يضرب به
رأسه ضربة قاصية يترجح بها من الآلام والأوجاع . فركمت
على كتف من الرمل ورفعت إلى السماء يدي وقلت اللهم إنك
أعدل من أن تجازي بالإحسان سوءاً وبالخير شراً ، فلقد أبل هذا
الرجل في إنقاذ هذا للعريق بلاء حسناً ، وبدل في سبيل ذلك من
ذات نفسه ما ضمن به الناس جميعاً ، فأنشد بك اليرغاه التي
طالما مددتها لإنقاذ البائسين واكتشف عنه كربه التي يبالغها إنك
أرحم الراحمين .

ثم استخرت في دعائي ، فلم أجد أشعر بشيء مما حولي ،
حتى سمعت ضجة على الشاطئ . فاستفتت ، فإذا النهر يتغامر
عن الرجل ، وإذا الرجل صاعد وحده حتى يبلغ سطح الماء فهتف
به الناس : أن اتج بنفسك فقد أبليت أ فأبى عليه كرمه ووقاؤه
أن يكون قاسياً أو متعصماً ، فألقى بنفسه في الماء . مرة أخرى ،
وعاد بالعريق يحمله على كتفه ، وما زال يسبح به حتى بلغ الشاطئ .
فقطعا جميعاً . فتولى القوم أمرهما ، وما زالوا بهما حتى ألقاها ،

مشى العريق إلى محلضه بعد ما ألم بقصته معه يتوجع له ويمسحه ،
ويشكر له يده عنده ، ويعتذر له عن ذنبه إليه ، ثم انقض الجمع ،
وبقي الرجل وحده فليس ثيابه ، ثم مشى يتحامل على نفسه إلى
شجرات يتسح كمن على الشاطئ . فأخذ يقطع من زهراتها
ويضعها في منطقتة ، كأنها يريد أن يتخذ منها طاقة يجعلها لتلك
الحادثة تذكيراً ، فركناه على حالة وعدنا إلى المنزل صابئين
عزوين ، وقد فائنا ما كنا نؤمل من زيارتك في ذلك اليوم .

لا أستطيع أن أكتب إليك غير هذا ، فقد أصبحت لا
أذكر تلك الحادثة إلا وأجد للذكريات من الألم في نفسي ما
يجعل إليّ أنها حاضرة بين يدي ، وربما كتبت إليك فيما بعد ،
والسلام .

(١١)

المكاشفة

حال ميزان النهار ، وانحدرت الشمس إلى مغربها ، ودب
الظلام في الأضواء ديب البغضاء في الأحشاء وسكن كل صوت
إلا صوت العصافير المترددة على أبواب أعشاشها . وجلس
استيق في الحديقة تحت ظلال أشجار الزيزفون يترقب نزول
ماجدولين . وقد كتب لها كتاباً تعلق فيه قلعه بما عجز عنه لسانه ،
فشره بين يديه وأنشأ بقلب لظفه فيه فخيّل إليه أنه غير مستعذب
ولا سأل ، وأن في كل جملة من جملة موضع ضعف ، فاستقر
رأيه على أن يطويه حتى يكب ما خيراً منه ، ثم رآها مقبلة نحوه
تحمل في يدها كتاباً ، فلما دلت منه استصت له وقالت له : أتذكر

يا سيدي مكان الشجرات التي اقتطفت منها زهرات النضج
 التي أهديتها إلي؟ فاضطرب لسؤالها ، وقال : نعم - إنها على
 ضفة نهر صغير يبعد عنا فرسحاً أو فرسحين . قالت : اقرأ هذا
 الكتاب فإن لك فيه ذكراً ، فأخذ منها كتاب سوزان في حادثة
 الغريش وأمر نظره عليه مراراً فعرف كل شيء فرده إليها صامتاً
 وهو لا يدري ماذا يقول - فقالت : إنك تكتم عني نفسك يا
 استيفن فقد عرفتك وعرفت بذلك البيضاء في حادثة العرق وبلاءك
 فيها وما عانيت من آلام الحمى على أثرها - ثم مدت يدها إليه
 فصافحته - فلم يكن بين تلامس كفيهما - وخشوق قلوبهما -
 إلا كما يكون بين تلامس أسلاك الكهرباء واشتعال مصابيحها ،
 وليت بعد ذلك ساعة صامتين لا يتلفان - إلا أن في الحين لغة
 لا تقرأها إلا العيون ، فقرأ استيفن في وجه ماجدولين لوحة الحب
 وألم الخزن - واضطراب الخاش وحيرة النفس - وقرأت في وجه
 الحب والسعادة والدعشة والسرور المثالي والدمع المترقق فهاجها
 هذا انظر فأرسلت من عاجزها أول دمعة من دموع الحب ،
 فبكى ليكنأها وحنا عليها حتى المرصعات على القفيم . وشعر في
 نفسه وقد ضمها إليه بتلك العاطفة اللذيذة التي يبعدها الغريب الثاني
 عن أهله وجيرانه إذا لاقى في مطارح غربته غريباً مثله بأوي إليه -
 ويحنو عليه ، ثم أخذ يدها فألصقتها بكبهده كما يفعل المريض بيد
 عاتده ليبدله على موضع ألمه . وكانما هو يقول لها : إن لغة اللسان
 لا تكشف لك عما اشتملت عليه أعضائي من الوجد بك ، والحنين
 إليك ، فالسي قلبي بيدك لتعري مكوناته ، وتكتفي غامض سريره -
 ثم حر راكمأ بين يديها وقال : أنتيستي يا ماجدولين ؟ فلم تجب -
 فأعاد كلمته فاستمرت في صمتها ، فمد يده إليها شارحاً وقال :
 رحماك يا ماجدولين - إنني أخاف أن أكون في حلم - وأن تكون

هذه السعادة التي أراها بين يدي خيالاً من الخيالات الكاذبة التي
 كانت تترامى في أحلامي الماضية فأغبط بها وأسكن إليها حتى
 إذا ما استيقظت وجدت يدي صفرأ منها ، فأسمعتي كلمة الحب
 لأعلم أنك حاضرة لدي ، وأني لست واحداً ولا حالاً .

ومرت بيما على ذلك ساعة لا يعرف مكانها من نفسها إلا
 من مرت به في يوم من أيام شبابه ساعة مثلها ، فقد كانا بشعران
 أنهما في معزل عن العالم ، وأن مكانهما من تلك الحديقة في المرادهما
 وسكونهما وهنأهما وبعظنتهما مكان آدم وحواء من جنتهما ،
 قبل أن يأكلا الشجرة ويهبطا إلى الأرض ، وأن روحهما قد
 تجردت عن جسمهما فطارت ترفرف بأجنحتها في فضاء اللأ
 الأعلى ، فرأت مدارات الشمس في أفلاكها وحركات الكواكب
 في منازلها ، ومرت بين صفوف الملائكة ، وسمعت زجلها
 وتسيبها تحت قوائم العرش ، ودخلت جنة الخلد قرأت حورها
 وولادتها - ولؤلؤها - ومرجانها ، وروحها وربانها ، فلم يستيقظا
 من غمرتهما حتى سمعت ماجدولين صوت جتيفاف تناديا ،
 فمدت إليه يدها مودعة وهي تقول : لقدأ في مثل هذه الساعة
 في هذا المكان ، فمد يده إليها ذاهلاً لا يعلم ماذا يراد به ثم مضت
 ومضى نظراته على آثارها حتى انقضت آخر طية من طيات رداها
 الأبيض . فحمد في مكانه ساعة لا يتحرك ولا يلتفت كأنما يتخيل
 أنها لا تزال جالسة بين يديه ، فلما سمع عتق بابها دار بعينه
 حول نفسه بمنه وبسرة فعلم أنه جالس وحده .

خرج استيفن بعد ذهاب ماجدولين هائماً على وجهه يمد في عرض الفضاء يتحلى إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى ، وكأنما يريد أن يشهد الأرض والسماء ، والبحار والأنهار ، والجبال السماء ، والسهول القيعاء ، والحيوان الناطق ، والجماد الصامت ، على سروره وعيظته ، وكان يشعر في نفسه أن السعادة التي نالها هي فوق ما يحتمل طوقه . فكان كلما مر بأحد من الناس حدثته نفسه أن يقضي إليه بقصته ليحمل عنه جزءاً من سعاده ويزر بأطلاق يلعبون فجمعهم حوله وأخذ يقبلهم واحداً بعد واحد ، ثم نشر عليهم كل ما معه من المال ، ويوده لو ملك مقاتيح الأرزاق فأسيخ على الناس جميعاً أتعنه وآلامه فمحا يؤسهم وشقاءهم ، وما زال يتغفل في أحشاء القلام ميامناً مياسراً صاعداً متحدراً ، حتى رأى باب الخديقة مفتوحاً بين يديه فافتحه ومشى إلى مكانه الأول فجلس فيه وأخذ ينظر إلى شعاع النور المنبعث من بين ستائر غرفة ماجدولين فحبل إليه أنه يرى قيامها وقعودها ، وجيئتها وذهابها ، ويسمع حفيف ثوبها ، وخصخشة أوراق كتابها ، حتى انطلق المصباح ، فصعد إلى غرفته وجلس إلى مكتبه يكتب إليها كتاباً طويلاً ، ثم نال منه التعب فقام إلى سريره ونام نوماً هادئاً لذيذاً حلم فيه أحلاماً ما رأى مثلاً بعد لبالي طفولته الجميلة .

لا أزال أشعر حتى الساعة بحمال ذلك المقام الذي قمت بين يدك أس ولا أزال ألس صدوي يدي لأعلم أين مكان قلبي من أصالمي مخافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التي هي كل ما يمتنى المحب أن يكون ، والتي لا أعتقد أن أبناء الخلود يفترون لأنفسهم في دار نعيمهم خيراً منها ، ولو أن لأمرى أن يعيد من يسدي إليه أفضل النعم وأسبغها ، وأجمعها لكن غير وبر ، لوجدتني يا ماجدولين ساجداً بين يديك في كل مطلع شمس سجود العبد الشاكر للإله المنعم .

إن الله لم يبيئي نعمة الجمال التي وهبك ، ولم يجعلني يمثل ما جعلك به من رقة الحس وعظوية النفس ، فإن أنت أحببتني فقد أحببت في مجرداً من مزاي القنبان ، لا يستطيع أن يمت إليك يمثل ما تحنين به إليه ، ولا أن ينيلك من السعادة ما أنته منها ، فإن كنت تزين أن الإخلاص في الحب والوفاء بالمهد ، وهبة النفس هبة خالصة بلا لدم ولا أسف ، مزية أستحق لما يحبتك ، لها أنذا أقدمها بين يديك ، فقبلها مني وقولي إنك سعيدة .
كما أنا سعيد بك .

قدم استيفن كتابه إلى ماجدولين بدأ ييد فدعشت حينما رأيته

وألقيت عليه نظرة الحائر المردد ، فظفر إليها استيقظ نظرة المتوسل المستعطف ، فتناوله منه وعبأته في ثياب صدرها . وقالت : أضحج يا استيفن ما حدثني به سوزان في كتابها أن اسمي كان آخر كلمة هفت بها في الساعة التي كنت تحسب أنها آخر ساعاتك في الحياة ؟ قال : نعم ، ولقد نلت ببركة هذا الاسم ما كنت أقدر لتسبي من النجاة عندما هفت به . فقد علمت أن الله ما منحك هذه النعمة من الجمال ولا جعلك بما جعلك به من محاسن الخلال . إلا وأنت آخر بنات حواء عنده ، وأكرمهن عليه ، فهو أسن بك من أن يبرح قلباً يخفق بحبك ، أو يخرس لساناً يهتف بذكرك . فعذت باسمك في شدته كما يعوذ المؤمن في شدته باسم الله ، فكان لي خير معاذ وملاذ ، قالت : إنك قد لقيت في شدتك هذه عناء كثيراً ، ولقد كنت فيما فعلت من القوم المحسنين ، قال : فلما كنت محمداً قبل اليوم ، ولكنه الحب ملأ القلب رحمة وحياناً وبصيرة في عبيته عظام الأمور وجلالها ويوحى إليه أفضل الأعمال وأشرفها . أما ما لقيت في ذلك اليوم فقد كان فوق ما يحصل المحتمل ، فقد عجل إليّ أنني أعوى في منحلتي لا أعرف له قرأراً ، وأن جسمي يتفتح عن روحي فتفتحاً فتعلس منه إملاس الفرح من بيضته . فلما ذكرتك استروحت من ذكراك ما استروح يعقوب من قميص يوسف ، فلما نجوت علمت أنك سب نجاتي ، فما بلغت الشاطئ حتى جمعت تلك الزهيرات فأرسلتها إليك تذكيراً لتلك النعمة السابقة التي أسديتها إليّ . فعدت يدها إلى صدرها ، وأخرجت منه طاقة زئبق وقالت : إن أبي قد جمع لي بها هذه الأزهار صباح هذا اليوم فأنا أفدها إليك رداً لتحييتك التي حييتني بها ، فتناولها منها وشربها بين يديه وأخر . يركب بين أشتاتها وينظمها في سلك مستدير حتى صارت إكليلاً جميلاً

فوضع على رأسها وقال : إن من يرى هذا الإكليل الزاهر فوق هذا الجبين الساطع لا يرى إلا أنه إكليل عرس على رأس عروس فأخذت كلمته هذه مأخذها من نفسها فأطرقت قليلاً ، ثم رفعت رأسها فإذا دمنة رفرقة ترجح في محجرتها . فقال : لا تنكحي يا ماجدولين ، فما في قوى في هذا العالم كلها قوة تستطيع أن تحول بيني وبينك ، قالت : إنما أبكي خوفاً من الحب ، وما أنا إلا فتاة مسكينة منقطعة أشعر بالحيرة التي تشمر بها كل فتاة لا أم لها ترشدها ولا ناصر لها يمينها ، قال : ألا تعتقدين أن قلبك تقى طاهر ؟ قالت : ذلك ما أعقده وأشهد الله عليه ، قال : إذن فافه هو الذي يتصرك وبينك ، وهو الذي يأخذ بيدك في حيرتك ويبرر لك السبيل في ظلمات هذه الحياة ، لا تخافي من الحب يا ماجدولين ، ولا تخافي من غضب الله فيه ، واعلمي أن الذي خلق الشمس وأودعها النور ، والزهور وأودعها العطر ، والجمس وأودعها الروح ، والعين وأودعها النور ، قد خلق القلب وأودعه الحب ، وما يبارك الله شيئاً كما يبارك القلبين الطاهرين المتحابين لأكما ما تخابان إلا إذعانا لإرادته ، ولا تعالمان إلا أخذاً بيته في عبادته ، فامددي إليّ يديك وأقسمي بما أقسم به أن تعبتن معاً . فإن قدرنا أن نفرق كان ذلك الفراق آخر عهدنا بالحياة ، فعدت إليه يدها ففاسما وتماهدا ، وكانت الشمس قد انحدرت إلى مغربها فافترقا .

(١٥)

من إستيفن إلى ماجدولين

كتبته إليك كثيراً فلم تنكحي إليّ كثيراً ولا قليلاً ، لأنك

تعظدين ما يعتقد كثير من النساء من أن المرأة التي تكذب إلى حبيبها كتاب حب آثم أو غير شريفة ، أما أنا فأعتقد أنها إن لم تفعل فهي مرآة مصالحة لأن المرأة التي وهبت قلبها هبة خالصة لا يخالفها شك ، ولا روية ، لا ترى مانعاً يمنعها من أن تكذب لحبيبها في هيبته ، بمثل ما تحثه به في حضرته .

إن الحبيبة في الحب رأي تراه لنفسها المرأة التي تتخذ لها كل يوم حبيباً تقسم بين يديه بكل محبة من الأيمان أنها ما فتحت باب قلبها لزار قبله ، فهي تخاف أن تسجل يدها على نفسها في يومها ما يفسد عليها أمرها في غددها ، أما المرأة الشريفة فما أعتادها من ذلك كله ، لأنها تحب فتخلص فتقول ، فنكح ما تقول .

أكتبني إليّ يا ماجدولين ، فإن الذي يستطيع أن يكتم سر حديثك لا يعجز عن أن يكتم سر كتابك ، واعلمي أن رجلاً غيري ذلك الذي يتخذ من رسالتك سبباً يجرده فوق عنقك ، إن بدا لك في الفرار منه رأي ، وإن فاته غيرك تلك التي ترضى لنفسها أن تهب قلبها إلى رجل يتجر بأسرار النساء .

(١٦)

البحيرة

مضت على استيفان وماجدولين بعد ذلك أيام كانا يلتقيان فيها في المنزل أو في الحديقة أو في الغابة أو على ضفة النهر ، وكثيراً ما كانا يجلسان بجانب شجرات البسج ، ويلكزان حادثة النهر ،

وطاقت الزهر . وأحياناً كانا يزوران في زورق صغير سيران به في البحيرة ساعة أو ساعتين . ثم يعودان .

فترلا في الزورق يوماً ، وكانت الشمس قد ليست ثوبها الثالث . ثم ما لبثت أن هوت إلى مستقرها على أن ترسل من حفتها سنبها القمر . إلى هذا الوجود ليقوم عنها بحراسته حتى يعود إليه . فأمعا في البحيرة . وكانت هادئة ساكنة كصفحة المرأة . وكان السيب بارداً رطباً يترفق فيلامس الوجوه تحفة كما تلامس يد الحساء وجه حبيبها . وقد سكن كل شيء إلا صوت قطرات الماء المتحدرة من الحاديف إلى البحيرة وتقيب الصفادع من حين إلى حين . ثم هنت القمر سحر الظلام وأرسل أشعته الزرقاء إلى الزورق والبحيرة والشاطئ . وما وراء ذلك . فكانا يريان على صوت بعض الأشجار كأنها أشباح متحركة . ويتخللان أن عيون الحشرات السارية بين لعائف الأشباب شرر يتفدح . فعد هذا انظر البديع . وذلك السكون العميق . وتلك الوحدة التي لا يكترهما عليها مكلو ، وتركوا الزورق يمشي بهما حيث يشاء . ويتحدر كما يريد . وأتت يتحدثان . فقال استيفان : إن أؤثر يا ماجدولين أن يكون البيت الذي لسكنه في المستقبل على شاطئ بحيرة كهذه البحيرة . وأن يكون لنا زورق أوسع من هذا الزورق . وأجمل منه شكلاً تقضي فيه الثباتي المقصورة بين الرياضة والصيد والاستحمام . ولا بد أن يكون للمزول حديقة صغيرة تفرس بها ما نشاء من الكروم والأعشاب والأزهار والأشجار . وسأؤولى بنفسى غرس شجرات البسج لك . وسأؤشر على جذبان الحديقة والمزول غلاتي رقيقة من الحصرة البانعة . أما المزول فأرى أن يكون مشتملاً على طيفين . طقة عليا يكون فيها أربع غرف : غرفة للأضياف . وأخرى للمكينة . وأخرى للملابس . وحمام تحفة . ثم قال : أما الزيمة فهي

التي تكون في ذلك ، فاحسرت ماجدولين حجباً ، ثم قالت :
لقد فالتك أن تذكر حرفتين آخرين . إحداهما لأخيك والثانية
لأبي . قال : نعم ، لقد فاتني ذلك فلا بد إذن أن تكون الطيقة
العليا مشتملة على ست غرف ، أما الطيقة السفلى فتشتمل على قاعة
الطعام وعزرن المؤونة وبيت الخدم والحمام . إل ما يخص ذلك
من مرافق البيت وحاجاته . قالت : لقد فالتك أيضاً أن الحديقة
لا يجعل منظرها إلا إذا كان في وسطها حوض صغير يشفق ماء
تبراً ، قال : نعم ومستخلده لتربية الأسماك الملونة ، ولا يفوتنا
أن نحوطه بسياج عال من الأغصان المشبكة وقاية لأطفالنا الصغار .

فأخذت هذه الكلمة مأخذها من نفس ماجدولين ، واصفر
لها وجهها ، ثم أطرفت برأسها طويلاً ، فحنا عليها استيفن وسألتها
عما بها ، فرفعت رأسها فإذا هي تبكي . فقال : ما بك يا ماجدولين ؟
قالت : إن الدهر يا استيفن أسمن بالسعادة من أن يبها كلها لشخص
واحد ، وأخاف أن تكون كاذبين في آماننا ، أو مخطئين في تصور
مستقبلنا ، فليت الدهر - إن كان يعلم أنه سيحول بيننا وبين
معادتنا في المستقبل ويكدر علينا صفو عيشنا بقاجمة من فواجعه
أو نازلة من نوازله - أن يمد إلينا يده في هذه الساعة فيسبل حياتنا
من بين يدي أجلتنا لتخلف في أفواهنا سرارة الموت ؟ قال : لا
تخافي يا ماجدولين ، فإن سلطان الدهر لا تمتد يده إلى مواقف
الحب إلا إذا أراد المحبون أنفسهم أن يكون له هذا السلطان عليهم ،
فكوفي مني أتمد من حيلك عدة أنازل بها حوادث الدهر وأرزائه ،
وأفسد عليه حوله وقوته - فصحت واجمة ، ثم ألفت نظرها
على البحيرة ويجرى الزورق منها وقالت : لو أن لأمرىء أن يتخى
لنفسه ما يشاء لتسببت أن يكون هذا الطريق الذي تسير فيه طريق
الأبدية وأن يظل هذا الزورق مطرد بنا في مسيره لا يقف في طريقه

شيء حتى يبلج بنا أبواب السماء .

ثم تنصت الصعداء وقالت : حسناً يا استيفن . فقد أوشك
القمر أن يجيب ، وأنا لا أحب أن أرى مقبىه ، لأني أخاف أن
تغرب سعادتنا بفرويه ، فنظر إليها واحماً مكثشاً كأنما دار بقسه
ما دار بنفسها من المخاوف والأوهام . ثم قام إلى المجاديف بحركتها
واضططجت تحت قدميه . وما زالاً حتى بلغا الشاطئ . ثم مشياً
حتى بلغا المنزل . فلما أرادا أن يفترقا أدنى بدعا من فمه يحاول
أن يقبلها ، فأبت قبلها في حينها فارتعدت . وألقت عليه نظرة
عقب أخافت من نفسه مأخذها وانصرفت .

(١٧)

من ماجدولين إلى استيفن

ماذا صنعت يا استيفن ؟ إنك سلبتني الليلة الماضية راحتي وسكوني ،
فإني كلما تذكرت تلك الليلة التي وصمت بها حينئذ شعرت كأن
لأراً مشتملة تتأجج بين أصابعي . وأن صحيفتي التي لم تزل بيضاء
حتى ليلة أمس قد أصبحت تضطرب في بياضها الناصع تنفحة سوداء ،
فأحاول أن أطردها من أمامي فأكون كالأرمد الذي يحاول أن
يطرد النشاة السوداء عن عينيه فلا يستطيع ، لقد سكبت عيناى
كثيراً من الديرث . وثولست كثيراً إلى الله تعالى أن يفتر لي ذنبي ،
ولا أدرى ما هو صانع لي . ولا كيف أستطيع أن أفر بين يديه
يوم الحساب بهذا الحين المسود من الإنم ، وهذا الوجه المحمر
من الحجل ؟ لا أكتملك يا سيدي أنني لولا أن عزبت نفسي عن
هذه التكة بأنك أحدثت مني تلك الليلة أحنأ ، ولم أمنعها لك

منحة ، فقلت نفسي يدي . لا تعد إلى مثلها يا استيفين إلا إذا
أردت أن تراني يوماً من الأيام بين يديك جثة هامدة .

(١٨)

من استيفين إلى ماجدولين

ما كنت أعلم قبل اليوم أن الفناء التي تحب ، وتعاهد من تحب ،
وتقسم بين يدي حبيبها بين الإخلاص والوفاء على أن تكون له
كما يكون لها ، وألا يجعل ليد غير يد الموت سيلاً إلى التفريق
بينها - تستكبر عليه قبله شريفة بأخذها من حبيبها كما بأخذها
الأخ من جبين أخته ، والتعب من يد كاهنه .

ما أحبب إلا أنك قد خلعت نفسك بنفسك يا ماجدولين
حين ظننت أنك عاشقة ، وما أنت من الحب في شيء . لأن الفتاة
التي تحب لا ترى بأساً في أن تمنح قلبه لحبيبها منحة ، ولا تنتظر
أن يأخذها منها شيئاً .

الآن عرفت أن بكاءك بين يدي ، واضطراب يدك في يدي ،
وحقوق قلبك عند روحي ، إنما كان أثراً من آثار الخوف لا مظهراً
من مظاهر الحب ، وأن عطفك عليّ وتحببك إليّ واصبرفك بي ،
لم يكن لأنك كنت تحبني ، بل لأن فتاة مسكينة ضيقة مثلك لا
بد لها أن تشعر بالليل إلى كل رجل قوي بجانبها .

تقولين لي أنك قضيت ليلك أمس معدبة ، لا يها لك مضجع ،
ولا يتمتع لك جنين ، أما أنا فأقول لك : إنني لم أفصح في حياتي
ليلة هنا من تلك الليلة ، لأنني بت أنجيل تلك الليلة التي تناولتها

من حبيبتك كأنها نغم منضد يشتم إليّ أرق اشمام وأعذبه ، فأشعر
بروح الحب تدب في أعضائي ديب الحميا في وجه شاربا ، أما
اليوم فإني أصبحت أتقبلها تمثالاً جامداً من الحجر الصلد مثلاً
بين يدي لا يتحرك ولا ينطق .

عمواً يا ماجدولين . فإني ما تناولت تلك القبة من حبيبتك إلا
وأنا أعتقد أنني أقبل زوجتي لأنني لا أرى فرقاً بين عهد الإخلاص
الذي يورث بين يدي الحب وعقد الزواج الذي ينفذ بين يدي
الكاهن . وأشكر تلك الساعات القليلة التي سعدت فيها على يدك ،
وإن كانت سعادة موهومة . ويمكنني أن أقول لك إنني ما نقصت
- حتى الساعة - ذلك العهد الذي عاهدتك عليه . وإنني لا أزال
أحبك كما كنت ، لأنني ما كنت أحببتك لأجازيك على حب بنته ،
ولا لأنك جميلة أو عاقلة أو ذكية ، ولا لشيء مما يحب الرجال
له النساء ، بل أحببتك للحب نفسه والسلام .

(١٩)

من ماجدولين إلى استيفين

عمواً يا استيفين فما كنت أحب أن كلمني بالغة منك ما بلغت ،
أو أنها ذاعية بك هذه المذاهب كلها ، فأغفر لي ذنبي ، فواقه ما
احفظت بعرضي إلا لك ، ولا معتك تقدي اليوم إلا لأبليها
لك غداً ، أنت اليوم حبيبي . وغداً تكون زوجتي ، وكل ما
صنعت أنني توصلت إلى حبيبي أن يرغمي طاهرة نقيه إلى زوجي ،
أما الخداع الذي تذكره في كتابك فأنا أعتقد أنك تعلم من أمري
غير ما تقول ، ولكنك غفبت فقلت غير ما علمت .

من مولد إلى استيفين

أكتب إليك كتابي هذا وبدي ثلثه حجلاً ، ونصي نيل
حزناً ، لأنني ما كنت تجدر في نفسي أن أستمع في ساعة من ساعات
حياتي أرى نفسي فيها مضطراً أن أتول لصديقي الذي أجله وأعظمه
وأزله من نفسي غير منزلة : إني لا أستطيع أن أستقبلك في منزلي
بعد اليوم ، بل لا أستطيع أن أحتمل بقاءك في المنزل الذي أسكنه
وتسكنه ابنتي لأن لي شرفاً أبهى عليه أكثر مما أبهى على صداقة
الأصدقاء ، على أنني أرجو ألا تزال تعطيني صديقك الخالص
إليك ، كما إني لا أزال أحسدك كذلك ، وإن فرقت بيننا الأيسام .

حليتي

جلست ماجدولين في غرفها تحبب ثوباً لها ، ربما كانت تعدد
لبلة عرسها فندت إربتها من بعدها فوضعت رأسها فإذا أيوها مائل
باب الغرفة فدعشت لمرآة وراعاها منظر سكوته وجموده . ثم
مشى إليها بقدم مطمئنة حتى وضع يده على عاتقها وقال : أتعلمين
يا ماجدولين أنني أرسلت جنيفاف الساعة بكتاب إلى استيفين أسئله
فيه من دخول بيتي ، بل أسئله من البقاء في منزلي ؟ قالت : لا
أعلم من ذلك شيئاً ، ولا أعرف لصنيعك هذا شيئاً ، قال : لا
سبب له إلا أنه يحبك ، قالت : إنه لا يحبني ، ولكنه يحب أن

يتزوج لي ، قال : ذلك ما لا أريد أن يكون ، قالت : ولماذا ؟
قال : لأنه لا يصلح أن يكون زوجاً لك ، قالت : أنا أعلم أنك
اتخذته لنفسك صديقاً ، وأنتك تعرف له مكانه من الفضل والنيل ،
فكيف ترضى أن تتخذ لنفسك صديقاً من لا ترى أنه لا يصلح
أن يكون لابنتك زوجاً ؟ قال : إني أصادفه لأنه شخص كريم ،
ولا أحب أن أصاعره لأنه بائس فقير ، فقد عثرت بكتاب سقط
منه فقرأته فعرفت أنه لا يملك ما يقوت به نفسه فأجرى ألا يملك
ما يقوت به أهله ، قالت : إنك حدثني عنه أنه فني ذكي متعلم ،
ومن كان هذا شأنه لا يكون بينه وبين الفنى إلا بضع جولات
يحولها في ميدان هذا العالم ، فيعود من بعدها رجلاً غنياً وزوجاً
صالحاً ، قال : إن في أخلاقه من الأتفة والترفع ما يحول بينه وبين
النجاح ، قالت : إن الحب يقوم ما اعوجج من الأخلاق ويحوي
ميت الأمل في نفس المحب ، فلا تظني جمره الحب التي تشتعل
في قلبه ، فإنك إن فعلت ففته وقتلت أمله وأتلفت عليه حياته ،
قال : يا بنية إني أعلم من أخلاق الناس وشؤونهم مالا تعلمين ،
وقد رأيت أنني أكون خاطراً بك وبمستقبلك وبكل ما أرجو لك
من مساعدة في العيش وهنائه ، إن أنا رخصت لك الزواج الذي أعلم
أن شره أكثر من خيره بل أعلم أنه شر كله لا خير فيه ، فانظري
يا بنية في أمر نفسك بعين غير عين الحب ، فإنها دائماً حوالة ،
وإذكري أن أباك الذي يحبك وبزلك من نفسه منزلة لا يملك
عليها غالب لا يمكن أن يكون غاشاً لك أو خادعاً ، فركعت بين
يديه ومدت يدها إليه ضارعة وأنشأت تسترحمه باليكاه مرة والدعاء
أخرى ، فكانت كأنها تستبط الماء من الصخر ، أو تستبث الريح
في القفر حتى وهت قوتها ، فسقطت تحت قدميه فتركها مكانها
ومضى لسياء وهو يقول : إليك اليوم تجهلين ، وغداً تعلمين .

دخلت جنيفاً على استيفن في غرفته وقد جلس إلى مصباح ضئيل يقرأ في كتاب فأعطته كتاب سيدها ورجعت أذراجها ، وكان أول كتاب جاءه من مولر ، لمع بخاطره وهو يفض غلافه كمثل شأن إلا الشأن الذي كتب فيه ، فما أمر نظره عليه حتى فهم كل شيء .

قلو أن رامياً سدد إلى قلبه سهماً جديداً فضد إليه ما بلغ منه ما بلغ هذا الكتاب ، ولو أن نازلة من نوازل القدر هوت عليه فاحتفظت نفسه من بين جنبه لكان في مصابها رأي غير رأيه في هذا المصاب ، فقد سكن على أثر ذلك سكناً لا تطرف فيه عين ولا ينض فيه عرق ، ولا ينفق قلب ، ولا يتحرك خاطر ، حتى ليكاد يعتقد الناظر إليه في تلك الساعة أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت . تتبع فيها الحواس في سبيلها ولكنها لا تعود إلى الدماغ بشيء مما تحس به .

واستمر على ذلك ساعة ، ثم انقض انقراض الطائر المذبذب ، ودار بعينه بمنه ويسره كأنما يفتش عن شيء أضاعه ، فرجع نظره على الكتاب وهو ملقى بجانبه فقرأه مرة أخرى ، ثم ضرب جبهته بيده وأثنأ يقول بصوت خافت : لا أمل لي بعد اليوم ، هأنذا ، وما هو ذا الكتاب بين يدي ، وما أنا بعالم ولا الكتاب بكاذب ، نعم إن مولر طردني من بيته وقتل نفسي قتلاً ، وفجمني في جميع آمالي ، وحال بيني وبين ماجدولين . أي إنه فرق بين روحي وجسدي

إله فعل ذلك وهو لا يدري ماذا يفعل . إنه يحرم هذه الجرائم كلها ماكنها هادئاً كأنما هو يبيت بنأسه في أرضه أو يتورج حذونه من طريق إلى طريق . لقد قسا على قسوة لم ينسها أحد من قبله على أحد ، إنه علم أي عقاب لا أمالك شيئاً . ورأى أن للفقر جريمة لا عقاب لها إلا القتل . فقتلني .

ثم كأنما جن جنوناً قفز من مكانه ثورة الأسد المائج ، وتمثل له كأن مولر مائل بين يديه فمشى إليه مهدداً . وصار يهذي ويقول :

مهلاً رويداً أيها الشيخ الأبله ، أطلت أي بين يديك شاة خرقاء أو دجاجة بلهاء تقدم نفسها لسكين الذابح حينما يريد ؟ لا ... لا ! أنا إنسان عاقل ورجل شجاع ، لا بد أن يكون لي أمل أحياناً . وسعادة أنعم بها ، ولا بد أن أقاتل عن أمل وسعادتي حتى أبلغهما أو أقتل دونهما .

كذبت أيها الرجل . إنك أضعف من أن تمد يدك إلى هسفا الرباط المقدس فقطعته ، إنك أضعف من أن تتزع شعرة من شعور رأسك البيضاء فأحرى أن تعجز عن أن تتزع روحاً عن جسدها .

إن الذي بيني وبين ماجدولين شيء . لا تصل إليه يدك ، ولا يمتد إليه سلطانك ، ولا يتعلق به أمرك ونبيك وعظماؤك ومنعك .

إنك تستطيع أن تطردني من بيتك لأنك تمتلكه ، وأن تحبس بيتك في غرفتها لأنك أبوها ، ولكنك لا تستطيع أن تمنع قلبنا أن يتحانا ونفسيما أن نتصلا .

إن الذي خلق الإنسان وأمدى إليه لعمرة الحياة والرزق لم يسرقه بهذه النعم ، ولم يملك عليه قلبه شيئاً لها . بل تركه حسراً

بعب من يشاء ، ويغض من يشاء ، وأنت تريد أيها الشيخ الضعيف
السكين أن يكون لك على قلوب الناس سلطان فوق سلطان الله ،
ولإرادة فوق إرادته .

أي شأن لك عندنا ، وأي صلة لك بنا ؟ وقد ذهب عصرك
وذهبت بذعابه ، وأصبحنا لا نعد وجودك وجوداً ، ولا حياتك
حياة ، فإن نظرنا إليك فكما ننظر في ساعة من ساعات فراغنا
إلى صفحة من صفحات التاريخ الغابر .

إن عفتك الذي يلى ورت وانشثرت فوقه طيفة سوداء من
القدم لا يصلح أن يكون مرآة صادقة نرى فيها وجهنا ، ونحاكم
إليها في سعادتنا وشقاتنا .

إنك شره طماع ، رأيت أن ماء حياتك قد نضب ، وأن
أغربة الغناء السود تحلقت فوق رأسك المتشل شياً ، فمزحلتك
أن تموت فبحثت إلينا نحاول أن نقاسمنا حياتنا الجهددة الغضة ،
فكان منلك كمثل ذلك الملك العظام الذي كان يمتص دماء الأطفال
ظناً منه أن ما يمتص حياتهم يزيد في حياته .

إنني لم أكن أريد بك أيها الشيخ المأفون ولا بابنتك شراً ولا
صيراً ، بل كنت أهد لها شيئاً حينئذ رغداً في مستقبل حياتها ،
فأنا خير لها منك ، لأنك ما أردت بها فيما صنعت اليوم إلا عذاباً
دائماً وشقاء طويلاً .

وأعجب من ذلك كله أنك تذكر في كتابك الصداقة والإعلاء
والإخلاص كأنك تظن أن إليه قد بلغ مني مبلغه منك ، وأنى أجهل
أنك شيخ مداح مصانع ، تكذب الحكم بالإعدام ، وكأنك تكذب
بطاقة دعوة إلى وليمة ، وتقدم قطعة الحلوى ، وقد دمست في

باطنها نافع السم ، وترفع فبعتك احتراماً لمن يقطر حنرك من
قلبه دماً .. وهنا يبلغ منه التنب مبلغه فسقط مكباً على وجهه .
بيكي بكاء الطفل الصغير . وينشج نشجاً محرناً ، ثم جثا على
ركبته ورفع وجهه إلى السماء وأنشأ يقول :

رحمتك اللهم وإحسانك ، فأنت تعلم أي رجل ضعيف لا
ناصر لي ، ولا معين ، فكأن أنت ناصرى ومعينى . اللهم لبي أعترف
بأنى أذنبت إليك في اعتزازي بنفسى - واعتفادي بيمولى وقولى .
وأنى أهفقت قضاءك ولقدرك . وما تحويه عن عبادك من أحكام
السعادة والشقاء ، واللب والسطاء . فقدرت لنفسى من سعادة
المستقبل وهناه ما لا أملكه . ولا سبيل لي إليه إلا بمعونتك وقوتك .
فاغفر لي ذنبي . وخذ بيدي في تكفي . فقد أصبحت أعجز
الناس عن الصبر والاحتمال .

ثم سكن بعد ذلك سكناً عميقاً ، ولم يزل باسماً يديه رافعاً
رأسه إلى السماء . كأنما كان ينتظر أو يسمع هائفاً ينتف به من
اللا الأعلى ، فلم يلبث أن رأى من خلال دموع الحائرة في عينيه
شيحاً من نور يتلألأ أمامه . وكان المصباح قد انطفأ ، وأضاءت
الفرقة بأشعة القمر فمسح دموعه بيمينه ونظر ، فإذا
هي ماجدولين .

(٢٣)

الوداع

لبت ماجدولين في غرفتها بعد أن فارقتها أيوها ساعة تغلب

النظر في أمرها ، فلا ترى في ذلك القلام الخالك نجماً يتلألأ ،
ولا ذبالة نضي ، فيكث ما شاء الله أن تعمل حتى مضى الليل إلا
أفقه ، فحدثتها نفسها بأمر ما كانت تحبها به لولا لوعة الحب ،
وفجعة اليبس ، وقامت تخلط خلطوانها اختلاصاً ، وما على وجه
الأرض قلب أشجع من قلبها ، ولا لوعة أشد من لوعتها ، حتى
وصلت إلى السلم فصعدت تسرق درجاته حتى انتهت إلى أعلاه
فوقفت قليلاً تستغفر الله من ذنبها وتساله إحسانه ورحمته ،
ثم مشت إلى حجرة استيقظ ودفعت الباب قليلاً فرائه جالياً على
ركبته يهتف بدعائه فأثر منظره في نفسها ، وأخذت تكي ليكاته ،
وتدعو بدعائه حتى التفت فرأها ، فخلق قلبه حقاً متداركاً ،
وتعلقت أنفاسه وجدد نظره ، وترايبت أوصاله ، حتى ما يكاد
يتحرك من مكانه ، فقد إليها يده كالستيفت المثلث فدلّت منه
وقالت : إني جئتك لأودعك يا استيقظ ، ولا أستطيع أن أبقى
عندك طويلاً ، فهل تستطيع أن تعانني وعداً صادقاً ألا تترك نفسك
في يد المموم تمت بها كبت نشاء ، وألا تجعل لباس سيبلاً إلى
قلبك حتى يجمع الله بيني وبينك ؟ قال : ذلك أمره إليك ، فأنت
التي تستطيعين أن تجعليني شجاعاً سيوراً متحملاً ، وأنت التي
تملكين أن أحمي بالأمل ، أو أموت باليأس ، قالت : إني أقول
لك اليوم يا استيقظ كلمة كان ينبغي الحياء أن أقولها لك قبل اليوم ،
وهي أنني أحبك حباً ملاً فراغ قلبي ، فما يسع غيره ، ونزل
من منزلة الروح من الجسد ، فما يتنقل عنه . وقد عاهدتكم على
الزواج بين يدي الله وبدي شميري ، وما أنا بخاتمة شميري ،
ولا بكاذبة ربي ، فسافر يا استيقظ ، وقش عن سعادتنا في كل
مكان ، وبكل سبيل ، حتى تجدها ، وعد إليّ بعد ذلك قلي
سأكون لك ما حبيت . سافر حين شئت . وتقلب في البلاد كما

أردت . وذهت إلى بعد عام أو عامين أو عشرة أعوام أو أكثر
من ذلك . فإنت سجدتلي كما تركتني تقيّة طاهرة . ووقية . وعلم
أن الله ما أحسن الصبر عندك . وأعلمت مثل ذلك في مثل هذا الموقف .
الذي تظلمت فيه العتول وتظير وواجع الأضلام . إلا وقد أراد
بنا خيراً في جميع شؤوننا . وقدر لنا السعادة ، إقناء في مستقبل
أيامنا ، سافر يا استيقظ عدّ . واكتب إليّ بكل ما تلتقي من خير
أو شر لأنفسك سراءك وضراءك وما كتب إليك كما تكتب إليّ .

فمكن نأثره قليلاً ، وقال : إن صفري سيكون طويلاً يا
عاجده لير . فهل لك أن ترويني بقليل من الزاد أستعين به على
بعد الشقة وعناء المسير . فمدت يدها إلى شعرها وقصت منه
خصلة فأعطتها من شعره مثلها . ثم تراجمت قليلاً قليلاً ، وهي
تنظر إليه بعين ملوؤها الحب والخرج ، والصبابة والدموع ، فقام
إليها ليدركها فاحتضت .

(٢٤)

السفر

استيقظ استيقظ صباح يوم الرحيل وأمل من نافذة غرفته
المشرقة على الحديقة فرأى الأفق يتفتح عن نفسه شيئاً فشيئاً ، ورأى
الشمس قد هبت من مرفقها ، ولا تزال في جفنها سنة الغمض ،
ثم رآها وقد ليست ثوبها الأول وحطت بعض الخطوات إلى مقلعها ،
فلمشت أمامها حاشية من الأضواء تتقدمها كما تتقدم الملك حاشيته
في مقلعه من باب قصره . ثم نظر إلى السماء من ناحية المشرق ،
وقد انتشرت في أعاليها لغاريق السحب ونشت في جلودها حمرة

ثم ذهب إلى البستاني واتفق معه على أن يعمل على فرسه إلى (كوبلاس)
ثم قارق (ولفاح) بين وجد يقنله ، وأمل يجيبه .

(٢٥)

من ماجدولين إلى استيفين

سافرت يا استيفين وأصبحت بعيداً عني ، وما أحب أني
أراك في عهد قريب ، فما أعظم بؤسي وشقائي . وما أشد ظلمة
الوحشة المحيطة بي .

لقد خدعت نفسي يوم أشرت عليك بالسفر . فقد ظننت
أن بين جنبي ذخيرة من الصبر والاحتمال ، أقوى بها على تجرع
كأس مرارة المريرة . فلما فقدت وجهك علمت أني فتاة ضعيفة
بائسة ، لا تقوى على احتمال أكثر مما تعلق من الآلام والأحزان ،
وأنني فيما أدليت به إليك من تلك الصحيفة ، إنما كنت أحدث
عن خواطر عقلي ، لا عن شعور نفسي .

لقد كنت أرجو أن يكون آخر عهدي بك يوم رحيلك وفتة
أقفها في نافذة غرفتي أحييك فيها تحية الوداع ، وألقي عليك
فيها آخر نظرة من نظرات الحب . لولا أنني خفت عليك المرح
أن تراني باكية . وعلى نفسي الثلث أن أراك جازعاً ، فافتدبتك
وافتدبت نفسي بيده التوحة التي تتأرجح اليوم في صدري ، فما
أصبح الوداع ، وما أصعب الفراق بلا وداع !

وتركت بعد سفرك إلى الخديفة فلم أجدك ، ووجدت على
بعض مقاعدنا طائفة الزهر التي تركتها لي قبل سفرك . فلتحتها

التود . فخيّل إليه أنه يرى هناك برجاً عظيماً تضطرم فيه النار
اضطراماً . وأن دخان تلك النار يترأكم فوقها مرة وينفجر عنها
أشعري . ثم رأى أشعة الشمس البيضاء تخالط حبات الطل في أوراق
الزهر والظل لم يجر ذاته . فكان كأنه يرى أحجار من الماس تضيء
فتنكس عنها ألوان مختلفة بديعة تملك القلوب والأبصار ، ولم
يكن يسمع في تلك الساعة من الأصوات غير طنين التحل وهو
مكب على أزهاره يرشف كوكوسها ، ويتطاير من حولها كما تتطاير
الأحلام اللذيذة حول الأطفال الصغار .

فألقي على تلك المناظر كلها نظرة عامة لم يترجعها إلا صله
بالدمع حينما ذكر أنه سيقارني عما قليل هذه الدار . ويقارني
بفراقها سعادته وهنائه ، ويقارني ظلال اليزيقون التي كان يجلس
إليها مع ماجدولين ، والجدول الذي كانا يمشيان بجانبه . والزورق
الذي كانا يتزاهان فيه ، والمقعد الذي كان يقصده من الخديفة
ليستظر مجيئها ، أو ليرى خيالها من نافذة غرفتي . والغرفة التي
كان يشرف من نافذتها لسمع نغمات موسيقيا العذب . وملاقات
الزهر التي كانت تهديها إليه فيسرح منها نسيمها . فلم يزل
يكي بكاء الشيخ على عهود صباه . حتى كادت تنثف نفسه ،
ولولا أنه ذكر حديثها معه ليلة أمس مزي نفسه عن فراقها
بإخلاصها ووفائها ، وما عقدت بينها وبينه من العهود لنفسى في
مكانه أسفاً . ثم قام إلى حقيبه فوضع فيها ملابسه ومراقفه . ونزل
إلى الخديفة فودع أزهارها وأشجارها ومجالسها ومقاعدنا . ولم
يترك جذعاً لم يقبله ، ولا غصناً لم يبرخ حده
فوقه ، ويظله بدموعه ، وتقش اسمه واسم ماجدولين على كبير
من المقاعد والجدوع . وانطلقت من كل شجرة زهرة . وجمع
تلك الأزهار في طائفة واحدة . وتركها على بعض المقاعد ماجدولين ،

يتتوف بارية

WWW.LIILAS.COM

من عزرات الطريق وعشاقه وقلقته البرد وروعته غناء عذيباً .
فالتحفت رداً وأوبت أن يعفس زوايا غرفتي ، وظننت أنني
على فراشك مرة وعلى شذائك أخرى . وأذود النوم عن عيني
شباباً لأنني لا أستطيع أن أكون راضية عن نفسي . ولا ذلك
في مقصدي إن كنت في ساعة لا تجد فيها أنت إلى الراحة ميلاً .
حتى مضى الليل إلا أنه . ففكرت أن العاصم الذي كان يغالب
جفني قد غلبني عليهما فست في مكان . يوماً مشرفاً مدهوراً .
حتى استيقظت مع الصباح . فإذا الريح ساكنة . والشمس ماطلة
والبحر باسم طائر . فحدثت الله على ذلك .

إني أهد الساعات والملاحظات يا استيفين ، وألتظر يشوق عظامي
وصول أول كتاب منك يبشرني بولوجك مستغرق سائلاً . فوهي يأتي
كتابك إليّ ؟

(٢٧)

من ماجدولين إلى استيفين

لم تكف الأريزون ساعة التي مرت لي لتخفيف شيء من همومي
وأحزاني ، فلقد قضيتها حائرة الذهن مشردة القلب أغلب عيني في
كل مكان فلا أجد في بارقة من بوارق الحقيقة ولا سائلاً من مراحج
الخيال عزاء ولا سلوى . فصعدت إلى غرفتك المهجورة على أجد في
منامي بها ساعة علاج ما أكابده من هموم وأحزان . فلما بلغت
وولسحت يدي على مفتاحها شعرت برعدة شديدة فقلت ما بين
نمة رأسي إلى أحصص قلبي ، فلقد خيل إليّ أنني لو فتحت الباب
البار وجذناك وراءه واقفاً تنسج إليّ وتفتح ذراعيك لاستقبالي .

والتفت شخصك فيها . ثم مشيت إلى ذلك المقعد الذي كنا نجلس
عليه معاً تحت شجرة الزيتون فجلست فيه وحدي . ونشرت
بين يدي رسالتك الماضية . وأنشأت أفروها وأصحي إلى حديثك
فيها ، فخيال إليّ أنك جالس بجانبني تحديني فما لهم . وأن ما
يقع عليه نظري في صفحات رسالتك إنما هي نبرات سمعها أذني .
لا أعطوط تبصرها عيني . فسكت لذلك الخيال ساعة تكون
الطفل الباكي لتبديد المهد ، حتى سمعتك تدعوني في بعض أحاديثك
« يا عطيتي » وهي تلك الكلمة الحلوة العذبة التي تهبط حلاوتها
إلى أعماق قلبي كلما سمعتها ، فانتفضت وألقيت نظري على مكانك
الذي تخيل بجانبني فوجدته خالياً ، فعلمت أن تلك الساعة الجميلة
التي مرت بنا تحت هذه السماء الصافية ، وفوق تلك المقاعد الجميلة .
وبين مشبك هذه العنسون والأوراق ، قد ذهبت . ولم يبق لي
منها غير ذكراها . فيكيت ساعة طويلة لا علم لي بمداهم ، ثم
استفتت فصعدت إلى غرفتي . وجلست إلى منضدتي أكتب إليك
هذا الكتاب .

وهي تعود يا استيفين ؟ ومنى تعود بعد ذلك الأيام الحسان ؟ !

(٢٦)

من ماجدولين إلى استيفين

لقد كابدت بالأمس ليلة ليلا . فلم يتحلل كوكب الشمس
إلى مغربها حتى سمعت صوت العاصفة يهدر في كل مكان ، رأيت
آفاق السماء قد ارتدبت واقشعرت ثم ارفضت عن غيوثها المنهلة ،
فذكرت أنك لا تزال على الطريق . وأنت تقاسي في تلك الساعة

فلما طفت لم أجد غير الوحشة السائدة ، والسكون المخيم . وغير
سريرك المشعث ، وأوراقك المبعثرة في كل مكان ، والغبار المنتشر
في أرضها وسماها ، فهدت ما تشعث وجمعت ما تبعثر ومسحت
الغبار عن المقاعد والتوافد ، وأعدت المرة إلى عهدنا الأول أيام
كنت تسكنها وتربنا ، كأنما آيت إلا أن تكون غرختك المعدة لك .
المساء باسمك ، حاضرأ كنت أو غائبا .

ووجدت على بعض المقاعد بضعة دراهم في كيس صغير .
فلمت أنها أجرة الغرفة التي يتقاضاها أبي قد تركتها له ليأخذها
من حيث لا تراه فأخذتها لأحملها إليه ثم استوجه إليها لأتاجع بها
حلية أو ذخيرة أتقلدها ، كأنها هدية مرسله منك إلى .

سأحمل نفسي يا استيفن على الصبر منك ، حتى يطوى
القدر مسافة الجهد بيني وبينك ، وستكون قلبي التي أتعلل بها
منذ الساعة كلما حاج بي هالنج الشرق إليك ، إنك ما بددت عني
إلا لتضرب مني ، ولا فارقتي إلا لأنك آثرت اجتماعاً آمناً
طويلاً على اجتماع مصدر غير مأمون ، فامض في سبيلك أيتها
الصديق المحبوب ، وذلك بهنك جميع الطيات التي تتعرض
سبيل سعادتنا وهناتنا ، حتى نلتقي بعد ذلك لقاء تسيبنا حلاوته
مرارة ذلك الماضي المحزون الويل .

(٢٨)

من استيفن إلى ماجدولين

بالأمس كنا ، وكان يجتمعنا بيت واحد ، لا يكثر صفانا

فيه مكدر ، واليوم عن ويني وبينك حسمون فرسخاً لا تحس
بدي يدك . ولا تحبث ألاملي بشعرك . ولا أستشق غير أنفاسك ،
ولا يرد صوتك العذب في جوانب قلبي ، ولا تضيء ابتساماتك
الحبيبة ظلمات نفسي . ولا تظفي أنظارنا في مكان واحد .
ولا تخرج أنفاسنا في جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدي بها .
ولا الجو باسم فطلق كما أعرفه ، ولا الله صاف عذب ، ولا
القواء زفراق لطيل ، ولا الروض متفتح عن أزهاره ، ولا
الزهر منتفض عن عبيره كأنما كنت سر الجمال الكامن في الأشياء ،
فلما حلت منك انقمرت وانسحرت وبنت عنها العيون والأنظار .

ولقد لقيت في كويلانس ، أبي وأهلي وكثيراً من أبناء
وطني فلم يفتني لقائهم عن لقاءك ، ولم أجد في وجوههم ذلك
الأنس الذي كنت أجدته فيها قبل أن أعرفك ، فأصبحت أشعر
في مقامهم بينهم بما يشعر به الغرب المبت الذي يعيش في وطن
غير وطن ، ودار وأهل غير داره وأهله ، فسئى تنفسي أيام
غرتني ومنى أعود إلى أهلي ووطني ؟

قد أحزنتي كثيراً ما تكاديت من الآلام والأحزان من أهلي ،
ولو كشف لك من أمر نفسك ما كشف لي منها ، لعرفت أنك
أسعد مني حظاً ، وأروح بالاً ، لأنك تمشين في المواطن التي
شهدت سعادتنا وهناتنا ، والتي نبثت في تربتها آمالنا وأحلامنا ،
فكل ما حولك بذكرك يحبك ، وأيام سعادتك ، أما أنا فكل
ما حولي غريب عني ، أنكروه ولا أكاد أعرفه . كأنما هو مؤتمر
بي أن يتزعم مني ذكرى تلك الأيام الحبيبة التي قضيتها بجانبك ،
وهي كل ما أصبحت أسلكه من بعدك .

سأكون شجاعاً كما أمرت يا ماجدولين ، وسأبذل جهدي

في تدليل كل عفة تنف في طريق سعادي بك ، فاكسي إلى
 كثيراً ، وحدثني عن كل ما يحيط بك من الأشياء ، وما يعرض
 لك من الشؤون ، صغيرها وكبيرها ، لأجد على البعد عنك لذة
 القرب منك ، واجعل حيك عوناً لي في مقاصدي وآمالي ،
 فبك هو الذي يجيبني ، وهو الذي من أجله أعيش وأبني .

(٢٩)

حفلة رقص

أقام والد استيفن في بيته حفلة راقصة ، وأمر ولده أن يشهدها .
 ولم يكن قد شهد حفلة رقص قبل اليوم ، فأذعن على كره منه .
 فلما اجتمع الجمع وماجت قاعة الرقص بالراقصين والراقصات .
 وقف استيفن موقف الحيرة والحجل أمام هذه المناظر المدعشة
 الغربية ، لا يدري ماذا يفعل . وأي سبيل بأخذ ؟ وخيل إليه
 أن هناك قانوناً موضوعاً للحركات والسكنات والحيات والروحان .
 وأن من أهمل حرفاً واحداً من حروف ذلك القانون أخذته العيون .
 ودارت به الأنظار ، ورتت حوله ضحكات الغزاة والسخرية .
 وكان لا بد له من أن يخرج من موقفه هذا إلى حالة من الحالات .
 كيفما كان شأنها ، فلمح على البعد شعبة يتضاءل نورها بين
 الشموع المحيطة بها ، فخطر له أن يتلوى بإصلاح ذيلها . فمشى
 إليها يتخيل في ثيابه تجليلاً ، لأنها لم تكن ثيابه ، بل ثياب بعض
 أقربائه أعاره إياها هذه الساعات من الليل وصاحبها أطول منه
 قاماً ، وأصخم جسماً ، فلما ذاعها رأى أن ذيلها قد التوت
 على نفسها فطالت واسودت وغرقت في الدهن المحيط بها .

ليدا له أن يمرض أملاًها ليصفو أسفلها ثم يسح الدهن اللائل
 حولها ، فما هو إلا أن مد يده بالقرص إليها حتى انطقات
 وتظاهر دعنها إلى ثوبه لانتشر في أنحاء فحمد في مكانه جمود
 القرص في يده ، واستحال إلى تمثال مضحك عال بين عمدة
 الشموع ، لا يستطيع أن ينقل قدميه حياءً وعجلاً . فوقع ما
 كان يخافه . وعقدت حوله الأنظار عطفاً ، ومشت السمات
 والفتنات في الأفواه والعيون . ومر به في موقفه هذا أحد
 الظرفاء الثائمين وكان لا يعرفه فأسر في اذنه : أما تعلم يا سيدي
 أن إصلاح الشموع في الخلالات عمل غير لائق ، وسبح فتاة
 تقول لصاحبها وقد وقفنا به : « ما أجمل ذكرك هذا الثوب »
 فأجابته الأخرى : إنه آخر طراز في الكريغان ، ولم يجد بدأ
 من الشجاعة بنفسه . ففر من مكانه هارباً لا يولي عن شيء حتى
 دخل بعض القاعات الخالية وجلس على مقعد فيها يسبح بشغوة
 القرص ما تثار على ثوبه من الشمع ، فلتحق به أبوه بعد قليل .
 وقال له : ما بقاءك هنا وحدهك يا استيفن ، إن أسرة البارون قد
 حضرت . ولا بد لك من بذائنها والبقاء معها حتى تنصرف .
 فامتص استيفن في اسمه وتناقل في مكانه لأنه عرف ما يراد منه ،
 فألح عليه أبوه فأذعن . ومشى إلى مكان هؤلاء القوم فحياهم
 ورجا تلك الفتاة التي يريدون خطبتها له تحية صادقة لا تشبه تحية
 الخطباء ولا المحبين . بل لا تنقص من تحية المتأخرين المتأخرين
 إلا قليلاً . ثم لم يلبث أن وجد السبيل إلى التلاصق بها فانتقل
 من مكانه وخرج إلى قضاء الحديقة ، وجلس على بعض ما أهداه
 بقم على المحافل والرقص . وما قصت بين أطرافها من رذائل
 وشور وبقول :

ويل هؤلاء القوم المرادين الكاذبون . يسلطون ويؤمنون أنهم

يرقصون ، ويقترعون صفوف البنات والأمام ، ويقولون إنهم
بنون أو بطريون ، وواق ما اجتمعوا إلا ليخطف العاشق ممشوقه
من يد زوجها أو أختها أو أيتها ، حين أعينه الوسائل إليها ، أو
لتفتش الزوجة التي ملت زوجها وشتمته عن عشير جديد غير
محمول ، أو ليلقي الأب بابه العانس الشوهاء بين ذواعي فتي
من القتيان الأغرار يرجو أن يعنيه الشغف الحاضر بها عن النظر
إلى عيوبها فيقع في حباتها ، ويصح على الرغم من زوجاً لها .

إن كانوا يريدون الغناء فلم لا بنون إلا راقصين ، أو الرقص
فلم لا يرقص الرجل إلا مع امرأة ؟ ولا ترقص المرأة إلا مع
رجل ؟ ثم لا يرقصون إلا متلاصقين متماسكين ، كأنهم بين
جلدان عذاهم ، أو وراء أستار نوافلهم وأبوابهم .

من لهذا الزوج العبي الذي يلقي بزوجه عارية الصلور والظفر
والذراعين والكفتين بين ذواعي فتي جميل ساحر بلاصقها
ويحاصرها ويقلها بين يدي شهواته ما شاء - أن تعود إليه ساعة
تعود بالمقل الذي ذهبت به ، وبالقلب الذي كانت تحمله بين
أصابعها ؟ ومن لهذا الأب الأبله المأفون الذي تبرم بابه ويستظل
مكانها من ليقذف بها بين مخالب هذه الوحوش القترسة -
ألا تعود إليه بعد قليل حاملة مع همها الأول هجين آخرين ،
عزراً على رأسها ، وجنباً في أحشائها .

إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون ، ويمزقون
أعراضهم بأيديهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنأ .

ولم يزل يهتف في نفسه بأمال هذه التصورات القرية حتى
انصرف الناس فلم يحضر انصرافهم ، كما لم يحضر اجتماعهم ،

وكان أبوه قد أشار إلى جماعة من أهل بيته وخاصة أصدقاءه
أن يتخلقوا ، ففعلوا ، فلما خلا بهم المكان دعا استيفن أمامهم ،
وقال له على مشهد منهم : قد كنت دعوتك إلى مصاهرة هذه
الأسرة منذ عام ودفنتك على مكان الخير لك في هذه الصفقة
الرابحة ، فأبيت واستعصبت وقررت متى راحياً رأسك إلى حيث
لا أعلم لك ملجأ ، فلما عدت في هذه المرة عنتت أنك قد أذعت
وأصحت " وفهمت معنى الحياة كما يفهمها الناس جميعاً
فجئت تطلبها من الطريق التي يطلبونها من فأقت هذه الخفلة
الراقصة وأنقذت في سبيلها ما لا طاقة لي باحتضاره لا أريد بها إلا
أن تكون موضع الصلة بينك وبين تلك القناة التي اخترتها لك
والخطوة الأولى إلى خطبتها فأبيت إلا تبرداً وعتاداً كأنما عنتت
أنني باق لك الدهر ، أمكلك وأفوتك ، أو خيل إليك أن هذا
العلم الذي تدل به وتعتز بمكانك منه منجم من مناجم الذهب
يخرج لك ما بقوتك اليوم وبقوت من وراحتك من بنيتك وأهل بيتك
غداً ، فإن كان هذا ما ذهبت إليه فأعلم أن ثروتي لا تتسع لأكثر
من أيام حياتي ، ولا تتسع في حياتي لأكثر من الإتفاق عليك مطلقاً
وعلماً وفني ، ثم أنت وشأنك بعد ذلك ، وأن هذه القنون الأدبية
التي هي كل ما تملك يدك في هذه الحياة ما صلحت أن تكون في
زمن من الأزمان وسببة من وسائل الرزق ، و سبباً من أسباب
التبشير ، ولن تكون كذلك أبد الدهر ، لأن السعادة حقيقة من
الحقائق لا يتوصل إليها من طريق الخيال ، فإن أردت لنفسك
الخير فتدرك الرأي الذي رأيته لك ، وأنت أعلم به ، أو لا ،
فتدرك الأرض القضاء فامش في مناكها ما شئت ، واطلب لنفسك
الرزق من الوجه الذي تعرفه ، فقد أصبح وجودك في منزلي على

حالتك هذه من البطالة والفراغ عاراً عليّ وعلى أهلك جميعاً -
بل عاراً على نفسك إن كنت من الشاعرين !

ثم التفت إلى القوم وقال لهم : هاأنذا قد أشهدتكم عليه وبرئت
إليه وإليكُم وإلى الله من ذنبي ، فلا معتبة عليّ بعد اليوم .

فقال أحد أقربائه : «إني لم أر في حياتي جنوناً مثل هذا الجنون !»

وقال آخر : «لعله سقط في هوة من هوى الغرام ، فلا مناص
له من الارتباط في قصرها حتى الموت !»

وقالت زوج أبيه : «لله أحب عروس الشعر فتى بها عن
كل عروس سواها !»

وقال عمه وهو يزجر غضباً : «صحيح بالفني أن يكون في سن
كهل هذه السن حاملاً فوق كاهله قوة كهذه القوة ، ثم يرضى لنفسه
أن يكون حالة على قومه وذويه .»

فطار طائر الخلم من رأس استيفين واستطى من وجهه ذلك
الفتى الخفي الخجول الذي كان يلوب منذ ساعة عجباً أمام النظرات
والفتنات ، وحل محله رجل عائل جبار لا يتخفى أحداً ولا يبالي
شيئاً ، فرجع رأسه ونظر إلى الجمع نظرة شزراء ذهلت لها أنظارهم ،
وحفظت لها قلوبهم ، ثم التفت إلى أبيه . وقال له : «إني لا أحب
على واحد من هؤلاء ، لأنهم سمعوك تفتي فصرخوا على نفسك ،
أما أنت فلاني أقول لك : نعم إنك قد أحسنت إليّ فيما مضى
كما تقول ، ولكن لا يجعل بك أن تمنّ عليّ إحسانك هذا ،
ولا يجعل في أن أشكره لك ، أو أنني عليك به . لأنك أب ،
ولأخوة تمنّ لا بد لك من أدائه ، واحتمال الموتة فيه ، على أنك

لم تمنّني في يوم من أيامك الماضية عطفتك ، ولا رحمتك ، ولو
فعلت لكان ذلك خيراً لي من كل ما أسديت إليّ من صنوف
البر والمعروف . بل كان شأنك معي في كل آناه حياتك
شأن رجل عابر في سبيل . وجد في طريقه طفلاً ملقاً في قمامته
مطرحاً تحت جدران بعض المنازل أو على باب إحدى الكنائس
فالتفت له وكفله منه وإحساناً لا رحمة وحناناً ، فقد أخذني عنك
أنا وأخي منذ مائت أمني ، وبيت بزوجتك الحاضرة قبل أن أبلغ
السابعة من عمري ، ووضعتني في جحور قوم لا يجتمع بهم جماعة
بحة ، ولا تعطفهم على أسرة رحم ، ولم أجد فيهم من يذكروني
بك ، أو يحبك إليّ ، أو يندبني عنك حديثاً واحداً ، وكنت
كلما عدت إليك في أيام إجازتي من العام استقبلني بالوجه الذي
تستقبل به أبعد الناس عنك ، وأصرهم شأناً عنك ، فلا تختصني
بكلمة طيبة ، ولا تؤثروني بنظرة رحمة ، ولا تسهر عليّ في مرض ،
ولا تتفقدني في شدة ، ولا تتسم لقائي ، ولا تحزن لقراي ، وكثيراً
ما سهرت الليالي ذوات العدد أندب حظي عنك ، وأصرع إلى
الله تعالى أن يلبني قلبك من قلبي ، ويرزقني حبك وحنانك ،
فلم يستجب دعائي ، فاستوحشت نفسي من نفسي وغلبيت على
طبي هذه الفرة التي لا تزال ملازمة لي حتى اليوم ، ولولاك لما
سنت غوراً ولا متوحشاً ، وقسا قلبي القسوة كلها ، فأصبحت
لا أعطف على أحد ولا أحب أحداً ، لأنني لم أتعلم العطف ولا
الحب من أحد ، وما لم أجد في الناس من أحبه وأصطفيه أحببت
نفسي وحرابي وأصطفيتهما وأكثرتهما على كل شيء في العالم ،
فلا أحتمل أن أرى من يتارعني فيهما أو يبالغني عليهما .

إن حياتي في ، وأنا صاحبتها الذي أتولى شأنها ، فلا سلطان
يُحد غيري عليها ولا شأن لكائن من كان فيها سواي . فلا أسبر

حتى يخرج إلى صاحبة المدينة فتبعه فتي من أبناء أحواله كان قد
 ألم ببعض قصته ، فقال له : أين تريد يا استيفن ؟ قال : إلى حيث
 أرسلني أهلي ، فيكي قريبه مرثاة له مما هو فيه وقال له : وارحنا
 لك أيها البائس المسكين ، ثم دس له في جيبه بضع قطع من الذهب ،
 لم ينتبه لها استيفن إلا بعد ذهابه ، فشكرها له في نفسه ، ثم مضى
 لسيده .

(٣٠)

النفس العالية

لا تخضع النفس العالية للحوادث ولا تدل لها ، مهما كان شأنها ،
 ولا تلين صحتها^(١) أمام التكببات والأرزاء مهما عظم خطيئها ،
 وجل أمرها ، بل يزيدنا من الحوادث وعض التواب قوة ومراساً ،
 وربما لد لها هذا النضال الذي يقوم بينها وبين حوادث الدهر
 وأرزائه ، كأنما يأبى لها كبرياؤها وترفعها أن يوافقها حطها من
 العيش سهلاً سائماً لا مشقة فيه ولا عناء ، فهي تحارب وتجادل في
 سيده وتغالب الأيام عليه مغالبة حتى تناله من يدها قوة واختصاصاً ،
 فتلتها بين النفوس كمثل البيث بين السباع لا تمد عنه إلى فرسة
 غيره ، ولا يتأ له طعام غير الذي تجمعه آياه ومخالبه .

كذلك كانت نفس استيفن بعد نزول تلك التكبات به ، فإنه
 لم يخرج ولم يتألم ، ولم يعيث اليأس بقلبه ، بل فارق (كوبلانس)
 كما دخلها ساكن النفس ، مطمئن القمير ، مملوء القلب لفة

(١) قصصه ، فتاة للسريرة .

في طريق غير الطريق التي ترسمها يدي ، ولا أبني مستقبل حياتي
 على أساس غير الأساس الذي أضعه بنفسي ، ولا أحب إلا الفتاة
 التي أحبها أنا . لا التي يحبها الناس لي ، ولا أحاشر إلا المرأة التي
 أقيس سعادتي معها بمقياس عقلي ، لا بمقياس عقول الآباء والأمم .
 فهاج القوم عليه هياجاً عظيماً ، وصرخ أبوه في وجهه ،
 وثاوره عمه يريد الفتنك به ، وتناوتك الألسن بالشتم والسب ،
 فلم يأنه بخذلك كله ، ولم يترزل من موقفه ، واستمر في حديثه
 يقول :

يأتي حتى يريدون أن تسلبوني حريتي وتملكوها علي ، أبحن
 العطف الذي بذلتموه لي ، فيما مضى ، وما عرفت بينكم محباً
 لي ، ولا راحماً ؟ أم بحن الكرامة والقبها ، وقد كنتم جميعاً تضربوني
 صغيراً . وما أنتم أولاء اليوم تشتموني كثيراً ؟

إني قاتل لكم جميعاً كلمة لا أقول لكم غيرها بعد اليوم ؛
 إني لا أحب إلا من يحبني ، ولا أكرم إلا من بكرمني ، ولا أذعن
 إلا لأبي ولذاتي ، ولا أبيع حياتي وحريتي حتى تلحقهما الذي
 منحني زياعها بشن من الأمان مهما غلا .

إني لا أطلب منكم مالاً ، ولا معونة ، ولا أشكر إليكم قرراً ،
 ولا عدماً ، وأسأركم نفسي بنفسي حطة حياتي ، فإن قدر لي
 النجاح فيها فذاك ، أو لا ، فحسبي من السعادة أنني قضيت أيام
 حياتي حراً طلباً ، لا سبيل لأحد علي ، ولا شأن لكائن من
 الكائنات عندي ، حتى يوافيني أجلي ، وهذا فراق ما يبني وبينكم .

ثم انفلت من بين أيديهم ومرح إلى غرفته فبدل ثيابه وتناول
 حبة ملبسه وخرج هاتماً على وجهه يتفرق أحشاء الظلمات ،

النفس الشعرية

ذهب استيفن ساعة هبط ، جوتنج ، إلى أستاذه القديم في الموسيقى « هومل » ليفضي إليه بشأته ، ويستعين به على قضاء حاجته ، وكان له بمثابة الأب الرحيم ، يحبه ويكرمه ويؤثره على تلاميذه جميعاً ، فلما وقف بين يديه عقل الحياة لسانه ، فلم يستطع أن يقول له شيئاً وكذلك شأن أصحاب النفوس الشعرية بدأ الشعر نفوسهم عزة وخيلاء ، فتسلأ البرقة وجوههم حياة وشجلا ، فلا يفلون ولا يضرعون ، ولا يجرعون على شيء مما يجرؤ عليه الناس جميعاً كأن تخليقهم الدائم في سماء الخيال وطيراتهم في تلك الأجواء العالية غادين والحين ، قد مثل لنفوسهم أنهم يعيشون في ملأ أرفع من الملأ الذي يعيش فيه الناس ، فإن عرضت لهم حاجة من الحاج أبوا أن يسألوها أبداً من سكان الأرض ، وربما أتقوا أن يسألوها ساكني السماء ذهاباً بأنفسهم من مواطن الصفة والمهانة ، وصناً بأديم وجوههم أن يخلقه السؤال ، وكذلك يعيشون قراء ومبتوتون بوشاه .

لذلك لم يستطع استيفن أن يفضي بحاجة إلى أستاذه في المقابلة الأولى فرغم أنه إنما جاء ليتلقى عنه دروساً في الموسيقى ، وظل يختلف إليه أباناً يسبح غناؤه ويحفظه عنه حتى جرى بينهما يوماً من الأيام ذكر الحياة والمستقبل ، فسأله استاذه عما رسم من الخطط في مستقبل حياته ، فقال : لا أدري حتى الساعة ، فقال : لا أعرف لك سبيلاً غير هذا الفن الذي تحبه وتسهم به ، وأرى أن غرامك به سيجعلك غداً من أصحاب الشأن العظيم فيه ، ففضض

وأعلا ، فلم يزل سائراً غنياً لك يطوي الأرض على قدميه طياً حتى مشى في جلدة القلام أشعة النجم . فالتفت فإذ بقية من شبح (ثوبلايس) لا تزال ماثلة . فالتفت عليها نظرة واحدة مكتشفة ثم قال :

الوداع أيتها القوم الذين طردوني من بينهم . ولم يردوني للذة واحدة أتبع بها في طريقي . ولا دابة أحمل عليها حقبي . ولا كلمة مضية آتس بها في مفارح لحظتي . لقد تبتت حكم من قلبي نبت الصم البوة ونفضت يدي منكم لغض المودع بانه من تراب الميت . فأصبح قلبي وسعدي وحبي وحناني ونفسي وحياتي وكل ما مثلت يدي ملكاً خالصاً لذلك الإنسان الذي أحسني وأحسته . ووق لي من دون الناس جميعاً لا يبارحه في مزارع . ولا يزل معه في سويدها قلبي نال . وسيكون حبه مناري الذي أهنتني به في مثلما حياتي . حتى أتبع دروة السعادة التي أهنتها لنفسي . وهناك ترون أيتها القوم اخفاة القساة أن ذلك الفنى الخامل المسكين الذي وقف بينكم بالأمرس مهيباً ذليلاً لا يكاد يرفع طرفه إليكم حياة وشجلا . قد أصبح رجلاً زاهياً عظيماً غنياً عماله وجاهه عن مالكم وجاهكم . وسعيداً بين أهله وأولاده سعادة لا يحفل من بعدها بنسكم ولا برحمتكم .

ثم مشى في طريقه يعقل نفسه بالأمال الحسن . ويرسم لمستقبل حياته ما شاء من الخطط والنظم . وكان كلما أتعه السير دفع إلى أصحاب المحلات المارة في طريقه تحمل الأتقال دهرماً أو درهمين ، ليحملوه على تحميلهم أو يأتقوا له بالحلوس في مؤخرتها ساعة أو ساعتين . ثم يعود إلى شأنه الأول . حتى وصل عند جتج الأصيل إلى « جوتنج » وهي البلدة التي تعلم في مدرستها . ونفس فيها أكثر أبام صباه .

له استيقظ إذ ذاك حملة حاله ، وصارحه برغبته التي يريد بها .
فوعده بمساعدته والأخذ بيده . فانصرف مغضباً مسروراً .

(٣٢)

من ماجنولين إلى استيقظ

لم أستطع أن أكتب إليك منذ شهرين لأني كنت مريضة وسأفصر
عليك قصة مرضي .

خرجت ذات ليلة لألقي برسالة كنت كتبها لك في صندوق
البريد في قرية « هال » فلما بعدت عن « ولغاخ » وغاب عني
شبحها وأصبحت في منتصف الطريق بينها وبين « هال » حيث
على ربح عاصفة شديدة فوت بها جواب الأفض . وقفقت لما
قبة السماء حتى حسنتها توشك أن تنفص . وأخذت تحاذني لوني
بجاذبة شديدة كأنها تأتي إلا أن تنزعه مني أو تنزعي معه ،
فحدثني نفسي بالعودة من حيث أتيت . ثم ذكرتك وذكرت
أنك تنتظر رسالتي . فاستمرت أدراسي ومثيت في طريقي
أبامن مع الريح مرة . وأتيسر أخرى . وأندفع متقدمة . وأكر
راجعة . فمن رأي في تلك الساعة خيل إليه أنه يرى فتاة بالسة
مرزاة ، قد لعبت النار بأثوابها . وعلقت بأطرافها وأوصالها ،
مهي ترم على وجهها في كل مكان تطلب الخلاص مما هي فيه فلا
تجد إليه سبيلا ، فلم أصل إلى تلك القرية إلا بعد ساعتين ، فألقيت
الكتاب في الصندوق ثم رجعت ، وكانت العاصفة قد هدأت قليلاً .
ولكنها ما هدأت إلا لتفتح الطريق إلى الغيث الماطل . فلم تهدد
ثورتها حتى ثار ثائره . وأخذ يساقط سقوطاً شديداً . فابلل رداي .

ومشت الرعدة في جميع أعضائي ، واشتدت ظلمة الليل فما أعتدى
إلى طريقي .

ولقد حدثتني نفسي لشدة ما نالني من التعب والإعياء ، وما
ملأ قلبي من الخوف والوحشة . أن أسلم نفسي إلى كنف من أكناف
المضاب أو سفح من سفوح الجبال ، أنتظر فيه مني حتى توافيني ،
فحال بيني وبين ذلك أنني أريد أن أحياء لك ، وأنول شأن سعادتك
التي عاهدتك على أن أتولاها لك ، وأني إن قلت نفسي قتلتك
سعي ، فبعت ذكرك في نفسي قوة غابيت بها الطبيعة وعواصفها
وتلوجها ، وبروقها ورعودها ، حتى بلغت المنزل بعد لأي ،
فسقطت مريضة محمولة .

ولقد كابدت في مرضي شدة عظمى لم أر مثلها فيما مرّ بي
من أيام حياتي ، دب البأس في نفسي ديب التبة في الأجل ،
وظننت أنني لا بد هالكة ، وأني لا أراك بعد اليوم ، فلم يكن
يجزني في تلك الساعة شيء سوى أنك تستمع بخبر موتي ، ولا
تسمع مع أنك كنت الإنسان الوحيد الذي كنت أفكر فيه في ساعتني
الأخيرة فحاولت أن أكتب إليك كتاب وداع أبلك فيه بعض
شأني فلم أستطع ، ثم شعرت في فترة من فترات السكون التي
تتحلل سكرات الحمى أنني أستطيع النهوض من فراشي ، فكشيت
إليك كتاباً أوصيت لك به بجميع ما تملك بدني ، وما تملك بدني
إلا كشيء وعظفة رسالتك والغمام الذي نسجته من شعرك وذخيرة
من الذهب ورثتها عن أمي وهي أعر الأشياء عتدي ، وكبيراً صغيراً
يشتمل على بعض قطع فضية وذهبية مما كنت أستفضله من نفقاتي .
ثم طويت الكتاب وأعطيتة لخفياف لتوصله إليك بعد موتي .
ولكن الله كان أرحم بي وبلك من أن يجرمي منك ويفجعك بي .

WWW.LIILIAS.COM

تيتوف باره

فقد إلى يد معونه وإحسانه واستغفني من محال الموت . فحمدت له منك ولعمري . ولقد بكيت كثيراً عندما أعدت نظري في تلك الوصية المكتوبة لأنني كنت حزيناً وتصعبت وحية آمالك لسو قدر لك أن تقرأها . فربيت لك ثمة بك وبكيت لكائك .

رحماني عندك يا ستيفن أن نكتب إلى عوان أحيك في الخيش لأي أريد أن أبعث إليه هدية أحط بها وده ذكراً لك . فقد أصحت أحده من أحدث حياً كثيراً . وأتوق بفرح وسرور ذلك اليوم الذي يفضا وإياه بيت واحد . تحت سماء واحدة .

لا يجزيت يا ستيفن ما فقصت عليك . فنت حدثاً عاصية قد نعت وانقصت . ولم يبق منها في نفسي حتى الآن . فبناهب لاسي بجوره وشده . وليأت لنا السنين بما نريد .

(٣٣)

من استيفن إلى ماجدولين

عفا الله عنك يا ماجدولين . أكنت نظير في أستطيع أن أحر من بعدك ساعة واحدة أتمتع فيها بالحياة وصيها . والدنيا وسميها . فأوصيت بما أوصيت به إلى ؟

إنك لا تعلمين أنك روحي التي أحيها بها في هذا العالم . ودنياي التي أستمع فيها رائحة السعادة والمناة . وأن اليوم الذي ينظر في مكانك من الدنيا هو آخر عهدي بالعالم وما فيه .

منى أهدى الميت إلى الميت وأوصى القبر إلى القبر ! ومنى عاش

المحب بعد فقد حيينه ساعة واحدة ، أو هنت له لحظة من لحظات عيشه إن قدر له أن يعيش من بعده ؟

إن لي في الحياة كما تقاس أمالي كثيرة ، وبودتي لو استطعت أن أبيعها جميعها بأمنة واحدة ، وهي أن أموت يوم أموت بين فراعيلك ، ملقياً رأسي على صدرك ، شامخاً بعيني إلى وجهك المشرق الجميل ، وأن يكون صوتك آخر ما أسمع من الأصوات ، وصورتك آخر ما أرى من الصور علماً أن من يموت ميتة كهذه فتحت له أبواب السماء ، واتصلت سعادة دنياه بسعادة أخراه فلا يشعر بشقاء الموت ، ولا ما بعد الموت .

هنيئاً لك إبلالك من مرضك ، وشكراً لله على صنيعته عندك في شفاك ، وصنيعته عندي في حفظ حياتك لي ، وما أحسب أن الله أراد لي أو بك يوماً فيما كان ، ولكنه يبتلينا ليوم لتعرف مقدار ما يستحقنا به من السعادة غداً .

سأكتب لأنني « أوجين » بشأن الهدية التي أزمعت أن ترسلها إليه ، وللي شكراً لك شكراً جزيلاً ، عطفتك عليه وحكك إياه .

أما عنوانه ، فهو : « الفصل الثالث ، من قسم الحياة الحقيقية في جيش الحدود » .

(٣٤)

الحظ

مر الشتاء واستيفن يتخلف إلى أستاذه « هومل » وأستاذه يسى

له سمي المجد الملح فلا ينجح ، حتى أوشك أن يتعد ما كان معه من المال ، ولم يبق في يده منه إلا بقية غير صالحة لا يعلم ما هو صانع بعدها . فلم يجد له بداً من أن يأخذ نفسه بالتفتير ، ويعمل عليها العيش حملاً شديداً ، فأكل التافه من الطعام وليس الحلقان من الثياب ، وغنى بالأكلة عن الأكلتين ، وبالحيز عن الأدم . يقول في نفسه كلما برحت به الفاقة ، واشتدت به ضائقة العيش : لقد قال لي عمي : إن من كان فني قوياً مثلك لا يعمل به أن يعيش حالة على أهله ودويه . وهأنذا على فتولتي وفتولتي أكاد أموت جوعاً . فما أفسى قلوب قومي . وما أبعد الرحمة عن أئمتهم ! لقد كان في استطاعتهم أن يفتولني عندهم شيئاً عاماً أو عامين ، حتى يفتح الله لي باباً من أبواب الرزق فأرحل عنهم ، أو أن يفتولني في قبيل أن يفتولوني من بينهم ملجأً احتصم به في المكان الذي طردوني إليه حتى لا أموت ميتة الغرباء المشردين .

وكان أكبر ما يحزنه من أمر فاقته أنه وعد ماجدولين بالسعي إلى الأروة والنجاح فيها . وملاً قلبها ثقة وأملًا في المستقبل . وأن فشله إن قدر له الفشل سبقتها . وبتقي بها في مهواة اليأس والشقاء ، فرثى لها وأشفق عليها إشفاقاً عظيماً . وود لو سلحت حياته لأن تكون ثمتاً لسعادتها فذلها في حيلها ، ثم رحل عن الدنيا طيب النفس عنها وعن جميع آماله وأماله فيها .

ولقد مرّ به يوماً - في بعض مراقبه بجانب بعض الجدران - فتى زري الغيبة سيء الحال ومد إليه يده يسأله بعض المعرفة قروي وجهه عنه حياءً وحجلاً . فقال له الفتى : أقسم لك بالله يا سيدي أنني تركت زوجتي ورائي ما تطبق الوقوف من الطوى . ولقد مرّ بي وبها يوماً ما ليحد ما يتبلغ به إلا البكاء والدموع ، فانتفض

استيقن انتفاضة شديدة وانفتحت إليه وقال له : أنتحب زوجتك كثيراً أيها الفتى ؟ قال : نعم يا سيدي كما أحب حياتي . فأطرق برأسه هنيهة وظل يقول في نفسه : إنه يستعدي " عطف الناس ورحمتهم على جوع زوجته وطواها ، والناس لا يعطفون ولو عقل لعلم أنه يسألهم حقاً من حقوقه المقدسة لا يبرأه من دونه معرض إلا استحل دمه ومشي على جسده إليه ، فلا جريمة في الدنيا أكبر من أن يرى الإنسان المرأة التي يجيها ثموت بين يديه جوعاً فلا يفعل شيئاً أكثر من أن يغمض عينيه ويسحبها بثوبها ، ثم يجلس بجانب سريرها يبكيها ويندبها ، ومد يده إلى جيبه فأخرج كل ما كان معه من المال فأعطاه لفتى صامتاً ، ومشي في طريقه وهو يقول : لقد أنقذتها من محال البعوض بضعة أيام ، وأسأل الله أن يقبض لها من يتولى شأنها بعد ذلك .

وكذلك عاد استيقن إلى مأواه ، وهو لا يملك من متاع الدنيا حتى قوت يومه .

(٣٥)

من ماجدولين إلى استيقن

مرت بي اليوم صديقتي سوزان وهي عائدة من مصيفها إلى كويلايس فالتفتت بزيارتها اغتباطاً عظيماً وتحتيت أن لو كنت حاضراً بيننا لترأها فترى أجمل الفتيات وجهاً ، وأرقهن شمائل ، وأعذبهن حديثاً ، وأجمعهن لأفضل الصفات وأكرمها فهن تنطق

(١) استصعب فلان فلاناً على فلان ، طلب إليه أن يمد يده عليه ، أن يصفه منه .

ساعات كثيرة - وتحسن الرسم والتصوير - وتوقع على جميع أنواع
الآلات - وتعي غناء ساحراً قاناً - ولها نغم وضاء لا يفارق
لأشياء لحظة واحدة - ولا يظفرها في الحياة شيء - مثل مناظر التهور
والغف ولا يبعثها حديث مثل حديث الحامل والمراقص - وقد
أصبحت معتقدها لا أكاد أصبر عنها لحظة واحدة - ورجائي
إليك يا استيفين أن تحبها كما أحبها - وأن تتودد إليها كثيراً يوم
تسرها.

(٣٦)

من استيفين إلى ماجدولين

سأحب صدقتك يا ماجدولين كما أحبت - ولكن ليس لأنها
حبيبة فاتة كما تقولين - فقد ملأ حمالك قضاء قلبي فلم تبقى
فيه بقية لسواك - ولا لأنها ترقص أو تغمي فإن نفسي الحزينة لا
يشفيها من دأبها إلا أحد الأمرين : إما لقائك - أو الموت - بل
لأنها تؤسس وحشتك - وتضعف آمالك - وتبعثك على احتمال أهواء
الحياة وأنفاسها - فاشكرها عني شكراً جزيلاً - وبلغها تحبي وسلامي -

لا يزال الدهر عاصياً في وجهي - ولكنني صابر متمثل - لا
أبأس ولا أستسلم ولا تقدر لي همة حتى أزال غيبي - والسلام.

(٣٧)

من أوجين إلى استيفين

وصلت إلى هدية السيدة ماجدولين - ففكرت صيبتها شكراً

٧٠

جزيلاً - ولقد أصبحت بفضل هديتها صاحب رداء جديد كنت
في أشد الحاجة إليه وكانت يدي تقصر عنه - فابته وأصبحت
فخوراً مختلاً به بين أترابي وعشرائي - فبلغ صاحبة الهدية شكري -
وأرجو أن أراها في عهد قريب فأجزئها خيراً بما فعلت - فإن
عجزت عن ذلك فلا أعجز عن أن أهدتها عن الوقائع الغريبة التي
شاهدتها أحداث جميلة عذبة تملأ قلبها غبطة وسروراً.

شاهدت بالأمس أول وقعة من وقائع الحرب فجزعت عند
الصدمة الأولى - ولكنني ما لبثت أن سمعت صهيل الخيل وقرع
الطبول وأزيز الرصاص وأنغام الموسيقى الحربية حتى انتشيت وانطفعت
بجوداي اندفاع السيل المتهمم لا أشعر بشيء مما حولي ولا أرى
إلا بريث سيني في يدي - ولقد استلأت نفسي غبطة وسروراً
عندما رأيت جيش العدو يتقدم أمام جيشنا - حتى خيل لي أنني
أنا الذي زحزحته وحدي عن مكانه وأبلغته إلى الفرار - وقد عرف
قائدي فضل ما أبلت في هذه المعركة فرقاني إلى درجة صف
ضابط - ولي أمل أن أعود إليكم في عهد قريب باسم الضابط
أوجين -

(٣٨)

من استيفين إلى ماجدولين

قد انضم لي الدهر قليلاً يا ماجدولين ؟ لقد زارني أستاذي
بالأمس في الخان الذي أنزله بعد ما انقطعت عن زيارته بضعة
أسابيع لأمر ما - ويشترني أنه وجد لي عملاً في بعض المدارس
الصغيرة بوظيفة شهرية قليلة... وقال لي إن مدير المدرسة وعده

٧١

أن يصاحفها لي ضعفين بعد ثمانية شهور . فحمدت الله على ذلك
لا صعب في الحياة يا ماجدولين غير الخطوة الأولى . فإذا
خطاها المرء هان عليه ما بعدها . فلهاأ عند اليوم بالقاء . ولتعتبط
بالعادة التي طالما تحبها حتى يلقاها .

(٣٩)

من إدوار إلى استيفن

لا يزال التراج فائقاً بيني وبين عمي . يأتي إلا أن أعيش عيش
المقلين وأبى إلا أن أفتح بمالي الذي ورثته عن أبي كما أحب
وأشتهي . ولا أدري ما الذي يعنيه من الغرض على ما يعلم
أنه ليس له . وأن مصيره . وهما طالت الأيام لصاحبه ؟ ولكنها
حالة البخل والأشياء . لا يقع في أيديهم شيء . من سظم أو من
ما لم يغيرهم حتى تتلوى أصابعهم عليه التواء الحية على العصا .
ثم لا يهلك منها بعد ذلك . فمثلهم كمثل الحبال التي تنطق حباتها
على كل ما يدنو منها . وإن لم تحن لنفسها من وراء ذلك شيئاً .

على أنها أيام فلتائل مستقصي . وسأبلغ من الرشد بعد بضعة
شهور . فلا يبقى له ولا لغيره علي من سبيل .

ألمت ببعض شأنك الحاضر وعلمت أن أهلك قد نفسوا منك
مخالفتك أباهم . فوكلوك إلى نفسك . ونفسوا أيديهم منك .
فتركتهم كوكوبلاس . وسافرت إلى جونتج . فقلت لثقت
فيها الرزق من طريق العمل . فلم يوافق حتى اليوم ما تريد .

ظلت التي كان يا صديقي لم يكن ، وليت أخذت بذلك الرأي
الذي رأيت لك من قبل ، وسلكت إلى الحياة طريقاً غير هذا الطريق
الحبالي الذي تسلكه اليوم فزوجت من الفتاة التي اختاروها لك ،
وظفرت بنعمة العيش في ظلها ، فلا سعادة في الدنيا يا صديقي
غير سعادة المال ، وكل ما في أدمغة البشر من علم وعقل وما في
أجسامهم من قوة وأبد ، وما في نفوسهم من فضائل ومزايا ،
إنما هي سبل المال وذرائع إليه .

أهدبك تحبتي وسلامي ، وربما ذرنتك في جونتج ، في عهد
قريب ، فقد ضفت ذراعاً بذلك الرجل ، وأصبحت لا أطيق
البقاء معه لحظة واحدة في بلد واحد .

(٤٠)

من استيفن إلى إدوار

لا تحب علي يا صديقي ، إن قلت لك إن لي في الحياة رأياً
غير رأيك وغير ما يراه الناس جميعاً .

إنني لا أعرف سعادة في الحياة غير سعادة النفس ، ولا أفهم
من المال إلا أنه وسيلة من وسائل تلك السعادة ، فإن تمت بدوته
فلا حاجة إليه ، وإن جاءت بقليله فلا حاجة إلى كثيره .

ماذا يفتني من المال وماذا يفتني عني يوم ألقب طرفي حولي
فلا أرى بجانب ذلك الإنسان الذي أحبه وأؤثره ، وأرى في مكانه
إنساناً آخر لا شأن لي معه ، ولا صلة قلبي بقلبه ، فكأنني وأنا
نحال به نحال بقضي متقطع عن العالم وما فيه .

إن الرجل الذي يتزوج المرأة طالما إنما هو لص عائن . لأنه
إنما يأخذ من مالها باسم الحب ، وهو لا يجها ، وعاجز أحمق .
لأنه فقد عن السعي لنفسه ، فوكل أمره إلى امرأة ضعيفة نفوته
ونفوته وساقط المروءة منزل . لأنه يأجر جسمه للنساء . كما
تأجر النبي نفسه للرجال . ليعفد من وراء ذلك قوته .

نعم إنني باش فقير ، كما تقول . ولكنني أسعى للنسي سعي
المجد النبوء وقد بدأت أتبع في مساعي منذ الأمس . فقد حصلت
على وظيفة صغيرة ستكون كبيرة فيما بعد . واستأجرت لي غرفة
بسيطة فأصبحت فامسكن خاص وبستهي بومسي وشفتاني . وأنال
السعادة التي أرجوها . وسيكون أعظم ما أعظم به في مستقبل
حياتي أني أنا الذي صفت إكبلل سعادتني بيدي .

أحييت يا إيدوار ، وأرجو ألا تغيب عليّ فيما قلت لك .
ولعلك تحي بوعذك لي ، فأراك في جونتج في عهد قريب .

(٤١)

غرفة استيفين

سكن استيفين بعد حصوله على وظيفته الجديدة في غرفة صغيرة
طولها عشرة أقدام وعرضها سبع . ووضع فيها سريراً من حشب
ومضدّة عازية يكتب عليها ليلاً ويأكل عليها هاراً . وكترسين
مخلفي الحجم والشكل . يجلس على أكبرهما وأصلحهما شأناً .
ويضع حقيبة ملامسه على الآخر . ومصناً قفطج ، وجرّة لثاء
بعض آية أخرى . وكان يعرفه كثرة لشرف عن صنوح منازل

قديمة مهجورة لا يسكنها أحد ، فلما أشرف منها ورأى ذلك
المظهر الموحش اشأزت نفسه قليلاً ، ثم قال : لا بأس ، فذلك
خبر لي من أن يطلع على خلتي أحد ، ثم لمح على البعد دوحة عظيمة
مورقة في بعض المنازل القاصية فقال : تلك هي الروضة التي
أفتح عليها نظري كل صباح ، وهل يشع صاحبها الذي يملكها
ويتعهدا منها بأكثر من ذلك ؟ ثم رأى على مقربة منه كيسة
صغيرة فقال في نفسه : أرجو أن تساعدني دقائق ساعتها على معرفة
الروايت ، ثم ما لبث أن سمع رنينها فأخذ بعدها فرحاً مبتهجاً
وهو يقول : لن أشتري ساعة بعد اليوم .

وكذلك اغتبط استيفين بمسكنه الجديد على صفه وحفارة
شأنه اغتباطاً عظيماً لأنه أول مسكن نزل فيه عند نفسه ، وإتباع
أثاثه وأدواته من ماله وظل يقول في نفسه : في المسكن الخاص
يستطيع المرء أن يكون حرّاً في قيامه وقعوده وجلوسه والسطجاعة ،
ونومه على الميئة التي يريد بها لا يتكلف ولا يتصل ، يجامل الناس
ولا يرأيهم ، ولا يضع نفسه في القالب الذي يصنعونه له ، فيرفع
يده في الفراء بنته دون أن يخاف وقوعها على وجه أحد ، ويستعين
بتقليب يده وتحريك رأسه على النظر والتفكير دون أن يسميه
أحد ، يجنوناً أو محتلاً . ويمد قدميه في الناحية التي يريد بها لا
يتخشي محاساً يجلسه على الأدب أو يلاحيه في قواعد وأصوله ،
أي أنه يكون على الصورة التي خلقه الله عليها ، لا يزيد على ذلك
ولا ينقص شيئاً .

وكان لا يد له من أن يعيش عيش الإفلال والتضبير فلا يلاقي
في ذلك عناء عظيماً لأنه كان قنوعاً مجزئاً . فقسم دخله بين نفقات
طعامه وشرايه وملابسه وأجرة مسكنه ووقاه ما عليه من دين الأثام

الذي ابتاعه ، وعاش عبثة ساكنة لا يكدوها عليه مكدوا ، لأنها
كانت مملوءة أملاً ورجاء .

(٤٢)

الطارق الجديد

جلس استيفن في غرفته لعداء يوم من أيام الآحاد ، وهي الأيام
التي يشعر فيها بالراحة من عناء الدرس ونصه ، فسمع خفق نعل
ثقيلة على السلم يختلف صوتها عن صوت نعل جارتها المعجوز التي
كانت تختلج إليه من حين إلى حين لتعلاً له جرة الماء من البئر ،
فدهش وتسمع فإذا القادم يصبح باسمه صياحاً عالياً فخيّل إليه
أنه يعرف صاحب هذا الصوت ، فابتدر الباب ففتحه فإذا صدقه
« إدوار » فاجتمع برآء وعانقه عناقاً طويلاً وقال له : لقد وقيت
بوجدك أيها الصديق فلك الشكر على ذلك ولقد كنت أترقب حضورك
ترقب المورور أشعة الشمس ، والظلمة ديمة القطر ، فقال له :
سأزول عندك في غرفتك هذه الصغيرة ضيفاً شهرين أو ثلاثة ،
وهي المدة الباقية لي على بلوغ سن الرشد ، ولقد اشتد النزاع
بيني وبين عمي حتى أصبحت لا أعيقه ولا يطيقني ، ففارقت
منزله وأقسمت ألا أرى وجهه حتى تنتهي قضية الوصاية التي
بيني وبينه ، ثم دخل ، وهو يقول : ما أجمل هذه الغرفة وأبدع
شكلها ! إنها أوسع مما كنت أظن ، وأجمل مما كنت أقدر ، وعهد
إلى حبيبته ففتحها وأخرج منها زجاجة عطر ومشطاً وبضعة متاديل
من الحرير وقدمها هدية إلى استيفن ، فقبلها منه شاكراً ، ثم قام
استيفن إلى شريحة لحم كان بعدها لطعام الغد فاشتواها ووضعها

على المائدة ووضع بجانبها زجاجة من الخمر وقطعة من البلين ،
ثم أخذها بكلان وبشحدثان وبذاكران أيام طقولاتها الماضية ،
وكذلك قسبا بقية يومها مسرورين مقتبطين حتى أنت ساعة النوم ،
ففرش استيفن لنفسه حشية في بعض جوانب الغرفة وترك السرير
لصيفه وناما .

ولما أصبحنا أعطى استيفن « إدوار » قبل ذهابه إلى المدرسة
جميع ما كان معه من المال وقال له : إن وظيقتي في الشهر ماثنا
فرنك أنفق منها على الطعام والشراب ستين ، وأحفظ الباقي لأجرة
الغرفة وصداد دين الأثاث الذي ابتعته ، وقد أنفقت منها خمسين
فرنكاً في الأيام العشرة الماضية ، وما هو ذا الباقي فتول أنت إعتاقه ،
فأنت رب البيت منذ اليوم وصاحب الشأن فيه ، ثم تركه ومضى ،
فلم يلبث « إدوار » أن نزل إلى السوق فاشتري لحماً وخبزاً وتوابل
وقاكهة وخمراً ، وأنفق في سبيل ذلك اثني عشرة فرنكاً وجلس
يطبخ ويشتوي حتى انتصف النهار وحضر استيفن فقال له : ما
هنا يا إدوار ؟ أوليمة هي ؟ قال : نعم وليمة الاحتفال بقدمي ،
فابتسم استيفن وقال له : لقد أحسنت فيما قلت ، وذكرني بما
كنت عنه لاهياً ، وجلس يواكبه حتى فرطاً من الطعام ، فقال
له إدوار : أرى أن الغرفة تنقصها بضعة أشياء لا بد لنا منها ،
فأذن لي بشرائها ، وأعدك ألا أبتاع إلا ما لا بد لنا منه ، ولا
أنفق في سبيل ذلك إلا ثمناً قليلاً ، فقال له : لك ما تريد ، فخرج
ثم عاد بعد ساعة يقنأد كلباً أسود ضخماً ووراءه حمال يحمل له
مرآة كبيرة ومشجباً للثياب وهو يقول : ما أتبع الغرفة التي لا
مرآة فيها ، وما أشد وحشة البيت الذي لا يتبع فيه كلب ، على
أنني لم أنفق في جميع ما ابتعته أكثر من عشرين فرنكاً ، وأعطتك
تري يا استيفن كما أرى أنها صفقة رابحة نادرة فلما يتفق مثلها

لأحد ، فضحك استيفن وقال له : ما أعلب جنونك يا إدوار ؟
قال : وهل تطيب الحياة بغير جنون ؟

وكذلك لم يأت اليوم المشرون من الشهر حتى صغرت أيدبها
من الضود ، ولم يجد عليهما الكلب ولا المشجب ولا المواء شيئاً .
فقال استيفن : ما العمل يا إدوار ؟ قال : الأمر أهون مما تظن ،
وسأرى لك الرأي الذي يفتعنا ، ثم تركه وخرج وعاد بعد قليل
يصحبه أحد الحمالين ورجل آخر من تجار الأثاث ، فوقف على
سنة الغرفة وقال للرجل : خذ هذا السرير فإنه يضابق الغرفة
كثيراً ، ولا ظهر أبت تحت جسد النائم من ظهر الأرض وخذ
هاتين الوسائتين الثلاثين ، فالوسادة الواحدة إذا ثبتت تكفي
صاحبها ، ثم نظر إلى استيفن وقال له : أليس كذلك يا صديقي ؟
فأنتبه استيفن وكان مكياً على منضدته يكتب كتاباً إلى ماجدولين
فهم كل شيء ، وقال : بل يا إدوار ، قال : أنتظن أن زجاجاً
رقيقاً كزجاج هذه النافذة يبقى طويلاً على هذه الرياح العاصفة في
هذا الشتاء الشديد ؟ قال : لا ، قال : أليس من الخزم أن تضع
بشنة بدلاً من أن تتركه لعبة في أيدي الرياح تمث به ما تشاء ؟
قال : ذلك هو الرأي ، فمشى إلى النافذة فأنزع ألواحها واحداً
بعد آخر وأعطاهما الحمال ، ثم قال له : وهل ترى أننا في حاجة
إلى مثل هذا النطاء الثقيل في مثل هذه الغرفة الضيقة ؟ قال : لا ،
فأمر الحمال بحمله ، ثم قال له : وهل تضع في هذه الخزانة شيئاً
تخاف عليه أن يسرق ؟

وقع على المنضدة ، فذعر استيفن وقال له : أنتظر يا إدوار لا
تمسها حتى أتم رسالتي ، فضحك وقال : إني أتركها لك إكراماً
لماجدولين ، وأخذ يساوم الرجل في ذلك الأثاث حتى باعه منه
بثلاثين فرنكاً ، ثم عاد إلى استيفن مال له : ماذا ترى فيما تم ؟
قال : أرى أن تعطيني هذا المال الذي معك لأنني إنفاقه بدلاً
منك ، فإنك لا تستطيع أن تكون حازماً ، قال : أظن أننا قد بدأنا
تختلف يا صديقي ، لأنك تحب الضخير وهو لا يعجبني . وأنا أحب
السعة وهي لا ترضيك ، فخير لي ولك أن نقسم رايك بيننا
قسمين ، وأن يمش كل منا وحده بالقسم الذي يعصيه ، وصمت
هنيهة ثم قال : هل أن أفراقنا في المعيشة لا يتم إلا إذا افترقا في
السكن ، فليختص كل منا بجهة من الغرفة مستقلة عن جهة صاحبه .
وهأنذا أقسمها بيننا قسمة عادلة ، ثم عمد إلى قطعة من الجص وخط
بها وسط الغرفة خطاً مستطيلاً ، وقال : هذا قسمي أنا وكلبي
ومرآتي ومشجتي وهذا قسمك وحدك وهو خير من قسمي وأكثر
منه مرافق ومناجع ، لأن فيه المنصب الذي تطبخ عليه طعامك ،
والمنضدة التي تكتب عليها رسالتك والنافذة التي تمد في فضاءها
فراحتك كلما أردت أن تلبس قميصك أو معطفاك ، فأغرب استيفن
في الضحك وخرج لشأنه وترك له الغرفة يفعل فيها ما يشاء .

وكذلك استمر إدوار ينقص على استيفن عيشه ، واستيفن لا
بغضب ولا بشكو ، بل لا يشعر بألم ولا ضيق لأنه كان صديقه وكفى .

(٤٣)

التضحية

خرج إدوار ذات يوم يرتاح في بعض أطراف القرية ، وبقي

فضحك استيفن وقال له : لو كان عندي ما أخاف عليه لم
نصر إلى ما صرنا إليه ، قال : إذن ما بقاء هذا القفل فيها ؟ ثم
مدّ يده إليه فأنزعه من مكانه ، وقل قلب نظره في الغرفة حتى

الرسالة بعد ما كتب عنوانها على ظهرها ، ثم شرع في المباراة فكانت يده فيها أعجز من يد خصمه ، فخرج بعد ضربات في ذراعها جرحاً بليماً ، فأوقف الشهود المباراة ونصافح الخصمان والملاح لا يزال واقفاً مكانه ، فقال له استيفن وهو ساقط على الأرض بصوت ضعيف : مزق الرسالة التي معك فلا حاجة إليها الآن ، فعزفها الرجل ودنا منه فأخرج من جيبه متديلاً فغصب ذراعها ، ثم أنهضه من مكانه وأخذ يده وظل سائراً معه حتى صعد إلى غرفته ، فأضجعه على فراشه وجلس بجانبه يضمه جراحه ويواسمه .

(٤٤)

الصدقة

جلس إدوار إلى صديقه في البيلة التي عزم على السفر في غدها وكان جرحه قد أشرف على البرء . وقال له : سجلت لضحك بدمك يا استيفن في صفحة قلبي نعمة لا أنساها لك مدى الدهر ، كما لا أنسى لك أنك وأنت في أشد حالات بؤسك وضيقك قد آويتني وواسيتني أياماً طويلاً ، واحتملت لي ما لا يحتمله أخ لأخيه ولا حديم لحميمه ، فلو أنني جمعت لك في يوم واحد جميع ما كافأ به الناس بعضهم بعضاً على الخير والمعروف مذ خلقت الدنيا حتى اليوم لما جازيتك بعض الجزاء على الخير الذي صنعت ، فقال له استيفن : إني لم أسد إليك بدأ استحق مكافأة ، ولكنك صديقي وللصدقة آثار طيبة تنبعث وتنبعث ورامها جريان الماء في منحدره ، فإن كنت لا بد شاكرًا فأشكر الصدقة التي ظللتنا بجانبها مذ كنا طفلين صغيرين . واليوم الذي لف شملك بشمك ، وخلط

استيفن وحده يدون في دفتره بعض نغمات موسيقية لدوروس الغد ، وإنه كذلك إذ سمع على السلم خفق نعال كثيرة وأصواتاً مختلفة وصباحاً عالياً فدهش وقام إلى الباب ففتحه فإذا رجل طويل القامة عريض الكتفين بلبس لباس عمال المناجم تشتعل عيناه ناراً ويتدفق الزيد من شفتيه وقد أمسك يده سيفين عريضين ، فلما وقع نظره على استيفن قال له : أأنت المسمى إدوار ؟ فلم يستيفن أن الرجل يريد بصديقه شراً وأنه لا يعرف شخصه فأشفق منه وأراد أن يعرف ما ترته عنده فقال له : نعم أنا هو فعماذا تريد مني ؟ فابتدوه الرجل بلطمة على وجهه أظلمت لها عيناه وقال له : لعل شجاعتك التي دفعتك إلى مغالبة زوجتي وانهاك حرمة بيتي والعبث بشرفي لا تفارقك في هذه الساعة حين أدعوك إلى مبارزتي على ضفاف النهر ، وما هم أولاد شهود المباراة فليختر كل منا من يشاء منهم ، فأخذ استيفن منة السيف صامتاً وقد فهم كل شيء . وكان ملماً بعض الإلمام بقصة إدوار مع زوج هذا الرجل . وأشفق عليه أن يصيبه من تلك المباراة شر ، ولأنه كان يعلم أنه لم يجرّد في حياته سيفاً قط ، فمشى مع خصمه صامتاً لا يقول له شيئاً حتى بلغا ضفة النهر وجردا سيفيهما للقتال ، وهنا ذكر استيفن ماجدولين وود لو استطاع أن يكتب إليها كلمة وداع فنظر إلى الشهود وقال : هل أجد مع أحد منكم بطاقة صغيرة ؟ فأعطاه أحدهم ما أراد فكتب هذه الكلمة الموجزة « إني أموت في مباراة شريفة وأنت آخر من أفكر فيه فالوداع يا ماجدولين » وكان أحد الملاحين واقفاً على مقدمة سفينة بجانب الضفة فرأى استيفن وهو يكتب كلمته ثم رآه وهو يقلب نظره حوله يفشش عن رسول يبعث بها معه ، فأثر نظره في نفسه وتقدم نحوه وقال له : اللذن لي يا سيدي أن أحمل رسالتك إلى من تريد ، فشكر له استيفن صنيعة وأعطاه

تسمي بنفسك ، وحول قلبنا القريبين الكثيرين إلى قلب واحد ،
وإن قدر لك يوماً من الأيام أن تمد يدك لمعوتي فليكن ذلك منك
إذعاناً لرحمة قلبك وحنانه لا مكافأة على خير ، ولا مجازاة على
معروف .

إني شفي مد ولدت يا إدوار ، فأنا أحب الأشفياء وأعطف
عليهم . لأنني واحد منهم ، ولا صداقة في الدنيا أمين ولا أوثق
من صداقة الفقر والثقافة ، ولا رابطة تجمع القليلين المختلفين مثل
رابطة البؤس والشقاء ، فلو أنني خيرت بين صحة رجلين :
أحدهما فقير يقسم فاقته إلى فاقتي فيصاعقها ، وثانيهما شفي بمد
يده لمعوتي فيرفقه عني ما أنا فيه من شدة وبلاء لا كثرت أولهما على
ثانيهما ، لأن الفقير يتخذني صديقاً والثني يتخذني عبداً ، وأنا إلى
الحرية أخرج مني إلى المال .

يقطن السعيد دائماً أن السعادة التي يرحم في ظلها إنما هي منحة
سماوية قد آثره الله بها من دون عبادته جميعاً لتفضيله كرامة في نفسه
لا يشاركه فيها غيره ، ولا يعرفها الله لشخص في العالم سواه ،
وليس في استطاعته أن يتصور بحال من الأحوال أن السعادة عارية
من عوارض الدهر ، يأتي بها اليوم ، ويذهب بها غداً ، ولعبة من
الألعاب ، يخلف بها بين الناس أخذاً ورداً ، ويداولها بينهم عطاء
ومشياً ، فزراء والثقأ بها مستنبأ إليها ، يتعلق بذلك لسانه ، وتنهف
به حركاته وسكناته ، وملامح وجهه ، وابتنامات ثغره ، ومن
كان هذا شأنه نظر إلى غيره من البائسين المحنودين^(١) الذين
لا يتمتعون في حياتهم بمثل منته ، ولا يهأون فيها بمثل نعمته ،
نظر الشمس إلى ذرات التراب البعثرة على سطح الأرض ، فهو

(١) المحنود : المحروم .

يخبر عليهم بالفتنة والنظرة ويحاسبهم على القعدة والقومة ويقاضاهم
بإجلاله وإعظامه كأنما يقاضاهم حقاً من حقوقه المقدمة التي لا
رب فيها ، فإن أذن لأحدهم يوماً من الأيام أن يجلس في حضرته
لا يجعه منه إلا خضوعه له ، واستخداؤه بين يديه ، وتضاؤله
أمام نظراته المترفة تضاؤل الجماعة الساقطة تحت أجنحة السر
للحلق ، ثم لا يجازيه على ذلك بأكثر من دعائه إلى مائدته ، أو
الإتمام عليه بفضلة ماله أو خلقان ثيابه ، لا يبعث إلى ذلك باعث
رحمة أو حنان ، بل ليريه فرق ما بينه وبينه في مظاهر الحياة
وزخارفها ، وحفظ الأيام وحلودها ، ولينيف إلى عتقه
الثلث بأغلال الفقر خلا جديداً من الدالة والاستعباد ، فإذا أراد
المسكين أن يقضي إليه بهم من هموم قلبه تزويجاً عن نفسه ،
وتزويجاً لألامه أعرض عنه وبرم به ، وخيل إليه أنه ما ذهب معه
هذا المذهب في حديثه إلا وقد أضمر في نفسه أن يقاسمه ماله ،
أو يساكنه في قصره ، أو يشاطره نعمته وسعادته ، فلا يعزبه عن
بأسائه بأكثر من أن يلومه على تبذره وإسرافه ، أو على بخله
وغفلته ، ثم يتهم حديثه معه بقوله : إن جميع ما يصيب المرء في
حياته من بؤس وشقاء ليس الذنب فيه على الفقر ، بل على قصور
الإنسان وجهله ، وعدم اصطلاحه بشؤون الحياة وتجاربها ، وإن
الله تعالى أعدل من أن يمنح نعمة جاهلها أو يسلبها مستحقها ،
أي أنه يجمع عليه بين بيتين : بلية العم . وبلية اليأس من القراجة
والقشاعة .

لا يستطيع الفني أن يكون صديقاً لفقير لأنه يختره ويزدرجه
فلا يرى فيه فضيلة يصادقه عليها ، أو يصطنعه من أجلها ، ولأنه
يشعر من نفسه باقتداره على احتمال آلام الحياة وحده دون أن
يعينه عليها معين من الفقراء أو الأشفياء ، أما صديق الفقير فهو

الفقير الذي يضي لشكاته إذا بثها إليه ، ويفهم معناها إذا سمعها منه ، ويعزيه عنها إذا فهمها عنه ، ويجعل له من صدره متكأً ليتأبقي رأسه عليه ، وهو تعب مكنود فيجد فيه برد الراحة والسكون .

لذلك أحببتك يا إدوار ، واتخذتك صديقاً ، وكان الشقاء هو الوثيقة التي تعاقدا فيها أن يكون كل منا عوناً لصاحبه على دهره ، وجنة له من دون نكبات الأيام وأرزائها ، مهما تقلبت بهما الأحوال ، أو فرقت بينهما الأيام .

فأخذ إدوار يبد استيفين وأقسم له بكل محرقة من الإيمان ألا يبدأ له في حياته روع ولا يطلع له صدر ، حتى يراه ظافراً من دهره بالمعانة التي يبرجوها ، ثم عرض عليه أن يضع بين يديه جزءاً من ثروته التي صارت إليه فأبى ، وقال أما هذه فلا ، لأنني لا أريد أن أشتري سعادتي في دنياي إلا بأشرف أثمانها .

وفي الصباح مشى استيفين مع إدوار ليودعه حتى بلغا مكان الانفراق فعانقا طويلاً وبكى استيفين على صديقه ، ثم انفردا .

(٤٥)

من استيفين إلى ماجلولين

خرجت ليلة أمس أرناص على شاطئ النهر - فلما استقبلت الغمام شعرت أن أوراق الأشجار تضطرب اضطراباً سريعاً في خفوت وهمس - وأن الهواء يمشي متثاقلاً مترجحاً يتحامل بعضه على بعض ، ورأيت قطع السحاب الضخمة السوداء تنقل في صحراء السماء تنقل قطعان الغنم في غاياتها ، وعيل إليّ أني أسمع في أعماقها

قصعة مبهمة تدنو حيناً وتبأى أحياناً ، وكأنما قد راع هذا الصوت الأجنس طيور الماء ، وحشرات الأرض ، فرأيت الطيور مرفرفة على سطح النهر تشيق إلى أوكارها ، والحشرات متعادبة بين الصخور تسرب إلى أحجارها ورأيت السواد قد صنع كل شيء حتى لون الماء ، قبة السماء ورقعة الأرض والأفق الذي يصل بينهما منجم أجوف عميق من مناجم الفحم يحاول البرق أن يمد له في جدرانها العاتية الصماء منفذاً ينحدر منه إلى جوفه فلا يستطيع إلا الومضة بعد الومضة تلتج بين طفائه ولا تنفذه .

ثم ما لبثت هذه الطبيعة الصامتة الخرساء أن هدوت وزجرت فهبت الزويعة من كل مكان تحيظ بيديها أوراق الأشجار فتطير بها كل مظار وتهز السقوف والجدران هزاً وتضرب بعضها بعضاً ، ثم أقبل المطر يمزق قطع السحاب ويفتح لنفسه والبرق طربقاً في خلخالها ، ثم همى فسالت به الأودية والأرجاء ، وامتلأت الأحاديث والأغوار - وكنت على مقربة من كوخ صديقي « فرتر » وهو فلاح فقير أسدى إليّ فيما مضى من الأيام صنيعاً لا أزال أحفظها له حتى اليوم . فلجأت إليه فخيل إليّ حين دخلته أنه مقفر موحش ليس به أنيس . ثم أضاء البرق فرأيت في دامنه منظرًا من أجمل المناظر وأبدعها - رأيت زوج الرجل وأولاده جالسين على أقدامهم خاشعين يسطي أيديهم إلى السماء يدعون الله تعالى بدعوات جميلة يرددونها بصوت شجي حزين - فخيل إليّ ، ولا مصباح هناك ولا ضوء ، أني أرى إشراقاً وموهبهم وتلاوتها في هذه الدجوة الخالكة وأحست في المرأة فالنفت إليّ وقالت : لم يعد « فرتر » حتى الساعة . ونحن نخشى أن يكون قد أصابه مكروه من أهوال تلك الليلة ، فنحن ندعو الله تعالى أن يردّه إلينا سالمًا ، فأثر في نفسي هذا المنظر تأثيراً شديداً وقلت في نفسي : « ويل للذين

إلا ثلاثة أشهر سافر من بعدها إليك في «ولفاخ» لأخطبك
إلى أيك ، وأصح بدني في يدك ، فلا يبقى لشقاء بعد اليوم إلينا
من سبيل .

(٤٦)

من ماجدولين إلى استيفن

سافرت سوزان إلى «كوبلانس» وتركنتي حزينة آسفة على
فراقها ، ولكنني سأخفق بها عما قليل ، فقد وعدنا أبي أن يسافر
إليها بعد شهر واحد لتقضي عندها بقية أيام الشتاء ، وسأكتب
إليك عند وصولي لتكون على بينة من ذلك ، فقل لك نجد السبيل
إلى موافقي هناك ، فأراك ولو على البعد - والسلام .

(٤٧)

من ماجدولين إلى استيفن

وصلنا منذ ثلاثة أيام أنا وأبي إلى «كوبلانس» وتركتنا ضيقين
في منزل سوزان وأنا متعبتان بلقائنا وبالسعادة التي أجدتها في منزلها
المتناهي عظيمًا وقد أخبرتني اليوم أنها ابتاعت لها مقصورة لها ملعب
«الأوبرا» ونذهب إليها مساء كل أحد ، لها نحن أولاد قد وجدنا
المكان الذي يمكننا أن نترامى فيه أو نتلاقى إن استطعنا .

فقال لي يا استيفن ، ولا يحل بينك وبين ذلك أنك ستري
مرة ثانية وجه ذلك البلد الذي أبعدت عنه واجتوبته وخرجت
منه لاقماً عليه .. اغتفر كل شيء من أبي .

يحاولون أن يسلبوا أمثال هؤلاء المساكين إيمانهم وبقينهم ؛ لأنهم
يسلبونهم حياتهم التي يحيون بها في هذا العالم ، وكل ما تملك أيديهم
من سعادة وهناء ، وشمرت بجزن شديد في أحماق قلبي لحرمانني
من مثل هذه السعادة النسبية التي ينعم بها هؤلاء القوم ، فجنوت
بجائهم أهتف ببناتهم ، وأدعو بدعائهم وأصرح إلى الله أن يمنحني
يقيناً مثل يقينهم ، ولم أدر أن ما أنا فيه إنما هو اليقين الذي أنشده ،
وأصرح إلى الله فيه ثم رفعت رأسي فلما «فررت» واقف على عتبة
الباب ، فهرعت زوجته إليه تقبله وتضو عنه رداءه المبلل ، ودار
أولاده يلتمونه ويستقبلون لثماني الأيوبية الرحيمة ويستطربون فرحاً
به وسروراً ثم احتضوه جميعاً إلى المائدة وجلسوا حوله يعادونهم
وبسألونه عما كابد من أهوال هذه الليلة وشفاؤها ، وجلست
على مقربة منه أسمع حديثهم ، وأستشف سريرة نفوسهم ، فأخذ
منظرهم هذا من نفسي مأخذاً شديداً . وكذت - وما حدثت
أحدًا في حياتي على نعمة قط - أن أحدهم على نعمتهم هذه ،
وقلت في نفسي : زوجة تحب زوجها وتبكي رحمة به وإشفاقاً
عليه وأولاده يحنون على .. . وأب يبكي فرحاً بروية أولاده
ضارعين أن يحفظ لهم حياة .. . إنها السعادة النسبية العالية التي لا تستد
بهجتها ورواها من القصور والرياض ، والأثاث والرياض ،
والفضة والذهب ، بل من الحب الخالص والود المتين .

وكذلك سيكون شأننا في مستقبلنا يا ماجدولين ، كتب لنا
أن نعيش عيش الفقراء المقلين ، ولكننا سنكون على فقرنا وإفلاقنا
سعداء متبطلين .

لم يبق لي وبين الحصول على تلك الزيادة التي وعدوني بها

سافرت ماجدولين مع أبيها إلى «كوبلانس» وتزلت في ضيافة صديقتها سوزان فأدهشها منظر القصر وأبوابه وحجراته ، وما يشتمل عليه من أثاث ووريش ، وما يتلألأ في جوانبه من زخرف وآنية ، وأعجبها منظر الوصائف في إقامته وإدبارهن ، وما يترامى فيه من ألوان الثياب وأنواع الأزياء ، حتى خيل إليها وهي واقفة أمام المرأة تنظر إلى نفسها وإلى موقفهن بجانبها أنهن لفرق أن يتدمنها أو يسمعن بين يديها ، بل تحمل لما أنهن يسخرن في أعماق نفوسهن بمنظرها ، ومنظر ثيابها القروية القصيرة المخططة التي خاطتها يديها ، وكثيراً ما كانت تحذنها نفسها كلما بدت لها حاجة من الخياطة أن تقوم إلى قضاها بنفسها خجلاً منها وحياء ، والله يعلم كم نالها في مبدئ أمرها من حيرة وارتباك كلما جلست إلى طعام أو شراب ، أو شهدت مجيئاً ، أو حضرت ملعباً ، وكم كابدت من عناء في صياغة نفسها على أوضاع تلك الحياة الجديدة التي انتقلت إليها حتى أسلمت واستفادت .

وكانت سوزان قد أعدت لها فروع الأقمشة من حرير ومخمل وخز وصوف وفرو ، فخاطت لها خياطة ماهرة ثوباً للرقص ، وآخر للملعب وآخر للمائدة وقميصاً للبيت ، وغلائل للنوم ، فرقصت وغت وأنتت بمنظر الراقصات والمغنيات ، وتحدثت بإحاديث فتيات «كوبلانس» ، وذهبت مدهمهن في آرائهن وتصوراتهن ، ولدت لها هذه الحياة الجديدة لذة عظمى وملأتها بين جوانحها حتى غلبتها على أمرها ، فتضائل في نظرها كل شيء في ماضيها إلا حبها لاستيفان .

دخلت ماجدولين على سوزان ذات ليلة في غرفتها الخاصة في القصر وهي غرفة يديعة فاخرة قد كسيت أرضها وجدرانها بالطبقة الحمراء المطرزة وأسبلت على نوافذها وأبوابها ستائر حريرية بيضاء تترامى في خلالها أسلاك الفضة اللامعة ، وتدور في أطرافها ألوان الفصوص الثلاثة وانتشرت في جوانبها وأركانها المقاعد الثمينة ، والمناضد الجميلة ، وآنية الفضة والذهب ، وأصص الریحان والزهر ، فرأت بين يديها صناديق صغيرة من الفضة فقالت لها سوزان حين رأتها : لقد أرسل إليّ خطيبي اليوم هدية الزواج فهل تحبين أن تريها ؟ قالت : لا أحب إليّ من ذلك ، فتفتحت سوزان الصناديق أمامها واحداً بعد آخر فإذا عقود ودمالج وأساور وأقراط مصوغة أجمل صياغة وأيدعها ، مرصعة بأقنص اللآلئ وأقنص الجواهر ، فدعشت ماجدولين لمنظرها وقلقت قلبها بين يديها ساعة ، ثم تناولت قرطاً صغيراً من اللاس فوضعت في أذنيها ، فافتحرت عليها سوزان أن تتفقد الحلية بأجمعها لترى منظرها عليها . فتعلقت ووقفت بها أمام المرأة وأقبلت بها وأدبرت . فقالت لها سوزان : ما أحوج جمالك يا ماجدولين إلى مثل هذه الحلية وما أحوج هذه الحلية إلى مثل هذا الجمال وإني لا أتمنى على الله شيئاً سوى أن أراك خطيبة رجل من ذوي الثروة والثراء يملك ويستهم بك ، ويملاً فضاء حياتك هناك وورعداً ، ثم أنشأت نصف لها قصراً يديعاً ابتناه لها خطيبها في إحدى ضواحي «كوبلانس» وأعد لها فيه من أسباب الثروة

والرغاية ما لا يعد مثله أصحاب التيجان لنسأهم وحظياتهم^(١)
وتحت حديثها بقولها :

وفردريك فوق ذلك فني جميل ساحر لا تقع العين على
أبداع ولا أطرف منه ، وهو يجني حياً شديداً ، ولا أحب أن
الذي أصبر له من الحب أقل مما يضمير لي ، فأطرفت ماجدولين
هنيهة ولم تكن قد أفضت إلى صديقها حتى الساعة بسر حبهما
لاستيفن ، ثم رفعت رأسها وقالت : هل تكتمين سرّي يا سوزان
إن أفضيت به إليك ؟ قالت : نعم ، ومن يكتمه إن لم أكنه ؟
فقصت عليها قصتها مع استيفن وذكرت لها ذلك العهد الذي
أخلده كل منهما على صاحبه أن يعيش له ، وألا يفرق بينهما إلا
الموت ، فقالت سوزان : إني أذكر أنك كتبت لي عنه وكان
حديث عهد بالزول يداركم ، انه غير جميل ولا جذاب ، قالت :
نعم هو كذلك ، ولكنني أحببت فيه أخلاقه أكثر من كل شيء ،
وإن رجلاً يخاطر بنفسه من دون الناس جميعاً في سبيل إنقاذ غريب
لا يعرف من هو حتى أنقذه وكاد يهلك دون ذلك هو أشرف
الرجال وأبلههم قصداً ، وأعلمهم همة ، ولقد شهدت أنت بنفسك
ذلك المنظر وكتبت لي عنه ، وعلمت منه أكثر مما أعلم ، قالت :
أهو الرجل ؟ قالت : نعم ، قالت : إني أذكر ذلك ، ولقد أعجبت
به في ذلك اليوم إعجاباً عظيماً ، وهل هو غني ؟ قالت : لا ،
ولكنه يسعى إلى الكفاف من العيش وسيناله ، وحسي منه أنه
يجني حياً لا يحبه أحد أحداً ، قالت : ما أقيح المهر يا ماجدولين
إذا كان كله حياً ، إنك إذا تريدن أن تبتلي وشوشتي وتنجري
العالم كله بجماله ورواقه إلى غرة غاملة في أحد المنازل المهجورة

(١) الخلة : قرينة الكرمة من سبعا ، من الاحتذاء : وهو لزول وتزلة
لكرامة .

المفردة تفتلين فيها نفسك هما وكمدأ .

قصمت ماجدولين ولم تستطع أن تقول شيئاً ، لا اقتناعاً برأي
صديقها ، بل حياء منها وخجلاً ، ثم افرقتا .

(٥٠)

الملعب

جلست ماجدولين وسوزان في مقصورة الأوبرا وجلس بجانبهما
ألبرت ابن عمه ماجدولين ، وأشميد ابن عم سوزان ، وهما فتيان
جميلان متأنقان في ملابسهما ، وحليتهما ، شأنهما في حياتهما شأن
أطفالهما من الفتيان الأثرياء المشتهرين الذين تنقسم حياتهم كلها إلى
ساعتين اثنتين ، واحدة للفضحك والسرور ، والأخرى لتصبي
النساء واستغواهن ، فيتفقون على الأولى عقولهم ، وعلى الثانية
أموالهم ، حتى لا يبقى لهم من هذا ولا ذلك شيء .

جلسا يقبلان النظر في وجوه الخالسين في المقاصير المماثلة لها
فإن وجدوا وجهاً جميلاً تغامروا ونهاسا ، أو قبيحاً ضحكوا وسخروا ،
ثم علا صوتهما بالفضحك والسخرية ، فلم تلبث سوزان أن اشتركت
معهما . ثم تبعها بعد قليل ماجدولين ، ولم يكن ذلك من شأنها
أو مما يأنس مع مزاجها ولكنها فعلته بجمالة لها ، ثم لم تلبث أن
طربت لهذا الأسلوب من المجون وأنست به فأخذت فيه أخلعها ،
وبينا هي تغلب نظرها في المقاصير الجاورة لمقصورتها إذ رأت
امرأة في سن الشيخوخة تلبس زينة الفتيان وحليتهن فلفتت نظر
أصدقائها إلى ذلك فضحكوا لفظتها ضحكاً عالياً رناناً ، لا لأن

هناك فطنة تستحق الإعجاب والإطراء ، بل لأنهم أرادوا أن يجازوها بجاملة بمجاملة ، ومصانعة بمصانعة ، فخذعها هذا الإطراء فاسترسلت في نكاتها ومجونها حتى كادت تستأثر بالحديث وحدها من دونهم جميعاً .

وإنهم كذلك إذ هتف ألبرت وأشار إلى رجل جالس على كرسي في مؤخرة الصفوف وقال : هل رأيتم أعجب من هذا الفرد اللابس ثوب الإنسان ؟ فقال أشميد : أذكر أنني رأيت هذا الوحش المستأنس مرة قبل اليوم ، ولا أدري أين رأيته ؟ وقالت سوزان : أظنه قدم المثلث الساعة فإني لم أراه قبل هذه اللحظة ، وما أحبه إلا الشيطان الذي كانوا يتفقوننا به مسخراً ولا تراه ، فقال أشميد : إن حفته وإن كانت تمنية فاخرة فهي من احتل التاريخ التي لا يلبسها إلا المثلثون ، فأجاب ألبرت : لعله سرقها من قبور الفراعنة أو دور الآثار ، لأن من يملك مثل هذه الحفة الثمينة لا يعجز عن أن يشتري مشطاً يمشط به شعره المشعث ، فقالت سوزان : لا عار على الرجل أن يكون قبيحاً ، ولكن القبيح أن يلبس ثياباً جميلة تختلف صورتها عن صورته فخلفت الأنظار إلى قبحه ودعامة ، ثم التفتوا جميعاً فرأوا ماجدولين قد تراجعت إلى الورا وهي ترتعد وتضطرب وقد استحالت حمرة وجهها إلى صفرة كصفرة الموت فسألوها ما بالها ؟ فرحت أنها مفرورة ، وأنها تشعر برعدة في جسمها ودوار في رأسها ، ولم تكن صادقة فيما تقول ، ولا يمكن أن تصدقهم فيما تقول ، لأن الرجل الذي يسخرون منه ويتناولونه منذ حين بأنستهم ويلهبون كل مذهب في تحميفه وتجهيله والسخرية به ، إنما هو خطيبتها الذي تحبه وتستهيم به ، فأسكروا عن الضحك هتية وأقبلوا عليها بطلونها حتى هدأ ما بها ، فانصرفوا إلى الرواية يشاهدون فصولها وعادت هي إلى

عنها الأول ، وظلت تكالس استيفن النظرة بعد الأخرى حتى اتته غما فحباها بإتسامة خفيفة لم يشعر بها أحد غيرها ، ثم ما لبثت الرواية أن انتهت فهضوا للانصراف ، وألقت ماجدولين على استيفن نظرة فسمتها معنى شكرها إياه على اهتمامها بها ، وحضوره لرويتها ثم انصرفوا .

(٥١)

الرجل والمرأة

ينظر الرجل إلى المرأة في حبه إياها بعين غير العين التي تنظر بها إليه في حبه إياه ، فهو يراها أداته الخاصة به التي لا حق لإنسان غيره في التمتع بها بوجه من الوجوه ، ويرى أن حقاً عليها أن تختص بجمع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسنها عين غير عينه ، ولا تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه ، ولا يشعر بروعة جمالها قلب غير قلبه ، فيغار عليها من النظر والفتنة ، وكلمة الاستحسان ، وسمعة الإعجاب ، ويتجمل إليه أن الناظرين إليها والمحتفلين بها ، والتحدثين بأحاديث حسنها وجمالها ، إنما هم قوم جناة متلصصون قد مدوا أيديهم إلى خزائنه ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعاً فاختلسوا من جواهرها جوهرة لا حق لهم فيها ، وقازوا بها من دونه ، فلم ينفسه من الألم والامتناع ما يلم بنفس الشحيح المختبل إذا رأى السابطة تفر من حر الهاجرة إلى جدران داره تستلذري بظلالها ساعة من الزمان ، وإن لم يضره ذلك شيئاً ، وقد يكون من أشهى الأشياء إلى نفسه وأعجبها إليه أن يرى الناس قد أجسموا رأيهم على استباحها والزيارة عليها ووصفها بأقبح الصفات

وأشنعها ، وأنها قد أصبحت في نظرهم ضحكة الضاحكين ،
 وآية السابئين ، حتى يكون جمالها سراً من الأسرار الخفية ، لا
 تراه عين غير عينه ، ولا يبلغ صميمه نفس غير نفسه .

أما المرأة فتتظر إلى الرجل الذي تحبه نظرها إلى حليتها التي
 تلبسها وتمزجها وتدل بمكانتها على أترابها ونظائرها ، فلا أوقع
 في نفسها ، ولا أشهى إلى قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه
 إنه رجل عظيم ، والنساء يقلن عنه إنه قبيح جميل ، فهي تحبه للحيلابها ،
 أكثر مما تحبه للذات وشهواتها ، وترى في إعجاب المحبين به
 والفتان القشتات بحسه وجماله ، اعترافاً منهم بحسن حطها وسطوع
 نجمها واكتمال أسباب سعادتها وهنائها ، وهذا كل ما يعينها من
 شؤون حياتها .

لذلك شعرت ماجدولين بلوعة الحزن في أمهات قلبها حينما
 عرفت أن حليتها التي كانت ترجو أن تنافس بها أترابها فقاً ،
 وتكاثرن بحسنها وجمالها ، قد بدأتها العيون ، واقتحمها الأنتظار ،
 وسخر منها الرجال والنساء جميعاً ، وظلت تفكر في ذلك ساعة
 كابدت فيها من آلام النفس ولو اعجها ما تكابد نفس المحضصر
 في ساعته الأخيرة ، ثم لم تلبث أن عادت إلى نفسها وظلت تقول :
 لئيم لا يبرهن من أمره ولا أمر نفسه شيئاً ، ولو أنهم علموا
 من شأنه بعض الذي أعلم ، وعرفوا ما تنطوي عليه جوانحه من
 الفضائل والمزايا ، لأعظموا منه ما استصغروا وأجلوا ما احتضروا ،
 ولأزكروه من نفوسهم المذرة التي يستحقها فضله وكرمه .

وهنا ذكرت آماله وأحلامه ، وبؤسه وشقاهه ، وما يكابده
 في حياته من شدة وبلاء ، في سبيل عبثه مرة وحده أخرى ،
 فيبكت ، رحمة به ، وإشفاقاً عليه .

وهكذا أخذ حياها يستحيل إلى رحمة وشفقة ، والحب إذا
 استحال إلى هذين فقد آذن بحبه بالأقول .

(٥٢)

من استيقظ إلى ماجدولين

رأيتك يا ماجدولين بعد اغترافنا عاماً كاملاً ، وكانت ساعة
 من أسعد الساعات وأعنتها ، ففترت بها من أجلها كل سيناته
 عسى ، بل نسيت عندها أنني ذقت طعم الشقاء ساعة واحدة في
 يوم من أيام حياتي ، وظللت أقول في نفسي : هذا شأني ، ولم
 أرها إلا لحظة واحدة على البعد ، فكيف بي إذا أصبحت كل ساعات
 حياتي ساعات لقاء . واجتماع ؟ إلى أذكر ذلك يا ماجدولين فيخيل
 إلي أن قلبي أضعف من أن يعمل هذه السعادة كلها ، وأنها يوم
 توافيني ستذهب إما بعقلي أو بجواني .

عفواً يا صديقتي فقد أذنت إليك بيبي وبين نفسي ذنباً لا
 يد لي من أن أعترف لك به حتى لا أكون قد أذنت إليك ذنباً
 آخر يكتماله وإخفائه .

تركت (جوتنج) وقلبي يفتق رعباً وخوفاً أن تكون الحياة
 الجديدة التي انتقلت إليها قد نالت من تنسك مثالها من نفوس
 الفتيات الضعيفات اللواتي تتلون قلوبهن وأهواؤهن بلون الهواء
 الذي يستشقه ، والبر الذي يعشن فيه ، فلما رأيتك ورأيت تلك
 السحابة السوداء من الحزن التي كانت تغشي وجهك وتغلله ومنظر
 عينيك الساحيتين المنكسرتين المملوءتين بكآبة وحزنًا ، علمت أني
 غلظت في هواجسي وظنوني ، وأن المكان الذي شفكته من قلبك

لا يزال أهلاً بي كعهدي به ، وأن تلك الزبية التي عرضت لنفسي
فبك إنما هي وسوس الحب وأوهامه .

غير أن لي عندك أمنية واحدة ، وأحب أن تأذني لي بذكرها
وأن توليني إياها .

رأيتك في الملعب تلبس ثياباً رقيقة ناعمة تشف عن ذواييك
وكتفبك وتحرك ، وتكاد تم عن صدرك ونديك ، ورأيت الأناظر
حائمة حولك تكاد تنتهك انتهياً ، فاشتد ذلك علي كثيراً وألم
بفسي من النبط والألم ما أده علم به ، وما أحس أنك كنت راضية
عن نفسك في هذا المظهر الذي ظهرت به بين الناس ، ولكنت
خضعت فيه لرأي النساء ، ورأين في هذا الشأن أحب الآراء
وأطيبها ، فرجائي عندك أن تزعمي عنك هذه الشغوف المهلهلة ،
وأن تعودي إلى ثيابك القروية الأولى ، صوناً لحسبك من عبث
الأناظر وفوضوها ، فليس يكفيني منك أن تهيني قلبك وتؤثريني
بمحبتك ، بل لا بد لك من أن تفودي عنك قلوب الرجال وأنتنهم
فلا تجعل لها سبيلاً إلى الاعتنان بك ، أو الاهتمام بشأنك ، لا
بالباشاة والوداعة ولا بالزير والحلي ، ولا بالتجمل والتأنق ،
واعلمي أن المرأة لا تخلص لرجل الذي تحبه الإخلاص كله حتى
تؤثره يصيح مزايها وصفاتها ، فلا تجعل برأي أحد فيها غير رأيك ،
ولا تنزل منزلة الرضا في قلب غير قلبه ، ولا تأذني لكائن من كان
أن يقول لها في وجهها ، أو بينه وبين نفسه ، أو في رؤياه وأحلامه ،
إياها جميلة أو فاتنة ، أو ما أظرفها وأبدعها ! حتى توافيه يوم
توافيه طاهرة نقية كالزركوة المكتونة التي يلفظها ملتظها من صدفتها .

تحيتي إليك وإلى السيدة سوزان ، وسأذهب مساء بكل أحد
إلى الملعب لأراك ، وأتسلس السبل إلى لقاءك .

(٥٣)

الدميمة

دخلت سوزان على ماجدولين في غرفتها فقرأتها جالسة
الحزين المكتئب ورأت ذلك الكتاب في يدها فاحتفظته منها قبل
أن تتسكن من إخفائه ، فقرأته ثم ابتسمت وقالت لها : لم يبق
على خطيبك هذا يا ماجدولين سوى أن بأمرك بأن تشوهي وجهك ،
أو تفغضي إحدى عينيك ، أو تجدعي أنفك ، أو تهشمي مقدم أسنانك ،
حتى تبدأ العيون وتفتحمك الأناظر ، وتفسح لروبتك الأبدان ،
فلا يجرؤ أحد على أن يقول لك بلسانه ، أو بينه وبين نفسه ،
إنك جميلة أو فاتنة ، وأن تحملي بيدك قيثارة رنانة تلطوفين بها
أحباء البلاد كما كان يفعل شعراء اليونان والرومان في عصورهم
الأولى ، وتتغنين عليهما بمدحهم والإشادة به ، وتشدن أناشيد
النساء على حسن وجهه ، فما أقل عقله وأقصر نظره وأجهل بالحياة
وشؤونها ، إني لأحسبه قد أعد لك في بيته منذ الساعة فقصاً من
حديد يستفلك به يوم تزفين إليه ، ليسجلك فيه ، ثم يقف على
بابك حارساً يقطعاً بصوتك من عبث العيون وفصول الأناظر ،
فلا تزين إلا وجهه ، ولا تسمعين إلا صوته ، ولا تشعرين بوجود
أحد في العالم سواه .

فقلت ماجدولين : إنك تتهمينه يا سيدتي بما ليس فيه ، فهو
من أحسن الناس أدباً ، وأشرفهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، ولكنه
حب ، وكل حب لغير ، قالت : أعاذني الله وإياك من حب
يتخلص الحياة اختلاصاً ، ويأتي عليها بأسرج من ضربة السيف ،
وكرة الطرف ، والله لو جاء في خطيبي ملك من ملائكة السماء

يحمل على رأسه تاج اللؤلؤ الأعلى ، ويهزني بالحنة التي أمدتها الله
للمؤمن وما فيها من حور وولدان ، وروح وريحان ، ويعطيني
بالخلود الدائم ، والتعم الذي لا يفنى ، عل أن يصحني في قصص
مثل هذا القمص الذي أمدته لك هذا الخطيب المأثور لأثر موت
الفتاة ، والتفعل في أعماق السجون ، والفرار إلى أدبرة الصحاري
المنقطعة ، على الرضا به ، والتزول على شرطه .

ثم نهضت قائمة وقالت : محال أن أخطر بك وبمستطيك يا
ماجندولين وأن أتركك فريسة في يد هذا الوحش المفترس ، يتعص
ملك عيشك ويكدر صفو حياتك ، ويقطف زهرة شبابك الغضة
قبل أوانها ، ثم حينها وانصرفت إلى مجدعها .

فقضت ماجندولين بعد الصرافها ليلة ليلاه لا تسريح فيها
من الضجعة إلا إلى القعدة ، ولا من القعدة إلا إلى القومة ، تتلمس
بارقة الصواب في هذه الدجينة الخالكة فلا تبتدي إليه ، وتقلب
أمرها ظهراً ليعطن فلا يزيدنا القلب إلا جهلاً ، حتى غلبتها
السنة على عينها فنامت .

(٥٤)

من أوجين إلى استيفين

صدر أمر القيادة العليا للتهيب للسكر بعد بضعة أيام إلى جهة لا
نعرفها ويقول ضابطنا ان هناك ستكون الواقعة الكبرى التي يفصل
فيها في مستقبل الحرب . ولا أعلم ماذا بعده القضاء لي في ذلك اليوم .
فإن قدر لي الله النجاة فسأكتب إليك ، وإن كانت الأخرى فتستقرأ

اسمي بين أسماء الفئيل في جريدة الحرب ، ولا يتركك في ذلك
اليوم مصيري ، فهو مصير كل رجل شريف .

لي إليك حاجة يا استيفين أرجو ألا تنصن علي بها :

قد بلى سرجي ، ووهت علاقته ، ولم يبق معي من المال بعد ما
أنفقت عطائي كله في هذا الشهر بين اللعب والشراب ما أتباع به
سرجاً غيره ، فابعث إليّ بعشرين فرنكاً قبل مرور عشرة أيام .
فإن فائق أن ترسل إليّ في ذلك الوقت فلا ترسل إليّ شيئاً فإنه
لا يصلني . وتحبني إليك وإلى السيدة ماجندولين .

(٥٥)

العرس

استطاع استيفين بعد سفر صديقه إدوارد أن يستفضل جزءاً
من مرتبه الشهري فاجتمع له بعد بضعة أشهر خمسون فرنكاً ،
استأجر بسبعة منها الخلفة التي ذهب بها ال ملعب الأوبرا لروية
ماجندولين ، واتباع بخمسة تذكرة الملعب ، غير ما أنفق على طعامه
وشرايه وسفروه وبقي معه بعد ذلك الثمان وعشرون فرنكاً ، فلما
عاد إلى جونتج ليث بضعة أيام ينتظر كتاباً من ماجندولين رداً على
كتابه الأول قلم بأنه ، فساه ظه ووقع في نفسه أنه قد أغضبها
وأسفها فيما كتب إليها ، فاشتد حزنه وغمه وكتب لها رسالة أخرى
يحتلر إليها فيها عما ورد في رسالته الأولى فكثرت إليه أنها كانت
عاقبة عليه في سوء ظنه بها . واشتغاده في مؤاملتها وأنها قد قبلت
عطوه ، وسأته ألا يتقطع عن زيارة الملعب لتراه ، ففرم على أن

يسافر يوم الأحد ليراها ويلتصم السيل إلى مقابلتها بكل وغيلة
ليجد لها اعتذاره بنفسه ، ويشكر لها صفحتها عنه ورضاها .

فيما هو جالس في غرفته صباح اليوم الذي عزم فيه على السفر
إذ جاءه كتاب أحميه فحزن عند قراءته حزناً شديداً ، وذكر أنه
لا يملك من متاع الدنيا غير هذه القطع القليلة ، وأنه في حاجة إليها
ليفتقها على زيارة ماجدولين ، فلبث حائراً لا يدري ماذا يصنع ،
ثم غلبته عاطفة الحب على كل عاطفة سواها ، فقام ليهيئ نفسه
لسفر ، وابتاع نعلين جديداً لأن نعله القديمة كانت قد بليت ،
ولبت آخر درجات الاحتمال ، فمجز عن استئجار الخلة التي
استأجرها في المرة الأولى فلم يجد بداً من أن يستصلح حخته التي
يلبسها ، فرشق طوقها وصيغ بالمداد الأسود ما أبيض من خيوطها
ثم ركب عجلة وسافر إلى كوبلانس ، في الساعة الأولى من
الليل ، فأكل في بعض المطاعم الصغيرة ، ثم ذهب إلى الملب فلم
ير ماجدولين في مقصورتها فلم يفتق لذلك كثيراً وقال : لعل لها
شأناً شغلها عن التفكير ، وهي آتية ما من ذلك بد ، وأقبل على
المسرح ينظري بالنظر إلى فصوله فرأى بين القطع المثلثة مشهد رجل
من أرباب الثراء والنعمة قد استهام بحب امرأة واستهامت به ،
ثم نزلت به نكبة من النكبات المألوفة فتكرت له وبرمت به وعزمت
على مقابلته والرحيل عنه فجئى الرجل بين يديها يستطعمها ويسألها
ألا تفعل ، فأبت ، وصارحته بالسب الذي يدعوها إلى مقاطعته ،
وقالت له فيما قالت : « إن المرأة لا تحب الرجل قط ،
بل تحب فيه نفسها ، فإن كان من أرباب المال أحبت فيه زيتها
ولحوا ، أو من أرباب الجمال أحبت فيه لذتها وشهوتها ، فإن لم
يكن أحد الاثنين ، فهي لا تحب إلا هذين ، فاشأز استيقن عند
سماع هذه الكلمة ، وقال في نفسه : إنهم يمتنون أخلاق البغايا

القاسقات ، ويزعمون أنهم يمتنون أخلاق النساء عامة ، ها هي
هي ماجدولين تكاد تعبتني حياً ، وما أنا من أرباب الجمال فتحبني
في شهوتها ، ولا من أرباب المال فتحبني في زيتها ، ولقد أراد الله
بها خيراً إذا كتفها مؤنة سماع هذه الكلمات المنفرة ، ولو سمعتها
لأكتفها ونالت من نفسها مثلاً عظيماً .

ثم انتظر بعد ذلك ساعة فلم يبق له أمل في مجيئها ، وعلم أن
هناك شأنًا عظيمًا عرض عليها فشتغلها عن الحضور ، فاشتد عليه
الأمر كثيراً ، ورأى ألا يد له من الوقوف على شأنها قبل العودة
إلى قريبه ، وخطبى أن تكون مريضة ، فخرج من الملب ومشى
في طريق قصر سوزان ، وهو لا يعلم كيف يلتصم السيل إلى
الوصول إليها حتى دانه فرأى أنواراً كثيرة تتألق في أنبائه وحجراته ،
وتستدفق من نوافذه وكواه ، وسمع أحياناً منخفضة تردد في أحيائه ،
ورأى الخدم والخدمين غادين في صحونه وأقنيته يعملون على أيديهم
آتية الشراب وصحف الطعام ، فلم أتها ونبهة عامة ، ولكنه لم
يسر ما المراد بها ! فدنا من الباب فرأى عجلات كثيرة مصطفة
أمامه ، ورأى حوزياً متكئاً على كرسي عجلته ، فسأله : ما هذه
الآتية الخالفة في هذا القصر ؟ فصعد الرجل نظره فيه وصوبه ، ثم
قال له ، وهو لا يفارق متكأه : إنه عرض السيدة سوزان ابنة
صاحب هذا القصر ، فاطمان وهذا وعلم بأن ما بصاحبته من
بأس ، وعزم على الانصراف ، ثم حدثه نفسه أن يمتثل لرويتها ،
ولو على البعد لحظة واحدة قبل الانصراف ، فمشى إلى طلة دانية
من قتل القصر فوقف تحتها يفكر في الوسيلة التي يتلوع بها إلى
الدخول ، فما لبث أن رأى عجلة مقبلة تحمل بعض الكبراء ،
ورأى الخدم يهرعون إليها فانطلق من مكانه واختلط بهم كأنه
واحد منهم ، ولا يختلف هيته عن ذلك إلا قليلاً ، ثم نزل الزائر

قمشي بين يديه مع المشين حتى اجتازوا قناه القصر ووصلوا إلى قاعة الرقص ، فدخل الرجل ودخل معه الخدم وبقي هو وحده على الباب يستشف من ألواح زجاجه ما ورامها من المناظر ، فرأى الراقصين والراقصات يسبحون في بحر من المناء والسرور ويطيرون في أجواء مخلقة عن اللذات والشام ، فظل يدبر عينه بينهم يغتش عن ماجدولين حتى لمحها ترقص مع رجل فتيته فإذا هو صديقه إدوار ، فلم يابه لذلك كثيراً ، إلا أن ما راعه وأزعجه وكان يطير بلبه أنه رأها ترقص في ثوب رفيع شفاف لا يكاد يحجب جازحة من جوارحها ، وخيل إليه أن صدرها ملتصق بصدر محارها ، وأن رأسها مقلبي على كتفه ، وغدها تحت تناول ثلماته ، وأنه يحنضها أكثر مما يحصرها ، فإن أنبأ مؤلماً ، وقال في نفسه : ماذا فعلت بك الأيام يا ماجدولين ؟ وحدته نفسه أن يقتحم الباب وينغلغل بين الزائرين حتى يبلغ مكانها ويلقي عليها نكرة عتب وتأييب ، ثم يعود أدراجه ، ولكنه استجبا لما ولغته أن يراه الناس في هذه الأتواب الحماية الفليقة ، فصاسك على مضض ، وأنشأ يسري عن نفسه ويقول : هذا شأن جميع الراقصين والراقصات وهذه أتوابهم التي يلبسونها ، ومواقفهم التي يقفونها ، برهم وفاجرهم ، وتقيهم وعاهرهم ، فلا ألومها ، ولا أعتب عليها ، فقلبي ما تشاء من الثياب ، ولترقص مع من تشاء من الرجال ، فحسني منها أني أنا الشخص الوحيد الذي يتيهما ويخلها ، ويملأ فراغ قلبها ، من بين هؤلاء جيماً ، ثم أعاد النظر مرة أخرى فرأها قد فرغت من الرقص وسنت هي وإدوار إلى مقعد قريب من الباب فجلسا عليه فلم ير في جلسهما بأساً ، ولا مستراباً ، فهذا لاثره ، بل أعجبه ما رأى من عناية صديقه بها ، وعطفه عليها ، وخيل إليه أنه ما رقص معها ، ولا احتفل بها إلا من أجله ، وأنها

ما اجتمعنا على هذا المقعد في هذه الساعة إلا ليتحدثا بشأنه ويتذكرا ألبسه وعهده ، ثم ما لبث أن لمع في أصبعها خاتماً فتيته فإذا هو الخاتم الذي نسجه من شعره ، والذي لا يزال تحدته عنه في رسالتها كلما كتبت إليه ، فاحتبط بذلك الخاتماً عظيماً ، ولم يبق في نفسه من ذلك الخاطر المولم الذي مر بذهنه منذ ساعة حجر واحد .

وإنه لكذلك إذ دفع الباب بعنفه وخرج منه فني متألم من الزائرين يمز في يده سوطاً مستطيلاً قرأه واقفاً فظنه بعض الخدم تصرخ في وجهه بلهجة الأمر أن يدعو له سائق عجلته ، وسماه له ، فارتبك قليلاً ، ثم لم ير بدأ من الامتثال تخافة أن ينكشف من أمره ما كان خافياً ، فهرع إلى الباب الخارجي يهتف باسم غير الاسم الذي سمعه وكان قد نسيه ، فأدركه الفتي ، وقد طار القصب في دماغه فصره بالسوط على وجهه ضربة أدمته وأخذ يسه ويشتمه ، فاحتمل استيفن تلك الضربة صامتاً ، ومشي في طريقه لا يلوي على شيء .

وما أبعد إلا قليلاً حتى التحدت من جفنه دمعة جرت على خده فأصابته موضع الضربة منه فألته فهتف صارخاً : ماذا لقيت في سبيلك يا ماجدولين ؟

(٥٦)

المريض

عاد استيفن إلى جونتيج ، فوجد كتاباً من قريبه الذي كان

وسقط مشقياً عليه وهو يقول : «رحمك اللهم فقد عجزت
عن الاحتمال» .

(٥٧)

الموت

تامت العيون وهذأت الجفون في مضاجعها ، وسكنت كل
سارية في الأرض ، وكل سابعة في السماء ، ونزل استيقن وحده
ساعراً بجانب مريضه المحتضر يسمع حشرجة الموت في صدره
ترن في هدوء الليل وسكونه فيخيل إليه أنه واقف في وسط فلاة
موحشة تعرف جنباتها وتزجر غيلاتها ، فامتألت قصة رهبة ووحشة ،
وأن هناك معركة قائمة بين الروح والجسد ، تأبى إلا أن يفارقه ،
ويأبى إلا أن ينشئ بها ، فيلحظه من التعب والنصب ما لا يحتمله
يحتمل حتى عجز بأمرها فتساقط خائراً مشلماً لا تطرف له عين
ولا يتنص له عرق ، فوضع استيقن أذنه على صدره فلم يسمع
شيئاً ، فعلم أن الأمر قد انقضى ، وأن الرائق قد ألقى قناعه ،
والمثل قد خلغ ثوب تمثيله ، وأن عصري الحياة قد افترقا وعاد
كل منهما إلى أصله . فطار منهما ما طار ، ورسب ما رسب ،
فجث بجانب الميت يرثيه وينوجع له ويكي عليه مرة وعلى نفسه
أخرى ، ومررت أمام نظره في تلك الساعة رواية حياته الماضية
من ميلتها إلى متنهاها ، فظل يقرؤها صفحة صفحة ، ويقلب نظره
في سطورها وكلماتها فرأى يوماً وشقاء ، وأحزاناً ودموعاً ،
وجدوداً عائرة ، ونحوها متتابعة ، حتى انتهى إلى الصفحة الأخيرة
منها فقرأ فيها كتاب العزل الذي جاءه من المدرسة ، فانتفض عند

قد أحسن إليه ينثلك القلع الذعية يوم خروجه من «كوبلانس»
شريعاً طريداً يقول له فيه إنه مريض مشرف ، وإنه يجب أن يراه
بجانبه في ساعته الأخيرة ، فرثى له وحزن عليه حزناً شديداً ورأى
ألا بد له من موافاة رغبته في الذهاب إليه ، فاستأذن المريضة
في بضعة أيام بقضيتها بجانبه فلم تأذن له إلا بثلاثة ، فسافر إليه ،
وكان يسكن بيتاً في ضاحية من ضواحي «كوبلانس» لا يرى
فيه إلا وجه خادمه وطيبه ، وكانت زوجته قد ماتت منذ عهد
قريب ، وليس له من الأقراب الأذنين غير ابن عم له من قساة
الأغنياء وجفائهم لا يجبه ولا يحفل بشأنه ، فدخل عليه استيقن في
ساعة من ساعات الليل فرآه ساعراً يئن من الآلام والأوجاع ،
وقد نال منه الفناء مثلاً عظيماً ، فأصبح لا يستطيع النطق إلا مهممة
وتجسماً ، فجلس بجانبه يتوجع له ويواسيه حتى استطاع الرجل
بعد لأي أن يقول له : لقد مرت بي بضعة أشهر ، وأنا طريح
هذا الفراش لا أفارقه لحظة واحدة حتى منلت وبرمت ، وأصبحت
أعشى عاتلة الضجر أكثر مما أعشى عاتلة المرض ، فلا تفارقني
بعد الموت حتى يحكم الله في أمري بما يشاء .

قلت معه الثلاثة الأيام التي أجازوه بها ثم عزم على العودة فتمول
إليه المرض بانكسار عيبه وتزفرق الدمع فيهما ألا يفارقه حتى
يقضي الله في أمره بقضائه ، وكان قد ثقل وأشرف وأصبح على
حالة لا ترجى له معها الحياة ، فتقدم استيقن أن يفارقه على حاله
تلك وكتب إلى المدرسة يستأذنها في بضعة أيام أخرى بتخلفها وأدلى
إليها بعطره في ذلك . ولثت ينتظر جوابها فلم بأنه فاشد به القلق ،
ثم جاء منها بعد حين كتاب تقول له فيها إنها لم تر بدأ من الاستشفاء
عه والاستشفال منه وأنها قد أرسلت إليه ما بقي له عندنا من مرتبه ،
فما أتى على آخر الكتاب حتى صاح صيحة كادت تنفعل لها أسنانه

فراءته انتفاضاً شديداً ، وصاح صيحة عظيمة دوت بها أرجاء العرقة
 قاتلاً : ما هذا ! هل فقدت ماجدولين ؟ ثم أطرق إطراقاً طويلاً
 لا يعلم إلا الله أين سحت نفسه فيه ، ولبت على ذلك ساعة ، ثم
 رفع رأسه فإذا عيناه جمرتان ملتفتان وإذا وجهه أسود مرعب كأنما
 قد ليس نسيجاً غير نسيجه فدار بنظرة في أنحاء العرقة دورة الحياة
 الرقطاء بيومها في جنبات جحرها حتى وقع على خزاة المال
 التي كان يأمره المبت في حال مرضه بالإتفاق منها ، فعلق بها ساعة
 لا يتنقل عنها ولا يتحول ، كأن عينيه قد استحالتا إلى مسارين
 لاعمين من مساميرها ، ثم وثب على قدميه فجاة وقد أصابه مثل
 الجنون وهتف صارخاً : لا بد لي من النجاح في حياتي ولا أسمح
 لعقبة من العقبات مهما كان شأنها أن تقف في طريقي ، وإن الدهر
 لأهجز من أن يترس سبيل ، أو يثني على أمري ، فهو لا يطلب
 إلا الضعفاء ، ولا يقهر إلا الأغياء ، وما أنا بواحد منهم ، وإن
 من الجبن والخور أن أضع حياتي بين يديه يتصرف بها كيف يشاء ،
 فلا سكن أنا دهرأ وحدي ، أتولى شأن نفسي بنفسي ، وأنصرف
 بحياتي على الصورة التي أريدها ، لا أتقيد بقانون ولا نظام ، ولا
 أسجن نفسي في هذه الدائرة الضيقة التي يسونها القضية ، فما
 سقط الساقطون في معتك الحياة ، ولا داستهم أقدام المعتريين
 فيه . إلا لأنهم وقفوا من ميدان في نقطة واحدة لا يتحولون عنها
 ولا يتحللون فلم يتبهوا إلى الضربات المختلة التي جاءتهم من
 خلفهم فقدت عليهم ، ولو أنهم داروا مع الحركة حيث دارت ،
 وتقلبوا في جنباتها كراً وفرأ ، لظفروا بالنيمة مع الظالمين ،
 ولنجوا من غائلة الموت الزوام .

لا رذيلة في الدنيا غير رذيلة الفشل ، وكل سبيل يؤدي إلى
 النجاح فهو سبيل القضية ، وما ينجح الناجحون في هذه الحياة

إلا لأنهم طرّفوا كل سبيل يؤدي إلى نجاحهم فاقبحوه غير ملتزمين
 ولا متوثمين ، وما سقط الساقطون فيها إلا لأنهم تأثروا ونجروا
 وأطالوا النظر والتفكير ، وقالوا : هذا حلال وهذا حرام .

من هم الذين يملكون الدور والقصور والضياع الواسعة ،
 والربايع الحافلة ، والذين نموج خزائهم بالذهب ، موج الثور
 بالذهب ؟ أليسوا القصوص والمجرمين الذين يسعون أنفسهم ويسميهم
 الناس سراً ووجهاً ؟

من هم الذين يسهرون الليل طاولين لا يطرُق النوم أجفانهم ،
 ويقضون أيامهم هائمين على وجوههم يفتشون عن الرزق في كل
 مكان لا يظفرون منه بالبقعة أو الجرعة إلا إذا أراقوا في سبيلها
 عجباً من دماء قلوبهم ؟ أليسوا الأشراف والفضلاء الذين يسميهم
 الناس ويسعون أنفسهم معهم رعاغاً وغوغاه ؟

أنا لا أعترف بقانون الملكية ولا قانون الوراثة ، لأن المالكين
 سارقون ، ولأن الوارثين أبناء السارقين ، فلا أسلي نفسي لهما
 إلا إذا سرقت فقيراً يكادح لقوته ليله ونهاره فلا يبلغ منه إلا الكفاف ،
 ولا أسمي نفسي ظالماً إلا إذا ظلمت عادلاً مستقيماً لم يظلم في حياته
 نلة في حبة شعيرة يسليها إياها .

إن نشاط الرذيلة وشغاطها أحرم من أن يترك للقضية المنتفة
 المترفة في سيرها شيئاً وراه نبله فلتقطه ، فلأخامر في ميدان
 هذه الحياة مغامرة فإن ظفرت فذلك ما رجوت ، أو لا ، فقد
 ألبيت في حياتي جندراً .

وكان يهذي بأمثال هذه التصورات وهو يضرب في أرجاء

الفرقة ذهاباً وجية بخطوات واسعة متلاحقة ، ثم وقف بعتة وألقى نظرة على البلعة السجدة أمامه وقال : لقد أصبحت ميتاً أيها الرجل ، فلا يغنيك من المال الذي تركته ورائك شيء ، ولا شأن لك بمن يخلقك عليه من بعدك أكان صديقك أم عدوك ، أم أقرب الناس وحميمك الذي واصلك وجاملك في ساعاتك الأخيرة ، وقام لك بما لم يتم ثب به صديق ولا حميم ، حتى أضاع آماله ومستقل حياته في سبيلك أن نوصي إليه بمالك ، فهو أروح إليه من ابن عمك السيد المجدود الذي لا يبالي بأزاء مالك على ماله ، أم نقص منه ، فأنا قائم عنك بعد موتك بما فائق أن تقوم به في حياتك .

ثم أدار ظهره إلى البلعة ومشى إلى الخزانة وكانت على مكتب منه فوضع يده على مقناحها ف شعر برعدة شديدة تشمسي في أعضائه ، وخيل إليه أن الفرقة كلها عيون ترقبه وتحلق في وجهه ، وأن روح الميت تلقى عليه من نوافذ جثتها نظرات شرراء ملتصقة يكاد أوارها يصل إليه فيحرقه ، فتربث في مكانه قليلاً ثم تماسك واستجمع ليه وأناته ، وأدار القناتح فدار الباب على عقبه وصر في دوراته صريراً عسفاً ، فارتعد وتمثل له أن صوتاً أجش من أصوات الحراس الأشداء يهتف به ويخاشته ، فابتعد عن الباب خطوة ، ثم التفت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً ، فهال إنها خيالات الشقاء تلاحقني في كل مكان ، ومد يده إلى الأوراق بقلبها على نور مصباح ضعيف كان في يده حتى ضل بالسفاح التي يريدعا ، فما وضع يده عليها حتى شعر أن دمه الذي كان يعلى في عروقه غليان الماء في مرحله قد هدأ وبرد حتى كاد يقف عن الجريان ، وأن قطرات باردة من العرق تتحد من جبهته على وجهه متتابعة ، وأحس نفسه بذلك السكون العميق الذي يشعر به الفاتح المصروع بعد استغافته من صرعه ، وخيل إليه أن الخزانة التي أمامه تهتز

وتضطرب ويهوج بعضها في بعض ، ثم ما لبثت أن استعالت إلى مرآة ثقيلة لامعة فوقع نظره على صورته فيها فاستلأ قلبه خوفاً وذهراً ، وأنكرت نفسه نفسه ، فقد رأى في أسارير وجهه تلك السحنة المنكرة التي يعرفها في وجوه المجرمين ، ورأى في عيبيه تلك النظرات الطائرة الشاردة التي ينظر بها المحكوم عليه بالموت إلى سيف الجلاء حين يلعب فوق رأسه فظنل يرتعد ويضطرب ، وظللت الأوراق تتساقط من يده واحدة بعد أخرى ، وإنه لكللك إذ أحس يده ثقيلة قد وضعت على كتفه فلم يأبه لها في أول الأمر ، وظنها بعض الخيالات التي لا تزال تعاوده منذ القليلة ، إلا أنه لم يلبث أن أحس ببرودتها فوق كاهله فضامك في نفسه وتجمع تجمع المتوقع ضربة ضربة هائلة تسقط على أم رأسه ثم التفت قليلاً ليرى ماذا دعاه ، فإذا الميت واقف خلفه عاري الجسم ينظر إليه بينين جامدتين فصرخ صرخة عظمى ودفعه يده دفعة شديدة فسقط على الأرض بعيداً عن مضجعه الأول فزنت عظام رأسه على أرض الفرقة رنباً شديداً ، فاحتل وأصابه الجنون وألقى المصباح من يده فانتفضاً فازداد رعبه وقرعه ، وهرع بطلب الباب للفرار منه فلم يبتد إليه ، فظنل يعلو في أنحاء الفرقة ، وينلمس جدرانها مقبلاً مديراً لا يعثر حتى يقوم ، ولا يقوم حتى يعثر ، وقد خيل إليه أن البلعة تعلو وراءه وتتعبه حينما ذهب ، حتى أصبح الجهد ، عن الحركة ، فسقط مقبلاً عليه .

ولم يكن ما رآه في هذه المرة خيلاً بل حقيقة لا ريب فيها قد عاودت الميت الحياة لحظة ففتح عيبيه للمرة الأخيرة فرأى باب خزانه مفتوحاً ورأى إنساناً لا يعرف من هو يقبل أوراقه ، فلفه الحرمس القريزي الذي لا يبارق الإنسان من مبدأ ساعات حياته إلى نهايتها والوثوب على قدميه والإهواء بيده على كتف

السارق ، ثم كان ما كان من سقوطه على أرض الغرفة فكان في سقطته القضاء عليه .

لم يستغق استيفن من غيبته حتى طلع الفجر وأرسل بعض أشعث من نافذة الغرفة ففتح عينه وظل ينظر حوله يمنة ويسرة ، فرأى المصباح الساقط والخزانة المفتوحة ، والأوراق المبعثرة ، والجلدة المتقاة ، فذكر كل شيء . وقام يتحامل على نفسه فأعاد كل شيء إلى مكانه ، ونقل الجلدة إلى مضجعه وأسبل عليها غطاءها ، ولم يلبث أن جاء الطبيب ، فلما رأى الصدع الذي في رأس الميت قال لاستيفن : أحسب أن المريض قد تار من فراشه في ساعته الأخيرة ولم يكن معه من يتولى شأنه فسقط بعيداً عن مضجعه فأصابه ما أصابه ، فارتعد استيفن وقال : نعم يا سيدي ، ولقد كنت نائماً في تلك الساعة فلم أستطع مساعدته ولم أستيقظ إلا على صوت سقطته ، فاحملته إلى مكانه وكان أسفي لذلك عظيماً ، فلم ير الطبيب بأساً فيما قال ، وانصرف لشأنه .

وما انقضى النهار حتى دفن الميت وحضر دفته وارثه ، وسافر استيفن إلى جونتج ، وهو يردد في طريقه قوله : «ويل لي من مجرم أقيم ، فما وصلها حتى كان قد بلغ آخر درجات الاحتمال فسقط في فراشه مريضاً مدقفاً ، لا يفارقه خيال تلك الملائة التي كابدتها لحظة واحدة .

(٥٨)

إدوار

علق إدوار بماجدولين منذ الليلة التي رأها فيها استيفن من

وراء ألواح الزجاج يرقصان معاً ، فأنشأ يتخلف إلى منزل سوزان وكان يمت إليها بجمل قرابة ليري حبيته ويستلني قلبها ، وكان من أشد الناس على مثل ذلك ، لعلوبة يعرفها له النساء في أسلاخه ، وحلاوة تجذب قلوبهن في أحاديثه فأنتت به وبمحضره وأعجبها منه أنه كان يسرد عليها كلما جلس إليها أحاديث المحافل والأندية ، ويطرفها بقرائنها ونوادرها ، ويذكر لها أسماء الرافضين والرافضات وفضل ما بينهم في البراعة والافتنان ، ويشرح لها أنواع الرقص غربية وشرقية ، قديمة وحديثة ، وتاريخ كل نوع من ومنشأه ومعبره ويقص عليها قصص الغرام التي تنشأ كل يوم في قاعات الرقص بين النساء والرجال ، وكانت حديثة عهد بذلك كله ، فلم يكن شيء من الأشياء أعجب إليها من ذكره وترديده ، وكان إذا جرى ذكر استيفن بينهما أتى عليه وأطراه ، وقص عليها طرفة من نوادر طقولاتهما صباحها ، وما مر لها في حياتهما الأولى من بؤس وورغد وشدّة ورخاء ، ثم يصف لها بلهجة الحزين المتضجع حياة البؤس والشقاء التي يجامها اليوم في «جونتج» وغرفته التي يسئها ، وأثائها الذي تشتغل عليه ، ونيابسه التي يملكها ، ثم يتبع ذلك بالتوجع له ، والتأم لبؤسه وشقائه ، وعجازه الدرع إياه في مساعبه وأغراضه ، فتصنئ إلى حديثه وتقبل عليه إقبالاً عظيماً .

ولم يزل بها حتى خلبها ، ووقع من نفسها ، وأصبحت لا تكاد تصبر عن مجلته ساعة ، ولا تزال تفتقده وتسال نفسها عنه كلما غاب عنها ، وهي تظن أنها إنما تحبه من أجل استيفن ، ولو كشفت لها عن دخيلة نفسها لعلمت أنها قد بدأت تسمى استيفن من أجله .

ولقد أصبحت سوزان تلك الصلة التي نشأت بين صديقتها
 وغريبها ورضيت عنها الرضا كله ، ورأت أن الله قد أراد به وبها
 خيراً ، فرزقه أفضل القنيات جمالاً وأدباً ، ورزقها خير القتيان
 ثروة وجاهاً ، وكانت تعرف شيئاً عن عيوب إدوار ، ولكنها
 كانت ترى أنها عيوب خاصة به لا تتعداه إلى غيره ، وكانت
 تعتقد أن المرأة لا ترى في زوجها النبي الذي يملأ فضاء بيتها نعمة
 ورغداً عيياً واحداً مهما كثرت عيوبه ، فانشأت تسمى معها
 للبلوغ بهما إلى الغاية التي تريد لها . فأشارت على إدوار أن
 يتردد إلى الشيخ مولر ويفاضله مداخلة الصديق صديقه ، وقالت
 له : إنه رجل مفتون بحب النبات والزهر ، فلا يعجبه إلا الحديث
 عنهما ! ولا ينزل من نفسه المنزلة العليا إلا من يعلم أنه يشاركه في
 العلم بهما ، والاهتمام بأمرهما ، وكان إدوار قد درس شيئاً
 من علم النبات في مدرسته فاستعان بستانه صديقه على معرفته
 معرفة ما كان يجمله منه ، وغرس في حديقة بيته بعض أنواع الزهر
 القوية ، وعرف خصائصها وصفاتها ، ثم خالط الرجل ودخله
 ودعاه إلى بيته وأراه حديقته ، ومضى معه في كل مكان وجاراه
 في كل حديث ، فلم يلبث أن أعجبه ووقع من نفسه ، وهكذا
 أصبح أثيراً عند الأب وابنة .

(٥٩)

سريرة المرأة

ما أبغضت ماجدولين استيفن ، ولا أحببت إدوار ، ولكنها
 ليست حالاً جديدة لم تكن تلبسها من قبل ، فكان لا بد لها من

أن تلبس معها جميع آثارها ومتعلقاتها ، فقد ألفت المجامع والحافل ،
 وأسست للمراقص والملاعب ، وصادقت النساء المشحفات المثانقات ،
 وخطت كما بنين ، ورقصت كما يرقصن ومشت في مثل أزيائهن ،
 وتحدثت بمثل أحاديثهن ، وفهمت من سعادة الحياة وهناتها المنى
 التي يعهن ، ورأت في الرجال والنساء والصلة التي بينهما الرأي
 التي برين ، فتناست استيفن لأنه صورة من صور ، الحياة الحياة
 القافية التي عاقتها واجتوتها وأحبت إدوار لأنه مظهر من
 مظاهر الحياة الجديدة التي أحببتها وانتمت بها .

على أنها كانت إذا غلت إلى نفسها ، وهذأت عنها عروضا
 الحياة وضجيجها ، واستطاعت أن تمد نظرها إلى أممات سريرتها
 حتى ترى ما في قرارها تراهي لما شبح استيفن في تحوله واصفراره
 وحزنه واكتابه ويومه وشقائه ، ومنظر عينيه المنتئين حزناً
 ودعواً ، وقلبه المتضخم حياً وحرماً ، ونفسه الشاعرية المائمة في
 تودية المومم والأحزان ، فتحن إليه حين الغريب إلى داره والشيخ
 إلى عهد صباه ، وتذكر أيامه الماضية التي فضاها معها فتبكي
 حسرة عليه وإشفاقاً ، بل وجدناً به وغراماً ، ثم لا تلبث أن ترى
 سحابة بيضاء من النور مائلة أمام عينيها ، فلا تزال تنسبط وتستقيض
 حتى تشق عن قاعة الرقص التي شهدتها ليلة عرس سوزان ،
 ترى الوجوه المشرقة ، والفتور الياسمة ، والذهب اللامع ،
 والجوهر الساطع ، والخلال المنطرزة ، والحلل المديحة ، والصدور
 اللاصقة بالصدور والأذرع المحيطة بالصدور ، والبحر المائع
 بالأقنوار ، والروض الحافل بالأزهار . وترى العروسين كالقفرقلين ،
 يسدان لسعادة القبة عليهما ، ويتدفق تيار الحب والصبابة بين
 قلوبهما ، فيتضاءل أمام عينيها ذلك الشبح الأول ، ثم لا يلبث
 أن يتغلغل في ظلمات الوجود الخالكة حتى يتبب عن نظرها ،

فلا يبقى له عين ، ولا أثر .

ولقد دخلت سوزان عليها صبيحة يوم في غرفتها ، وكان قد مضى على زفافها شهران فقللت لها : أتدريين ما انتقنا عليه أنا وأبوك ليلة أسس يا ماجولين ؟ قالت : لا ، قالت : أن نساغر جميعاً إلى ضياع زوجي في «سان مارك» لنقضي فيها أسبوعين أو ثلاثة ، ثم ننقل إلى «الفيباخ» وهي على بضعة أميال منها ، فنستضيفكم أسبوعاً واحداً نقضه في التنزه بين مزارع القرى وصاكرها ، ثم نفرق بعد ذلك . فتهلل وجه ماجولين فرحاً بتلك السياحة الجميلة التي ستقضيها مع أصدقائها في أجمل القلاع وأبهجها ، ثم ما لبثت أن اكتأبت وتغصن جبينها لأهسا ذكرت ساعة الفراق القريبة ، وأنها ستعود بعد أيام قلائل إلى عزلتها في غرفتها ، وتعيش فيها عيشة الوحشة والوحدة بعيدة عن «كوبلانس» وجماعها ومزدحم الحياة ، فاشتد ذلك عليها كثيراً ، وأثت سوزان بما دار في نفسها وعرفت ماأنا ، إلا أنها تهاهلت واستمرت في حديثها تقول : وسبصحبنا في سياحتنا هذه إدوار ، وسيكون أستا به وبمشرته عظيماً ، ألا ترين رأيي في ذلك يا ماجولين ؟ فقهمت ماجولين مقصدها ، وأين تريد أن تذهب في حديثها . فقالت : ليلذهب معكم من تشامون مسن أصدقائكم وخطاطكم ، فلا شأن لي في ذهاب من يذهب ، أو بقاء من يبقى ، فابست سوزان واستطردت في حديثها تقول : ولقد انتقنا كذلك على ألا يسافر إدوار معنا إلا باسم خطيبك ، وقد قطعنا هذا الأمر من دونك ، لأننا نعلم أنك لا ترين لنفسك إلا الرأي الذي نراه لك ، فاضطربت ماجولين وقالت : لقد قلت لك يا سوزان قبل اليوم إنني لا أستطيع أن أتزوج ، قالت : لماذا ؟ وهل تطمع الفتاة في زوج أفضل منه عزلاً وأدباً ، وشرافاً

وجاهلاً ، وهو فوق ذلك يحبك ويستهم بك ، ولا يؤثر على سعادتك ويحملك غرضاً من أغراض الحياة ، ولا مآرباً من مآربها ؟ قالت : ولكنه لا يستطيع أن يجني حبة استيفن إنني ، قالت : أما هذه خصم ، لأنه يحبك حب الغلاء والأكياس ، لا حب التوكي والمأفونين .

إن هذا الذي تزعمين أنه يحبك ويستهم بك ، لا يحبك ، بل يحب بك المرأة الخالية التي يتخيلها في ذهنه ، والتي لم يخلق الله لها مثلاً في هذا العالم ، ولا بعيدك ، بل بعيد إله اللوهوم الذي يحل أنه حال في جشائك كما كان بعيد آباؤنا الأولون كفتهم في جنوح الأشجار ، وقطع الأحجار .

إنه يتخيلك ملكاً من ملائكة السماء يحيط بوجهه حالة من النور ، ويرقرق في جنبه جناحان أبيضان متلائكان لتألؤلؤ الأشعة ويحمل بين أصابعه نفساً غريبة عن النفوس في جوهرها ومعناها قد جعلها الله يجمع صنوف الكمال ، وطهرها من أدناس الحياة وأرجاسها ، فلا تفهم شهوة من الشهوات ، ولا تشعر بلذة من اللذات ، ولا تعرف فرق ما بين السعادة والشقاء والغنى والفقر والراحة والتعب ، والسرور والحزن . فويل لك منه يوم تتحشر عن عينه بعد ساعة واحدة من بنائه بك غشاوة الحب الأول ، غيرك كما أثت ، ويرى فرق ما بينك وبين الصورة الخالية الخائفة في رأسه ، إنه لا بد يفتضك ويحترق ، ويهوى بك إلى أدنى حركات القدر والشقاء ، ولا نهاية للاغراق في الحب ، غير الإغراق في البغض ، فإن كان لا بد لك من أن تحفظي بمكانتك في قلبه فلا تزوجيه ودعي ينظر إليك دائماً بهله العين التي ينظر بها إليك اليوم ، ولا تحشي عليه أن تشقى بفراقك فابست فجميعه فيك يوم يفقدك ، بأعظم من فجيعة في آلامه وأحلامه يوم يراك ويرى

في ثوبك امرأة غير المرأة التي كان ينتظرها ، ويطير شوقاً إليها .

أنت لا تعلمين من شئون الحياة ودخائلها مثل ما أعلم يسا ماجدولين . ولقد خبرت فيما خبرت من صروفها وتجاربها أن الغرام أضعف العلاقات بين الزوجين والمصلحة أقوىها وأوثقها ، وأن الحب كالزهرة ، والمال كاللؤلؤ الساقط عليها ، فإذا انقطع العطر من الزهرة بضعة أيام ذوت أوراقها وتناثرت ثم تعظيرت في مهاب الرياح الأربع ، وأن هذه الثورة النفسية التي يسمونها العيبانية أو الوجد أو الوله أو الهيام ، والتي لا يزال يهتف بذكراها الشراء ، وتعظير في سماء خيالها أبواب الرجال والنساء ، إنما هي عرض من أعراض الأعصاب المريضة ، يبيجه الجسد ويطغى القرب ، ثم تبقى بعد ذلك الحاجة إلى العيش ومرافقه ، والسعادة وأسبابها ، فإن أعوذ ذلك فقد مات الحب في القلب ، ودفت جثته في ضريح القفر ، والقفر يطوي في أحشائه جميع عواطف القلوب ويحوّلها ، بل ربما دارت الوسواس والأوهام في رأس ذينك الزوجين اللذين كانا متحابين بالأمس ، فرأى كل منهما في وجه صاحبه صورة الشؤم له ، وألقى عليه تبعه بؤسه وشقائه ، فاستحال حبهما إلى بغض متلذذ في سويداء القلب ، لا ينزعه إلا الموت .

أنت فقيرة يا ماجدولين ، واستيقن أفقر منك ، فلا تضني فقره إلى فقرك ولبختر كل منكما لنفسه المشبر الذي يعلم أنه يبعده ، ويملا فضاء حياته غبطة وهناء ، فإن كان لا يد لك من الوفاء له فإن أولى ما يكون المرء لصاحبه حين يؤثر مصلحته على مصلحة نفسه ويكفكف من زعاج قلبه وأهوائه في سبيل سعادته وهنائه ، فليكن ذلك شأنك معه ، واحتملي مرارة فراقه

والمحرمات منه رحمة به وإيقاع على حياته التي توشك أن تمتد بها نكبات الدهر وأرزاقه ، فقد أصبحت أعشى عليه - وفي رأسه هنا العقل الصغير المختل ، وبين جنبيه مثل هذا القلب الضعيف المستطال - إن بمنزلة جده فيما يحاول من الأمل الذي يمس إليه من أجلك ، فيدفعه جنون الطمع إلى سلوك طريق غير طريق الشرف ، فيقترب جريمة ، أو ينتهك حرمة ، أو تثور برأسه نائفة اليأس فيقتل نفسه طلباً للراحة من عناء الحياة وشقائها ، فإن فعل فأتت البغاية عليه ، والموردة إياه هذا المورد من التلف ، فاطفري كيف يكون موقفك بين يدي ربك وعصيرك فغداً إن تم تلك على بلك ؟

فاستعرت ماجدولين باكية ، وما بكث إلا رحمة بملك اليأس السكين وإشفاقاً عليه أن يناله بسببها هذا الشقاء العظيم ، وأطرقت سناً ثم رفعت رأسها وقالت : دعيني الساعة وحدي يا سوزان لئلا في حاجة إلى الخلوة بنفسي .

(٦٠)

الجريدة العسكرية

التعم جيشنا أمس بجيش العدو واستمرت المعركة عشر ساعات حتى فيها جنودنا من بأس العدو وشكته وقوة مرماه هولاً عظيماً ، حتى بلغ منهم اليأس أو كاد ، ثم برز من بين صفوفنا ضابط من عساطر الفرسان اسمه « أوجين ولتر » فهتف بجنوده « ورائي أيها الأبطال ! » وانقض على العدو انقضاض النازلة السماوية فانقض معه جنوده فسررت الحمية في نفس الجيش بأجمعه فهجم

وراه ، وما هي إلا جولة أو جولتان حتى نمت المزيمة للعدو
ففر يطلب النجاة لنفسه في كل مكان فتبعناه وأمعنا فيه ففلاً وأمسراً
وغنماً من غنائم كثيرة

إلا أنه حدث لذلك الضابط الشجاع في نهاية المعركة حادث
كثير صغر ذلك الانتصار ، فإنه بينما كان يتبع آثار العدو ويقرب
في مؤخرته إذ انقطع حزم سراجيه وكان يالياً واعياً فمجر عن
التماسك فسقط عن جواده فلدست حوام الخيل ، ثم اتته له
من الحياة تقضى ساعة يتألم ألماً شديداً ويهتف باسم أخ له اسمه
« استيفن » حتى فاضت روحه ، فحزن الجيش عليه حزناً شديداً
وبكاه القواد وروساء الفرق ، ثم دفن باحضان عظيم لائق بشجاعته
وإقدامه وحميته التي ليس لها مثيل .

(٦١)

البيت الجديد

وقف استيفن على عتبة باب بيته الجديد وكان يتسألون لا
لا يزالون يشتغلون باستصلاح بعض أملاكه فهتف بصوته فرز
فلياه فقال له : هل تم بناء الغرفتين الجديدتين على الصورة التي
اتفقنا عليها ؟ قال نعم يا سيدي وتم كذلك تخصيصهما وترجيح
نوافلهما ، فجزاه خيراً ، ثم التفت إلى السني وقال له : هل
غرست أشجار الفاكهة التي أرسلتها إليك بالأمس ؟ قال نعم
يا سيدي ، وستكون الكرمة المنسطة فوق الحدار من البيع الكرمات
وأجملها ، قال : لا تنس أن تكسو السور كنه يخته وزهره
بأزهار البنفسج كما أمرتك . قال : سأعمل يا سيدي إن شاء الله ،

فتركه ودخل المنزل فألقى على الطيقة السفلى نظرة صجل ، ثم
صعد إلى الطيقة العليا ووقف في بهو متسع تتلوه به الحجرات
وقال : ما قد أصبح البيت على الصورة التي اتفقنا عليها منذ عامين
أنا وماجدولين ، على الطيقة السفلى غرفة المائدة والمطبخ وغرف
المؤونة والمراحيق ، وفي الطيقة العليا غرفة الأضياف ومخضع النوم
وقاعة الكتب وغرفة الشيخ مولر ، ثم فتح باب الغرفة الخامسة
وألقى عليها نظرة ألتم بجميع ما فيها فاعرورقت عيناه بالدموع
وقال : لقد كنت أرجو يا أوجين أن تشركتني في سعادتني كما
شركتني في شقائي ، ولكن هكذا أراد القدر أن يفرق بيني وبينك ،
وأن تكون سعادتني منفضة بذكرائك أبد الدهر ، فوا أسفاً عليك
يا أنني أسفاً لا يفارقتني حتى الموت ، وستمر الأيام وتكر
الدهور والأعوام ، وسأنسى كل ما مر بي من حوادث الدهر
خيرها وشرها وبؤسها ورفغدها ، ولا أنسى أنني غسنت عليك
بتلك الدرهم الثقلية التي سألتنيها أخرج ما كنت إليها ، وأن يدي
هي اليد الخفية التي أوردتك هذا المورد من الردى ، فافقر لي
ذني واعف عني واقني يوم تلقائي في آخرتك بذلك الوجه البشوش
الغض الذي كنت تلقائي به في حياتك ، فأنا من لا يعيش إلا بذكرك ،
ولا يموت إلا بذكرك ، وأقبل باب الغرفة وقال : لن يفتح هذا
الباب بعد اليوم ، ثم كتكتف عبرته ، وسرى عن نفسه ، وأشرف
على الحديقة ينلوه بالنظر إليها ، فوقع نظره على حوض الماء المني
في وسطها فقاد إلى مناجاة نفسه بقول : وما هو الحوض الذي
سرتني فيه الأسماك ذات الألوان المختلفة ، وما هو السباح الذي
رأينا أن نقيمه من حوله خوفاً على أولادنا المستقبلين من السقوط ،
وما هي أزهار البنفسج التي تحبها ماجدولين وتوثرها على الأزهار
جميعها تملأ البيت داخله وخارجه .

إنها لا تعلم الآن شيئاً من هذه السعادة المهيبة لها ، وربما كانت تكابد اليوم أشد حالات بأسها وحزنها بعد انقطاع رسائلي عنها أياماً طويلاً ، وسأبانتها بها مياضتي لا يزول أثرها من نفسها أبداً الدهر ، فقد شقيت ما استطاع الشقاء أن يكون ، وستعد بعد اليوم سعادة تسببنا همونا الماضية والآمنة ، ولا نذكرها إلا كما نذكر دموع طفولتنا وبكائها .

ثم نزل ومضى في الحديقة مع صديقه فرتر ينظر القاعين ينظم أغراسها ، وتمهيد طرفاتها ، وينقل بين أشجارها وأزهارها مسروراً متبعلماً وكأنه لم يلد قط طعم الشقاء في دهره يوماً واحداً .

(٦٢)

برونس

ما كان استيقظ قبل اليوم أمراً ولا ناهياً ، ولا صاحب بيت ولا حديقة بل ولا صاحب أي شيء من الأشياء إلا إذا كانت أغوابه البالية المرفقة شيئاً تتعلق به الحيازة والملك . فقد عاد إلى جوتنج بعد تلك الليلة البلاء التي كابدتها في غرفة قريبة سفر اليمين من كل شيء حتى من أماله وأمانه ، ففرض في غرضه مرضه بضعة أيام كابد فيها من آلام جسمه ونفسه ما يحجز عن تحمله ، ثم أبل قليلاً فأنشأ يفكر فيما يصنع بعد الذي كان من شأنه وانقطاع رجائه به ، فخطر له الانتحار ثم منعه منه أنه سيكون أشد منه بماجدولين فلا يراها بعد اليوم ، وفكر في الرجوع إلى أمه والإدعان لهم في رغبتهم التي يرغوبونها إليه ، ثم ذكر لوليتي التي استطاع لماجدولين ألا يستغي بها بدلاً حتى الموت ، فمطم عليه أن يحس

بعنده ومر بشاطره القرار بنفسه إلى أية بقعة من بقاع الأرض يطلب فيها السلو والراحة والتفرج مما به ، ولكنه أشفق على ماجدولين أن يقتلها الحزن عليه من بعده ، وهو إنما يحيا في هذا العالم من أجلها .

ولم يزل يراوح بين هذه الفكر ويستغني بعضها منها ويلود بعضاً حتى صحت عزيمته على أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين ، ولم يكن قد كتب إليها منذ عهد بعيد يقص عليها قصته ، وما آل إليه أمره ويغفلها من اليمين التي أقسمت له . ثم وضع أمره بين يديها ، فإذا أحيته فعاد إلى أمه وسعيه ، أو فكتته فاختفى موؤنة قتل نفسه بنفسه . فإنه ليكتب ذلك الكتاب إذ دخل عليه رسول البريد يحمل إليه رسالة من مسجل القرية التي مات فيها قريبه يقول له فيها : إن الميت قد أوصى إليه في كتاب وصيته بعشرين ألف فرنك يأخذها في الحال وحشرة آلاف يأخذها في كل عام ، فاستطير فرحاً وسروراً وقال : أحملك اللهم غللت يدي عن أن آخذ هذا المال حراماً ، حتى بعثت به إليّ حلالاً ، ومزق الكتاب الذي كان يكتبه وعلم أن أيام عته قد انقضت ، وأنه قد أدى للدهر ما عليه له من شربة الشقاء ، فلم يبق بين يديه إلا أن يستقبل السعادة القليلة عليه خالصة هنية لا يكلوها عليه مكدر حتى الموت .

وأنشأ يقفش بمعونة صديقه فرتر ، عن بيت صغير يشرف على نهر جوتنج ، ويكون على الضفة التي تمنأها هو وماجدولين ليلة ركبا زورق البحيرة وتحدثا عن آملهما ومستقبلهما ، فوجد بيتاً يشبهه فابناعه واستصلحه ، وحوله إلى الصورة التي أرادها ، وأخذ يؤثت غرفه ، ويغرس أشجار حديقته .

وإنه كذلك إذ قرأ في البريدة السكرية خبر وفاة أخيه فيكاه كثيراً ، ثم ما لبث أن تجلد واصطبر ، ودفن حزنه في أحماق قلبه ، وألغاه سروره بمناضره عن التفكير في ما ضيه فابتاع خانماً للخطبة نخباً وأعد عدته للسفر إلى « ولقياح » وكان قد علم أن ماجدولين قد عادت إليها من « كورلانس » منذ عهد قريب ، ليلاقتها بتلك السعادة التي هياها لها ، ويخطبها إلى أبيها ، ثم يعود بها إلى « جونتج » ليربها البيت الجديد .

ثم ركب عجلته في صباح أحد الأيام وسافر وقابه يفتق فرحاً وسروراً حتى وصل إلى ضاحية القرية ، فترك العجلة مكانها ، وأمر السائق أن ينتظره حتى يعود وتزل يمشي على قدميه ويقلب نظره في تلك المعاهد التي قضى فيها أيام سعادته الأولى وأشرف على قلبه من سائبها أول شعاع من أشعة الحب ، فرأى الغابة التي كان يهيم فيها وحده في الثيالي المقررة مناجياً نفسه بحبه وغرامه ، ومصوراً لها أهدب الآمال وأحلاها ، ومر بالنهر الذي اقتحمه منذ يومين لاستنقاذ ذلك الرجل الذي كان مشرفاً على الفرق حتى كاد يفرق معه لولا معونة الله وعنايته ، ووقف على ضفة البحيرة التي كان ينزه فيها هو وماجدولين ساعة الأصيل ويقضيان الساعات الطوال بين سائبها ومائها .

ثم أشرف على بيت الشيخ مولر فلاحته له أعالي أشجار الزيزفون التي كان يجلس تحتها هو وماجدولين كما كان يراها في ذلك العهد ، ورأى من خلال أوراقها غرفته العالية التي كان يسكنها ، فعادت إلى ذهنه تلك الأيام الماضية التي قضاه في هذه المواطن ، فرأى صبيها ومساءها ، وليلها ونهارها ، ويكورها وأصائلها ، وكل ما مر له فيها من سرور وحزن ، ورجاء وأأس ، وصحة ومرضى

ورعاه وشدة ، حتى شجىل إليه أنه لا يزال مقبلاً في ذلك المنزل حتى اليوم ، وأنه إنما خرج الساعة من غرفته لقضاء بعض حاجاته ، وما هو ذا عائد إليها .

ولم يزل يهيم في أمثال هذه التصورات حتى توصل إلى باب الحديقة فوقف على عتبة وقال : ها هو ذا الباب الذي خرجت منه بالأمس طريداً شريداً لا أملك من أمر نفسي ولا أمر مستقبل شيئاً ، وما أنذا أدخله اليوم آمناً مطمئناً كما أدخلت بيتي ، وأزور أهله وقومه كما أزور أهلي وقومي ، لا أنشئ شيئاً ، ولا رقيباً ، ولا أنهي غائلة من غوائل الدهر ، ولا رغبة من رزاياءه ، فما أعجب تغلبات الأيام وأعرب ما تأتي به الأقدار !

ثم مشى في الحديقة يقلب نظره في أشجارها وأغراسها ، وجدواها وطرقاتها ، ويقول في نفسه : لقد بقي كل شيء على ما هو عليه ، فما هي ثغرة الحائط الغربي لا تزال باقية كما هي ، وما هي الصخرة العائية السوداء مقلقة في مكانها تحت الجدار كما تركتها ، وما هي أشواش العليور فوق قمة شجرة السنديان لا تختلف إليها عصفيرها غادية راتحة كمهدي بها ، ثم التفت إلى يمينه وقال : وما هو الجذع الذي حفرنا عليه اسميتا أنا وماجدولين ، ثم مشى إليه فرأى الكتابة لا تزال على حلقها كأنما قد حفرت بالأمس ، فأغرورقت عيناه بالدموع ، وجثا بين يدي الجذع وأعوى يفضه إليه قلته كأنما يشكر له تلك اليد التي أسداها إليه في احتفاظه بتلك الذكرى القديمة التي أودعه لإياها ، وهبت على وجهه في تلك الساعة نسمة مرت قبل مرورها عليه بأزهار الحديقة وأعشابها ، فحملت إلى رأسه تلك المجموعة العظيمة البديعة التي طلك استروحها في هذا المكان نفسه مع ماجدولين ، ولا يحمل

الذكرى القديمة مثل الأريج الطرأ فهاج وجهه وحيته ، وأخذ
يعانق الهواء ويضمه إليه كما يضم حبيباً ملقى بين ذراعيه .

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى
مكان المقعد الذي كان يجلس عليه هو وماجدولين تحت أشجار
الزيزفون ، ولم يبق بينه وبينه إلا خطوات قليلة ، فاشتد تأثره
ونحن قلبه خفقاناً شديداً ، وحدث نفسه أن ماجدولين جالسة
هناك الساعة وحدها تبكي وتتحب ، وتتدب آمالها وأحلامها
وتتفكر في انقطاع كعبه عنها ، فأشفق عليها أن يباغتها بالخير
مباغنة فيفتلها ، فأخذ يبكيه في نفسه طريقة إلقاءه ، ثم مال
برأسه قليلاً فرأى طرف المقعد ، ورأى ذيل ثوب حريري
أبيض مستلماً عليه فاستطير فرحاً وسروراً وقال : ها هي ذي
جالسة كما كنت أتوقع أن أراها ثبت اللهم قلبي وقدمي في
ذلك الموقف الجلل العظيم .

ثم انطوى فما وقع نظره على المقعد حتى جمد واصفر ،
ووقفت دورة الدم في عروقه ، وتعلقت بين لحيه لما تصعد
ولا تهبط فقد رأى ماجدولين جالسة بجانب قنطرة غرب نسم
له ويسم لها ، وقد أخذ يدها بين يديه وألقى رأسه على صدرها ،
وحنا عليها نحو المحب على حبيبها ، فظل يقول في نفسه : ما هذا
الذي أرى ! إنني لا أفهم من كل ذلك شيئاً .. إنها ماجدولين
بعينها ! فمن هو هذا الإنسان الجالس إليها ، أليس هو صديقي
إدوار ؟ نعم هو بعينه لما يجبه هنا في هذه القرية ، وما وجوده
في هذا البيت ؟ وما جلوسه بجانبها هذه الجلسة الغريبة ؟ ثم شد
يده على قلبه كأنما يحاول أن يجسه عن الفرار ومشى بفتنح قدميه
اقطاعاً كأنما هو شبح من الأشباح الغائمة في ظلال الليل حتى

دنا منها ، ففزعا إذ رأياه ، ووثبا على أقدامهما وثبة واحدة ،
ثم ما لبثا أن اختلف شأنهما ، فأخذ إدوار بطرف شاربه يبتس
به ويقلب عينيه في السماء كأنه منجم يفشش عن النجم السابع
والسجين بعد المائة والخمسة والعشرين مليوناً كما يصنع المتجسسون ،
وأطرفت ماجدولين إلى الأرض فسكنت في إطرافها سكوناً
عميقاً لا تتخلله حركة ، ولا نامة ، فظل استيقظ يردد نظره
بينهما باحثاً مشدوهاً لا يقول لهما شيئاً ، ولا يفهم من موقفهما
أمراً ، ثم مشى خطوة إلى ماجدولين ، وقد أخذ الدعول مأخذه
من عقله فحسب المنظر الذي رآه عند لحظة ، وأنشأ يخاطبها بأساً
متطلقاً ويقول لها : لقد اتفقت أيام شقائنا يا ماجدولين ، ولقد
أصبحت والحقيقة صاحب ثروة لا أقول إنها عظيمة ، ولكنها
كافية لسعادتنا وهناتنا ، فجئت إليك أنتجزي وعدك ، وأنطليك
إلى أريك ، ثم أذهب بك إلى جونتج لأريك البيت الحديد الذي
ابنعه لك منذ عهد قريب ، وسترين حين ثريته أنه على الهيئة
التي تمنينا أن يكون عليها ليلة ركبتنا زورق البحيرة وتحدثنا عن
آمالنا وأمانينا ، فارتعدت ماجدولين وامتنع لونها وقالت بصوت
ضعيف خافت كأنها تهمس في نفسها بعض الأحاديث ، إلى
أهنتك بصلاح حالك يا سيدي ، فعجب استيقظ لذلك واستطير
عقله وقال في نفسه : ما هذا الذي أسمع ، إنها تهتني بصلاح
حالي كأنها ترى أن لي حالاً خاصة لي مستقلة عن حالها ، فليت
شعري ما يالها ! وما هذا السكون المخيم عليها ! وما هذا الوجه
الغريب الذي تلقاني به ! لقد كنت أعشى أن أقتلها فرحاً وسروراً ،
فإذا هي تقطني هماً وكسداً ، ثم نسى هذا المنظر الأخير كما
نسى الأول ، فأخرج من جيبه خاتم الخليفة ومشى إليها خطوة
أخرى ليقتنعه إليها ، فما وقع نظره على أصبعها حتى تراجع

خالفاً مذعوراً ، فقد رأى فيه خاتماً غير ذلك الخاتم الذي نسجه من شعره ، وكانت تحدّثه عنه في رسائلها كثيراً وتقول له إنه لا يفارق أصبعها لحظة واحدة فاشد خنوق قلبه واضطرابه ، وظل يدور بعينه حائرّاً ملئحاً لا يعلم أخيراً يرى أم حقيقة ؟ وازدحمت الدموع في عينيه تتبادر إلى السقوط ، فمد يده إلى ماجدولين صارماً وقال لها : ألا تستطيعين يا سيدي أن تقولي لي كلمة واحدة فلاي أشعر أنني على وشك الجنون ؟ فرفعت رأسها ونظرت إليه كأنها تريد أن تقول له شيئاً ، ثم عادت إلى إطرافها وسكونها ، وهنا تقدم نحوه إدوار ووضع يده على كتفيه وقال له : حسبك هنا يا استيفن فإنك تقتل السيدة قتلاً ، فانتبه استيفن وكأنه لم يكن رآه قبل هذه اللحظة فصعد نظره فيه وصوبه وقال له : إنني لم أكن أتوقع أن أراك هنا في هذا المكان يا إدوار ! فقال له : سواء أتوقعت أم لم أتوقع ، فقد كان يجب عليك أن تستأذن قبل الدخول ، ولم يكن يجمل بك وأنت في هذه السن المتقدمة أن تنسي أول درس يتلقاه التلميذ في مدرسته في أدب الزيارة والاستئذان .

فالتفت استيفن انتفاضة شديدة وعلت جيبه سحابة بيضاء لم تزل تسع وتضيض حتى بست وجهه كله فصار كأنه البرد الناصع ، واسترخت يدها كما يكسر الطائر جناحه لتوقع ، وشعر بتخاذل أطرافه فراجع إلى شجرة وراءه فاستد إليها ، ثم نظر إلى إدوار نظرة بقطر منها الدم وقال له تلك الكلمة التي قالها بوليوس فبصر حينما طمن من خلفه ، فالتفت فرأى أن الذي طمنه هو صديقه وصفيه حتى أنت يا بروتس ؟! وصمت لحظة حتى رجعت إليه نفسه ، ثم التفت إلى ماجدولين وقال لها بصوت خافت متهدج تتطأير معه أجزاء نفسه : أصبح

ما يقول هذا الرجل يا ما جدولين ؟ وهل ترين كما يرى أنني أنعطأت في دخولي عليك بغير استئذان ؟ وهل تعتقدين أن له شأناً عندك يسمح له بأن يتولى أمر مؤاخذتي بالنيابة عنك ؟ فاعترض لإدوار بينهما ومد يده إليها وقال لها : هيا بنا يا سيدي فقد طال جلوسنا في هذا المكان حتى مللنا ، فأعطته يدها وتبعته صامتة مطرقة حتى دخلنا البيت وتركاه في مكانه ينظر إليهما وهما يتتعدان عنه شيئاً فشيئاً حتى اختفا وسمع خفق الباب وراءهما فظل شاخصاً إلى الباب الذي دخلناه لا يتحرك ولا يطفرف ، ولا تنبث له جارحة ، ولا ينفض له عرق ، ومرت به على ذلك ساعة ، ثم أخذ يحدث نفسه ويقول :

إن إدوار بخاطبي بلهجة الأمر الناهي كأن له شأناً في هذا البيت فوق شأني ، فلا بد أن يكون له هذا الشأن الذي يزعجه ، ولا بد أن يكون قد استمده من ماجدولين نفسها ، فقد رأته بعينها وهو يخترني ويزدريني ، بل يسني ويشتمني فلم تقل له شيئاً ، لا ! إنها واقفة على أكثر من ذلك ، فقد مدّ يده إليها ودعاها للدخول معه إلى المنزل ، وهي تعلم أنه لا يريد بذلك إلا طردي ، وإذلالني ، فتبعته طائفة مدعنة ، ولم تلتفت إلي ساعة انصرافها الثفانة واحدة تعتذر بها عن عملها هذا ، وما قد مضت ساعة بعد ذهابها ولم تعد إلي لترى ماذا حل بي من بعدها ، فلبت شعري ما دهاني عندها ؟ وما هذا الذي بينها وبين إدوار ؟ إنني أخشى أن يكون خليلها ، وأن يكون هذا الخاتم الذي في يدها خاتم الخطبة الذي أهدها إليها ، وأن تكون تلك الجلسة التي رأيته يجلسها بجانبه جلسة غرام يشاكيان فيها الحب وبيئاته ، فأني كان ما ظننت حقاً ، فهي فتاة مجرمة خائفة ، لأنها وعدتني بالانتظار حتى ييسر الله لي سبيل الرزق فلم تف بوعدها بل أقسمت لي

الإيمان التي لا تسعة فيها على الوفاة حتى الموت فلم تبر بيمينها .

لا .. لا ، إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك ، لأنها تعلم من العلم أنها لي ، وأنتي صاحب الشأن فيها من دون الناس جميعاً ، فقد اشتريتها بدم حياتي وبجميع دعوي وآلامي ، وكابدت في سبيلها من نكبات الدهر وأرزائه ما يخرج احتمالاً عن طوق البشر ، فجمعت حتى أشرفت على الموت ، وعريت حتى حسبت نفسي عن الخروج من حرقتي إلا في فم القبل وحنانيه ، ونمت في القبالي القرة الباردة في بحر الهوام الجاري بلا غطاء ولا دثار ، وعرجت تحت جنح الظلام أفنش في ستاديق القمامة عن لقمة متروكة أو عظمة مطروحة أسد بها رمقي ، وبعث الخبز الأبيض بطنيز الأسود لأستطيع أن أجد لقمة لغدائي ، وأخرى لعشائي ، وما زلت أرفع قميصي حتى صار القميص الرقاق وذعب القميص بأجمعه بل ركبت في سبيلها ما هو أعظم من ذلك فقد قتلت أخي ومثلت بالرجل الذي أحسن إليّ في حياته وبعد مماته ، وحدثت نفسي بسرقة ماله ، بل مددت يدي إليه ، فأصبحت بذلك من المجرمين .

إنها لا تستطيع أن تتزج بلعاً من يدي ، ولا أن تفصل حياتها من حياتي ، فقد خلقت لي كما خلقت لها ، وها هو اسمي محفور بجانب اسمها على جذور أشجار حديقتها ، وها هي شعرات رأسها منسوجة في الخاتم الذي أكيه منذ عامين ، وها هي الأرض والسما ، والبحيرة والقلك ، والشمس والقمر ، والأشجار والأعشاب ، والطيور والأزهار ، تشهد بيميننا وقرامنا ، ومواقف آماننا وأسلامنا ، وآماننا التي أفسناها ألا يفرق بيننا إلا الموت ، فإذا كانت نفسها قد حدثتها بمقاطعتي ، واتخاذ سبيل في الحياة

غير سبيل فقد قفت على وعلى نفسها في آن واحد ، لأن الحياة الواحدة لا يمكن أن تنقسم إلى حياتين تعيش كل منهما مستقلة عن الأخرى .

ثم تأوه آهة طويلة وقال : من لي بمن أبعه نصف حياتي على أن يكشف لي الحقيقة التي أجهلها ؟ ولقد كان جديراً بي أن أقف في طريقهما عندما حاولا الفرار مني وأبى عليهما أن يتصرفا إلا بعد أن يترفا لي بحقيقة أمرهما ، ويمزقا عن وجهيهما هذا الستار الذي أسلاه عليهما ، فإن أيا قتلتها غير ظلم ولا آثم ، فليس من العدل ولا من الرحمة أن بلعيا إلى خلوتهما لينعما فيها بما يشاءان أن ينعما به ، ويتركا في هذا المكان وحدي أعالج ما أعالج من العموم والآلام .

ثم قام يتحامل على نفسه حتى خرج من باب الحديقة ومشي يترفع في مشية ترتفع الشارب التمثل ، فما أبعد إلا قليلاً حتى سمع صوتاً شديداً يحنق وراءه ، فالتفت فإذا إدوار خارج من الحديقة محتطاً صهوة جواده أصهب فاختبأ استيقن وراء ريوه على الطريق حتى دنا منه فخرج إليه وأمسك بعناده فظهر إدوار إذ رآه ولكنه تماسك وقال له : ماذا تريد يا استيقن ؟ قال : أريد أن أسألك عن سبب اختلافتك إلى هذا البيت ، وعن الشأن الذي لك فيه وما أعرف لك فيه شأناً قبل اليوم ، قال : لا أستطيع أن أجيبك على سؤالك هذا وأنت أخذت بعنان جوادي لا تتركه ، فدعه وسألني ما تريد ، فترك استيقن العنان إلا أنه وقف في وجه الجواد ، فقال له ادوار : لو غيرك سألني هذا السؤال بهذه اللهجة الخشنة التي تخاطبني بها لما كان لما جواب عندي سوى أن أقول له إني حر مغلقت أصرف في شؤون نفسي كيف أشاء ،

فأزور ما أزور من المجازل وأترك ما أترك منها دون أن أحرف
 لإتقان في الوجود حقاً في مراقبتي أو مساهلتي عما أفعل ، ولكن
 إكراماً لصدقة التي بيني وبينك أستطيع أن أجيبك على
 سؤالك هذا جواباً موجزاً فأقول لك : إنني أختلف إلى بيت الشيخ
 مولر لأنني خطيب ابنته ، وسأبني بها بعد شهر واحد ولو شئت
 لحضرت حفلة عرساً ، بل أنا أدعوك إلى ذلك ، فارتعدت شفتا
 استيفين وشر بالمولت يتسرب إلى قلبه قليلاً قليلاً ، وقالت له
 بصوت خافت ضعيف : أنتني ماجدولين ؟ قال : نعم ، وليس
 لمولر ابنة غيرها ، فأطرق استيفين هتية ثم رفع رأسه وقال له :
 ولكنك تعلم يا إدوار أنني أحبها وأنها كل حظي في هذه الحياة ،
 وإن انزعاجها من يدي إنما هو بمثابة انزعاج حياتي من بين جنبي ،
 فهل بيون عليك وأنا صديقك ورفيق صباك وشريكك الدائم في
 سراء الحياة وضرائها أن تقتلني ؟ قال : أنا أعلم أنك تحب هذه
 الفتاة ، وأنت استمتعتها في بعض أيام حياتك الماضية بعض الاستمالة ،
 حتى كادت تسقط في أحولة الشفاء التي نصبها لها ، لولا أن
 تداركها أبوها فاستنقذها من يدك ، وطردك من بيته طرداً قبيحاً ،
 وحماها ذلك المستقبل المظلم الذي كنت تبني لها ، فقاطعه استيفين
 وقال له : ولكنك لم تجبني على سؤالتي الذي سألتك ، قال : وما
 سؤالك ؟ قال : سألتك هل بيون عليك قتل وأنت أخي وصديقي ،
 ورفيق طفولتي وصباي ؟ قال : إنني ما أردت قتلك بل أردت
 حياتك ، فقد تركت لك السبيل بعمل هذا إلى الرجوع إلى نفسك
 والتفكير في شأن حاضرک ومستقبلک ، فقللك إن روأت في أمرک
 قليلاً علمت أن خيراً من هذه الحياة المضطربة المبهتة التي تفضيها
 بين أحلام خالية ، وأمال كاذبة : الرجوع إلى أهلک والانصواء
 لهم والسكون تحت أجنحتهم والإذعان لهم فيما يريدون لك من

الخبر في تزويجك من تلك الفتاة الثرية التي اختاروها لك ، ولا
 يذهب عليك أن زواجك من فتاة موسرة تظلل بوارف نعمتها
 ضاحي " فترك ، غير لك من القعود مقعد الذل والمترية بحجاب
 فتاة فقيرة تضم شقامها إلى شفتائك فتعيا بحمها معاً ، فما أنت
 ترى أنني أردت لك الخبر فيما فعلت ؟ وأسفبت إليك نعمة إن
 إن جهنتها اليوم فستعرفها غداً ، وستهدأ عما قليل هذه العاصفة
 الناتجة في رأسك فتصرف لي مكان البد التي اتخذتها عندك وتشكرها
 لي شكراً جزيلاً .

فما أني إدوار على آخر كلماته حتى طار الغضب في رأس استيفين ،
 وبرزت من مكمنها تلك السورة التي كانت رابضة وراء مكمنه
 فالتفت عليه ولبه " وهزه هزه شديداً حتى كاد يقنطعه من سرجه
 وأبشأ يقول له : الآن عرفت مكان الخديجة التي خدعتم بها تلك
 الفتاة المسكينة أيها القوم الأشرار ، ومن أي باب دخلتم إلى قلبها
 فعبثتم به ، ولئى عقلها فطرتم بصوابه ، فقد علمتم ما تضمنه لي
 بين جوانحها من الحب والإخلاص ، وأنها لا تبني بسعادتي بدلاً
 من أغراض الحياة ومآزرها ، فالتقيتم في روعها أنها علة ما آلمت في
 هذه الحياة من برؤس وشفاه ، وألا سبيل لي إلى أن أنال من حياتي
 حنطاً من سعادة العيش وهنائه إلا إذا أباسنتي من نفسها وانترعت
 بدعا من يدي وقطعت ما كان موصولاً عن الود بيني وبينها ،
 قصدت حدبكم وأزعجها هذا المصير الذي خيلتم لها أنني سأصير
 إليه بسبها ، فأذعنت لرأيكم ، واستفادت لكم ، وفعلت ما
 اتفرحت عليها ، رحمة بي وإشفاقاً علي ، كذلك استطعم أن تستمروا
 ضعفاً وتستلوه لأتسكم ، وما بكم من رحمة بي ، ولا بها ،

(١) عسى فتني : برز قنص هو سماح .

(٢) له : أنه يظنه في مع أنابه .

ولكن هكذا أراد الشيخ الجشع المأفون أن يستمتع بنعمة المال الذي يعده ويدين به ، فباعك ابنته ببيع الإمام في سوق الرقيق ، وهكذا أردت أن تتمتع بشهواتك البهيمية التي لا تفهم من شؤون الحياة شيئاً غيرها ، ولا يفتيك من زواجك من مثل هذه الفتاة أمر سواها ، لمثلك من يعجز عن إدراك سريرة نفسها ، وما تضمره بين جوانحها من نبل وشرف ، وكل ما تستطيع أن تفهم منها أنها فتاة وضيئة حسنة نشئة في بيئتها ووروثها رونق أولئك الفتيات الجميلات اللواتي طالما خدعنهن عن أنفسهن ، وقضيت لبالبك في مقاصيرهن ، ثم ما لبت أن تفضت يدك منهن ، وتركتهن يدين حياتهن وآمالهن . ولو استطعت أن تسلك إلى المنعة بهذه الفتاة تلك السبل التي سلكتها إلى المنعة بأولئك الفتيات لتعلمت ، ولما جشمت نفسك مشقة الزواج منها ، ولأنتك ليلة واحدة تقضيها في مخدعها عن أن تحبس نفسك عليها الدهر كله .

ومن كان هذا همه من حياته فويل لزوجته منه وويل منها وويل لها من شقاها الدائم الطويل .

فقال له إدوار : إن كنت تريد أن تقول إنها أرغمت على زواجها إرغاماً ، أو خدعت فيه خديعة ، فأنت مخطيء في ذلك لأنها قد نسبت كل ماضيها غيره وشرفه . ولم يبق بين يديها إلا حبها لخطيبها وإخلاصها إليه ، وتعليل نفسها باليوم الذي تسعد فيه بجانبه .

فاستغبر استيفين غضباً وقال : كذبت أيها الرجل السافط . إنها أشرف مما تظن . وانقصر عليه يربد الفتك به ، فأمسك إدوار بيديه . وقال له بنعمة المستعطف المترحم : أتريد أن تقتلني يا استيفين ؟ فاستخذي استيفين وتضاهل ، وترامى له طيف

ذلك الود القديم الذي كان يته ويته ، ونظر إليه بعينين مفروقتين بالدموع ، وقال له : لا يا إدوار لا أستطيع أن أقف لك لأنك صديقي ، ولقد وقفت مرة في حياتي أسفك بضع قطرات من دمي فداء عنك ، فلا أندم على مرورني قط ، ولا أسترد يدي التي اتخذتها عند الله فيك أبداً .

ثم ألقى برأسه على قبروس السرج وأخذ يد إدوار بين يديه يبللها بدموعه وظل يناشده ويقول : إني لا أدعوك يا إدوار باسم الصداقة التي رضعنا ثديا منذ طفولتنا معاً كما يتقاسم الأخوان ثدي أمهما ، ولا باسم المدرسة التي أطلقتنا سماناً وأفلتنا أرضها خمسة أعوام كاملة آس بك فيها وتأنس بي ، وأعجبتك على أمرك وتصيتي على أمرتي ، ولا باسم ذلك الشهيد المسكين أوجين الذي كان كريماً عليك وعلى ، وكان يرعى لك ودك ويحفظ عهدك ، حتى مات ، وهو يعتقد أنه قد تركني من بعده في كلمة أح كريم وصديق حميم ، ولا باسم اليمين التي أقمستها لي ليلة مفرك من «جوتنج» ألا يبدأ لك في حياتك روع ، ولا يطلع لك صدر ، حتى أنال أميتي من حياتي ، بل أدعوك باسم الرحمة والثغفة ، لأنك محسن كريم ، ولأني باتس مسكين ، وليس لقبائس المسكين من سبيل في حياته غير رحمة المحسن الكريم .

فلم يعبأ إدوار بذلك كله وتغفله وهمز جواده فطار به ملء فروجه ، فركض استيفين وراءه فلم يدركه ، وكان قد أمياه الجهد فسقط في مكانه ، وهو يقول : لا بد أن يكون ما قاله صحيحاً .

ولم يزل في سقطته تلك حتى مر به بعض السابلة ، وكان قد رآه عند حضوره فمره فأذن به سائق عجلته ، فهرع إليه المحوذي

ولقد يده حتى إركبه العجلة ، ثم ذهب به إلى منزله .

فما انفرد بنفسه في غرفة حتى أخذ يصيح صياح المجانين
ويضرب رأسه بالحلران ، وهو يقول « آه لقد فقدتكم يا ماجدولين » .

رسائل استيفين

(٦٣)

من استيفين إلى ماجدولين

أصبح يا ماجدولين أن ما كان بيننا قد انقضى ؟! وأنا أصبحتنا
متناكرين غير متعارفين لا يذكر الواحد منا صاحبه إلا كما يذكر
لمداً من أحلام صباه قد عفت آثاره الأيام والأعوام ؟

أصبح أننا إذا التقينا بعد اليوم في طريق واحد مضى كل منا
في سبيله دون أن يلوى على صاحبه ، أو في مجتمع لا يكون بيننا
من الشأن إلا كما يكون بيننا الشأن إلا كما يكون بين سائر رجال
هذا المجتمع ونسائه ، أو في حلوة لا نجد ما نتحدث به أو لا نتحدث
إلا بمحدث الأجواء والأمطار ؟!

ما أسرع تغليات الأيام وما أغرب تصاريحها وشؤونها ؟!

أينما بين يوم وليلة تنهدم جميع الآمال الحسام التي بنتها
وأحكمتنا بنامها وبذلنا في سبيلها همومنا وآلامنا وأرقنا من أجلها
كل ما نملك من دموع وشؤون ، ونصيح أترأ من الآثار الفارسة
التي يتحدث عنها التاريخ الحاضر كما يتحدث عن التاريخ
الماضي ؟!

هكذا تقوم الساعة ، وهكذا ترجف الراجفة ، وهكذا تنتثر
الكواكب في الفضاء ، وتطوى السماء على السجل للكتاب .

لقد كنت أحسب يا ماجدولين ألا يتولى ذلك الأمر منا غير
الموت ، أما وقد توليتنا من أنفسنا بأنفسنا ونسجنا خيوطه بأيدينا ،
ونحن أحباء فنلك أصحوبة الدهر التي لم ير مثلها راء ولا سمع
يمثل حديثها سامع ؟

ماذا أنكرت مني يا ماجدولين ؟ وماذا دعاني عندك ؟

لقد أحببتك حياً لم يحبه أحد من قبل أحد ، وأخلصت لك
إخلاصاً لا يقصر مثله أخ. لأخيه ، ولا والد لولده ، وأجلتلك
إجلال العابد لمبوده فما خنتك في سر ولا جهر ، ولا كذبك
في قول ولا عمل ، وملأت فراغ حياتي كله بك فلا أنظر إلا
إليك ولا أشعر إلا بك ولا أحلم إلا بطفلك ، ولا أمزج لروية
الشمس ساعة شروقها إلا لأني أرى فيها صورتك ولا لسماع
أغاريد الطير في أغانيها إلا لأني أسمع فيها نغمة حديثك ، ولا
لمنظر الأزهار الضاحكة في أكمامها إلا لأنها تمثل لي ألوان جمالك ،
ولا لتمتيت لقصي سعادة في هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ،
ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك ، وأستمع برويتك .

إن كنت ترين أني لا أستحق محبتك ، وأني أصغر شأناً من
أن أملأ فراغ قلبك ، فأحبي في حبي اباك وإخلاصي لك ،
واجزيخي غيراً بما بذلت لك في حياتي من دموع وآلام وشجون
وأحزان ، واعلمي أنك إن استطعت أن تجتدي بين الرجال من
يرضيك بجماله أو ماله ، أو حسيه أو جاعه ، فإنك لا تستطيعين
أن تجتدي فيهم من يحبك محبتي ، أو يخلص لك إخلاصي .

إنهم قد غدعوك يا ماجدولين ، وزبنوا لك حب المسال والشهوات وخيلوا إليك أن الحياة طعام وشراب ، وتوب فاحر ، وقصر باذخ وعقد ثمين ، وقرط جميل ، وأن الزواج شركة مالية يتعاون فيها الزوجان على جمع المال واكتنازه ، وما علموا أن الزواج المالي نوع من أنواع البغاء ، وأن المرأة التي تزوج الرجل لماله لا تزوجه كما تزعم ، بل تبيع نفسها يماً كما تبيع البني جسمها لعاشقها ، بل هي أحط من البني شأنًا ، وأسفل غرضًا ، لأنها لم تبيع نفسها من أجل لقمة تقيم بها أودها ، أو خرقه تسر بها صاحبي جلدها ، فينضح لها صدر العلد في ذلك ، بل من أجل عقد ثمين تطمع في أن تزين به صدرها أو ثوب فاحر تكاثر به أثرابها ، أو قصر جميل تستمتع في جوه بأنواع اللذائعا .

لا تصدقي يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب لأن صدقت فويل لك منك ، فإنك قد حكمت على قلبك بالموت .

لقد كنت عتدي آخر من يحفل بأمثال هذه المظاهر الكاذبة وبأبه لها ، وكان أكبر ما أعظمك في عيني ، وأجلك في نفسي واستعبدني لك أنك المرأة التي وجدت فيها وحدها من بين النساء جميعاً قلباً نقياً طاهراً يفيض بالحب النقي الطاهر الذي لا تشوبه شوائب التواضع والشهوات ، ولا يكدره مكدر من أعراس الحياة ومطامعها ، فهل كنت غفطاً في ظني ؟

لا .. لا . انك لا تزالين صاحبة ذلك القلب الذي أعرفه حتى الساعة وهذا هو الذي أخافه عليك ، وأرني لك من أجله .

أنت لا تعلمين شيئاً من شؤون إدوار ، وأنا أعلم من شؤونه

قل شيء وأحص ما أعلم منها أنه لا يعمل بين جنبيه قلباً مثل قلبك ، ولا يفهم من معنى الحب وسره المعنى الذي تفهمين ، ولا يستطيع أن يكون شريكاً لك بحال من الأحوال في شعورك ووجدانك ، وكل شأنه معك أنه راك فاستملحك فاشتهاك ، والملاحة عرض زائل ، والشهوة ظل متقل ، فأخشى عليك أن يثالك بعد قليل على يده ذلك الشقاء الذي تغرين منه اليوم ، وألا ينفك ولا يجدي عليك شيئاً في ذلك الحين مال ولا نسب ، ولا فضة ولا ذهب ، ولئن تم لك ذلك لأكون أشقى الناس عيناً وأعظمهم بؤساً ، لأنني أحبك ، وأحب لك السعادة في كل موطن تكونين فيه ، من أجلك لا من أجل نفسي .

ليت شعري ! هل يصل صوتي إلى أحماق قلبك يا ماجدولين كما كان يصل إليه قبل اليوم ؟ وهل تستطيعين أن تتصورتي كما كنت تتصورين من قبل أنني أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسي ، وأنتي فيما أفضيت به إليك من تلك النصيحة إنما أردت سعادتك وهماك أكثر مما أردت سعادة نفسي وهماها !

(٦٤)

من استيقن إلى ماجدولين

لقلما أبقي على ما أرى .

الحياة مظلمة في عيني ، والدنيا موحشة مقفرة لا أسمع فيها حساً ولا حركة الليل متواصل لا ينقطع ، وكان الناس يرقود في مضاجعهم ليلاهم ونهارهم ، لا يستيقظون ولا يستطيعون

ويخيل إليّ أنني أعيش في صحراء نائية مقطعة عن العالم وما فيه ، لا يمر بها طير ، ولا يجري فيها نهر ، ولا يبطأ ترحبها إنسان ، ولا يحول في أكتافها حيوان ، وأنتي أهم فيها وحدي ليلى ونهارى ، أطلب اللباس منها فلا أعرف السيل إليه ، وأحمل نفسي على البقاء فيها فيقتني الفسح والفضيق .

فمنى بعين حبي وثأني ساهي فأرتاح من همومي وآلامي ؟
لا شيء . يعزبي عنك في العالم يا ماجدولين ، لأنك كنت لي كل شيء . فيه فلما فقدتلك لم أجد عنك عوضاً ولا بدلاً ، وكنت كمن غامر في ساعة واحدة بجميع ما تملك يده فلما خسر خسر كل شيء .

كانت لي آمال كبار ، وأمان حسان ، وكانت لي نفس مملومة بغطائم الأمور وجلالاتها ، وكنت أشعر بقوة في جسمي لا يقوم لها شيء . في هذا العالم ، فأصبحت رجلاً ضعيفاً خائداً متألماً يائساً قانطاً لا أشعر ولا أفكر ولا أتخذ ولا أدع ، ولا أتجه لى مقصد ، ولا أتعلق بفرض ، ولا أجلب لنفسي خيراً . ولا أدفع عنها ضرراً ، ولا شأن لي بين الناس أكثر من شأن جثة ملقاة لا روح فيها ، أو حجر مطروح في قارة الطريق .

ألا تخافون يا ماجدولين أن يأخذك الله يديني يوم يأخذ الناس يدينيهم ، ويسألك عن هذه النفس الطيبة الطاهرة التي قتلتها وفجعتها في جميع فضائلها ومواهبها ، وأن يتبعك صوتي في كل مكان تكوئين فيه ، في خلواتك وجمتماعاتك ، ومناملك وبقتلك ، وبين ذراعي زوجك ، وبجانب مهود أولادك ، ويصبح بك : إنك قد قتلت رجلاً لو عاش لكان أفضل مثال للأزواج الصالحين ،

والآباء الرحماء والأصدقاء والأوفياء ، ولكان خير الناس للناس جميعاً ؟

لم تعدني يا ماجدولين أن تسهرى على سعادتى وتحرسها كما تحرس الملائكة سعادة البشر وهناعمهم ؟ فهالدا أشقى الناس جميعاً ، وأعظمهم يأساً وبلاءً ، فإن ما وعدتني به ؟

تعالى إليّ وقفي أمامي ساعة واحدة لأراك وأرى في وجهك صورة سعادتى الزائلة وآمالى الضائعة ، وأسعيتى صوتك العذب الجميل الذي أسمعتني من قبل ، وألقي عليّ نظرة واحدة من نظراتك العذبة الرائقة يجيى بها نفسي اليئس ، وقولي لي صدقاً أو كذباً إنك لا تزالين تحبيني وتعطين عليّ ثم لا تزيدني على ذلك شيئاً ، فقد أصبحت أفتح منك بكل شيء .

أقسم لك يا ماجدولين أنني لو رأيتك في طريقى لمرحت إليك وجئت تحت قدميك كما يجئ العابد تحت قدمي معبوده وسألتك الخير والإحسان كما يفعل السائل المستجدي ، فإن أهرضت عني زحفت ورامك على ركبتى وتعلقت بأهداب ثوبك حتى تصغي إليّ وتسمي شكائى .

ولكن ماذا أقول لك ؟ وماذا عندي من الأحاديث فأحدثك به ؟ لا شيء . عندي سوى أن أدرف دموعي تحت قدميك ، وأمد يدي إليك صامتاً ثم أضع حباتي بين يديك فإذا أحسيتني أو قتلتي .

إنني أتلم كثيراً يا ماجدولين ، ولا أحسب أن في العالم نفس تحمل ما تحمله نفسي من الآلام والأوجاع ، فأرحمني واعطني عليّ ، فإن لم أكن كفواً لمحبتك ، فامتحني صدافتك ، فإن أبيتها

فاسبلي على ستر حمايتك ، فإن ضمنت بها غائلتي أن أسير وراءك
في كل مكان تسيرين فيه كما يتبعك كلبك الدليل ، لأراك وأسمع
صوتك ، وأستنشق الهواء الذي يحيط بك لأنني لا أستطيع أن أعيش
في العالم دون أن تكون لي صلة بك .

كنت قد وضعت قبل اليوم بين يديك سعادتني وهنائي ، أما
الآن فقد حانت الخصال ، وتراجعت الآمال ، وأصبحت لا أطمح
في أن أضع بين يديك شيئاً غير حياتي .

فهل تبقين عليها ؟

(٦٥)

من استيقظ إلى ماجدولين

لي الله من باتس مسكين ، فقد ذبلت زهرة حياتي قبل أن تتفتح ،
ودبت إلى الشيخوخة وأنا لا أزال في ريعان الشباب ، وانطفاً
ما كان مشتتلاً في قلبي من الهمّة وفي رأسي من الذكاء ، وفي
وفي جسدي من القوة ، وانقطع ما كان موصولاً بيني وبين الناس
جسماً ، فماتت أمي ، وطردني أبي ، وعاداني أهلي ، ولم يكن
باقياً لي في العالم سواك ، ثم انقضت ما كان بيني وبينك ، فأني أرب
لي في العيش من بعد ذلك .

أنتوين لم أؤثر الحياة على الموت يا ماجدولين وقد كان الموت
أرواح لي مما أكابده ؟ لأنني لست على يقين مما بعده ، وأخشى
إن حل لي أن ينزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي تحمست
فيها بحبك وعطفك وبحلاوة الأمل فيك ، والتي هي كل ما بقي
في يدي بعد الذي كان ، ولولا ذلك لقلقت نفسي ، ثم استحال

روحني إلى طائر جميل يطيف بك وبرفرف على رأسك حينما
ذعبت ، ويتناول الحب من يدك مرة ، والقبلات من فمك أخرى .
فأظفر منك شيئاً بما عجزت عنه حياً .

إنك سلبتني سعادتني يا ماجدولين ، ولكنك لم تعطني شيئاً
بدلاً منها أعيش به ، بل تركتني وشأني كما يترك المسافر رفيقه
البحريح الظالم في الصحراء المحرقة لا ظل فيها ولا ماء ، وينجو
بنفسه غير مهال بما تصنع به المقادير من بعده ، فما أقفأك ، وما
أبعد الرحمة من قلبك !

ردي عليّ آماني وآمالي ، وليالي التي قضيتها فيك ساهراً
مستغلاً ، وحياتي التي وضعتها بين يديك ، ووكلت أمرها إليك ،
وأعيدي إليّ عظمي وحنائي ، ورحمتي وإشفاقي ، وجميع عواطف
قلبي التي غشت بها على أهلي وقومي جميعاً وأترتك بها من
دونهم ، وعقبتي في الحب والحناء ، وإيماني بالله وضاه الخير
في الأرض .

ماذا تقترحين عليّ يا ماجدولين ، وأية ذخيرة من ذخائر
الأرض أوكثر من كنوز السماء تحبين أن أضعه بين يديك ؟ أنزبدن
فصراً من المرمر الأبيض ، أم صهريجاً مملوئاً بالثلوج الرطب ،
أم بساطاً مصوغاً من الجوهر ، أم حلة منسوجة من أشعة الشمس ،
أم تاجاً مرصعاً تتفاضل بين يديه تيجان الملوك والأقيال ؟ لقد
أصبح ذلك كله لك ، وليس بينك وبينه إن أردته إلا أن تعيدي
لي قلبي الأمل التي سلبتني فأصبح أقوى الناس جميعاً وأقدرهم
على امتلاك ناصبة الكون بأجمعه ، أرضه وسماؤه .

آه ما كان أشد سروري وفرحي يوم أعددت لك ذلك البيت

الصغير في «جوتنج»، وببيتك فيه تلك الغرفة الزرقاء الجميلة
 ووضعت فيها ذلك السرير، كنت أرجو أن يكون اللوحة القبيحة
 التي أنعم بك في ظلها، وأنشأت تلك الحديقة البديعة التي لم أذع
 زهرة تحببها أو يحبها أبوك إلا غرسها فيها، وكنت كلما دخلت
 ذلك المنزل ووقفت في فناءه لحظة خييل إلي أنه أهل بك، وأن
 صوتك العذب الشجي يرن في أذني، وأن أولادنا يلعبون بين
 أيدينا في حديقته، ويقطفون أزهارها وورودها ويقدمونها هدية
 إلينا، بل كنت أتخيل عندما كنت أدخل غرفة زيتك أنني أراك
 جالسة إلى مراكك فيها تمسطين شريك الأصغر الجميل، وأنتي
 واقفة وراءك أغمس يدي في ذلك الخليج الذهبي الزجاج وأنتلس
 من قبله بعد أخرى.

أما اليوم فقد ذبل كل شيء فيه وضوى، فانقطع الماء عن
 حديقته، وذوت أشجاره وأزهاره وعصفت الريح بنواقضه
 وأبوابه، وكست التراب أرضه وسقوفه فأصبح كالعروس الحسنة
 التي نزلت بها منبتها ليل زفافها.

أصبحت لا تكلمني إلي حرفاً واحداً، ولا تجيبني عن كتاب
 واحد من كتبتي، وما كان ذلك من شأنه قبل اليوم، فاكثرت إلي
 كلمة واحدة قولني فيها ما نشأتين من خير أو شر، فقد وطئت
 نفسي على احتمال كل شيء.

(٦٦)

من استيقظ إلى ماجدولين

لم تكلمي إلي تلك الكلمة التي ضرعت إليك فيها، وعهدتي

بك أنك مشيت قبل اليوم على قدميك بضع ساعات كابدت فيها
 ما كابدت من الأهوال العظام حتى وصلت إلى صندوق البريد
 في قرية بعيدة عن قربتك فبعثت إلي برسالتك، فهل ذهب ذلك
 الماضي بأجمعه ولم يبق في نفسك من أثر واحد؟

لا أستطيع أن أصدق ذلك، فكل ما حولك يذكرني بي
 وبأبائي التي قضيتها معك، فهناك الشمس التي كنا نستقبلها معاً
 طالعة وتودعها غاربة، والقمر الذي كان يشرف علينا من علياء
 سماءه، ويرسل إلينا أشعة الفضة البيضاء فتضئنا غلاتها معاً.
 والمقعد الذي كنا نجلس عليه بين الظل والماء وبذلك في يدي ورأسك
 على صدري، وخطك تحت مناول لثمائي، والبحيرة التي كنا
 نقضي فيها كل يوم ساعة الأصيل سائرين على ضفتها صامتين
 نتحدث قلوبنا بما تمسك عن ألسنتنا، ثم نعود وبودنا أن لو استمر
 بنا المسير أبداً الدهر إلى دار الخلود، والغرفة التي التقينا فيها ليلة
 وبللنا تربتها بدموعنا وأفسنا بين سماها وأرضها بين الوفاء حتى
 الموت.

إني أناديك في اليوم مائة مرة يا ماجدولين صارخاً مستغيثاً
 ياكي متحياً، لا أهدأ ولا أستريح، وأنت لامية عني بذلك الشأن
 الحديدي الذي استحدثته لنفسك، لا تسمعين ندائي، ولا تترين
 لمصابي، وما أعلم أنني أذنبت إليك في حياتي ذنباً واحداً تأخذيني
 به، بل أعلم أنني أقررت جميع الذنوب والآثام من أجلك.

إن كنت مررت مرة في حياتك بامرأة جارية على قبر زوجها
 تتدبه وتكيه أحر بكاء وأشجاء لأنها كانت تحبه حباً جماً، ولأنه
 تركها في ريعان شبابها فقيرة معدمة، وترك لها أطفالاً صغاراً
 لا حول لهم في الحياة ولا قوة، فحزنت لحزنها، وبكيت لبكائها.

أو رأيت في طريقك فتاة فقيرة حائمة على وجهها تبكي وتتحب
وتسأل الغادين والزاحين أن يمنحوها درهماً واحداً يتناع به دواء
لأخيها الصغير المريض الذي لا سند له غيرها ، ولا عائل لها
سواها ، فأويت لها ، وأسعفتها بطلبها .

أو مررت بصفة نهر قرأت امرأة واقفة به تنول وتصيح
وتتصرخ الناس لوحيدها الذي يفرق في النهر أمامها فلا يجد
من يبينها عليه حتى سقط سقطاً لم يطف من بعدها فجن جنونها
واندفعت وراءه يثابها فطواهما البحر معاً في لحظة واحدة ،
فأضطمت نكبتها ، وبكيت مصيرها .

أو سمعت بقصة ذلك الشيخ المسكين الذي دخل عليه الجند
منزله ، وهو جاث بجانب زوجته المحضرة وابنته المريضة ليأخذوه
إلى السجن لأنه كان قد سرق من أجلهما بالأمس رقيقاً يقيم به أودعها
فسأل الجند أن يمهله ساعة واحدة حتى يرى ما يصنع القضاء
بملكه ، فأبوا ذلك عليه فضطمت عليه النازلة فذهبت بعقله ، فعدل
به الجند عن طريق السجن إلى طريق المارستان .

أو سمعت بقصة ذلك الرجل الذي ضل في مفازة مقفرة فاشتد
به العطش وهام على وجهه في كل مكان يطلب الماء فلا يجده حتى
أعياه الجهل ، وعجز عن السير ، ثم لمح على البعد صفحة ماء
تترقرق ، فمازال يزحف على ركبتيه إليها ويحصب الحصى بدمه
المتدفق ، حتى إذا دانها ، ولم يبق بينه وبينها إلا خطوة واحدة
سقط من دونها ميتاً .

أو قرأت قصة تلك المرأة التي رآها الناس في إحدى المجالات
جالسة أمام كوخها ، وفي حجرها كتلة لحم حمراء مختلفة وبين

بليها قدر يتصاعد بخارها فلما دنوا منها هالهم أن رأوا في بدها
سكيناً مخضبة بالدم ، ورأوا قدماً صغيرة بارزة من القدر . فعلموا
أن الجوع قد أقعدا عقلها ، وأن هذه الكتلة الحمراء التي في حجرها
إنما هي رضيعها قد ذبته وأنشأت تقطع أوصاله بمدبنتها وتطبخها
لتأكلها .

إن كنت سمعت بغير هؤلاء المكويين ، وسمعت أبن الملعدين
في السجون وصراخ المرضى في المستشفيات ، وضحك المجانين
في المارستانات قرئت لهم ، وأويت نصابهم ، فاعلمي أنني أشتى
من هؤلاء جميعاً . وأني أول منهم برحمتك وإشفاقك وعطفك
وحسانك .

لم تبق في بقية تحتل أكثر مما احتلت ، وربما لا أستطيع
أن أكتب إليك غير هذا الكتاب فقد بلغ إلي الضعف منتهاه ،
وأظلم بصري فما أكاد أبصر شيئاً . فالوداع يا ماجدولين وداع
الحياة إن كان لا يزال في الأجل بقية ، أو وداع الموت إن كانت
الأخرى .

« انتهت الرسائل »

(٦٧)

من ماجدولين إلى استيفين

لا أكتبك يا سيدي أي بكيت كثيراً عند قراءة رسائل ولكنني
عدت إلى نفسي وقلت إنها زفرة من زفرات اليأس ستظفنها الأيام
كما أظفأت غيرها من زفرات اليأسين ، وربما علمت بعد قليل

من الأيام أن الله قد خارك فيما كان ، وأنه قد أعد لك من حيث لا تحسب حياة أسعد وأهنأ من هذه الحياة التي تنديها وتيكها .

أنت تعلم يا استيفن أنني فتاة فقيرة وأنتك فتى لا مال لك ، أو لا تحملك من المال ما يقوم بشأنك زوجاً ووالداً ، فخير لي ولك أن تفرق وأن يسلك كل منا في حياته الطرية التي يعلم أنها تنتهي به إلى سعادة عيشه وهنائه أحبنا ذلك أم كرهنا ، فتناس كل شيء يا صديقي ، وسافر إلى كوبلانس واستصلح عليك أباك وأهلك ، وتزوج من الفتاة التي اختاروها لك ، وحسبك مني أن أكون صديقتك الوفية لك ما حيت ، ولا تحمل في نفسك ضغينة لصديقتك إدوار فقد علم الله أنه ليس له يد في شيء مما كان وإنما هو رأي وأبنة نفسي ، ولم أشتري فيه إلا عقلي وضميري ، فأنا صاحبة والمأخوذة به إن كنت لا بد أخذاً به أحداً ، والسلام عليك من صديقتك التي ترحو عفوك وغفرالك .

(٦٨)

من استيفن إلى ماجدولين

قد نسيت كل شيء يا ماجدولين ، فاختاري لنفسك في حياتك ما شئت ، وها هي ذي رسالتك عائدة إليك فليس من الرأي بقاؤها عندي بعد اليوم ، وإلى أنجيل صداقتك بالصدر الرحب الذي تغفلت به حيك من قبل . أما القصة فلاني لا أنعم عليك ولا على خطيتك شيئاً ، بل أسأله الله لكما السعادة في حاضركما ومستقبلكما .

(٦٩)

الزفاف

لأدحت الكنيسة بسكان قرية ولقباخ رجالاً ونساء وظلوا جميعاً ينظرون إلى الباب بشوق وتلهف ينتظرون حضور العروسين ، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت المجلات وهي مقبلة فتهفوا جميعاً على أقدامهم واصطفوا صفواً متالية لاستقبال القادمين . ثم دخل إدوار أخذاً بيد ماجدولين وهي لاينة ثوباً أيضاً ناصعاً كأنما قد قد من جرم الزهر وعلى رأسها إكليل من الزهر بتلألأ في شعرها الذهبي الجميل ، ودخل ورأسها الشيخ مولر وسوزان وأبوها وزوجها واشميد ابن عمه ماجدولين وألبرت ابن عم سوزان وكثير من أهله وأهلها فرأى الناس أجمل فتاة رأوها في حياتهم قدعوا لها ولزوجها بالسعادة والهناء . وملأوا أرجاء المعبد هتافاً بهما ونساء عليهما ، ثم مشيا إلى المذبح وركعا بين يدي القسيس على وسادتين من القبطية المزرقة فرجع الناس بركوعها ، وركع استيفن معهم ، وكان قد جاء إلى المعبد قبل حضور الناس واحتباً وراء سارية من سواربه فلم يشعر به أحد ، وظل يقول في ركوعه بصوت ضعيف خافت لا يحس أحد اللهم احرسها بعين عابثك ، وأسبل عليها ستر حمايتك ، وامنحها السعادة والهناء في نفسها وفي عيشها ، واكتب لها في صحيفة حياتها ما كنت أسألك أن تكتب لي في صحيفة حياتي .

ثم بدأ القسيس يتلو صلواته وجمامت الساعة التي يتنطق فيها بكلمة الأخيرة التي لا مرد لها ولا رجعة فيها ، فشر استيفن أن قلبه يتنطق خفقاناً شديداً ويضرب ضرباً يعلو صوته على أصوات

التواقيس فأمسك بكفيه على أحشائه وأغرض عينيه وقبع في أعماق نفسه واستلهم الله الصبر على نيكته ، ثم غشيته غاشية لم يشعر بما كان فيها حتى استفاق بعد ساعة فإذا الكنيسة خالية مفرقة تنتلج الظلمة في أرجائها وتضرب رياح الليل الباردة في نوافذها وكواها ، فزفر زفرة حمرى كادت تتساقط لها أصلاعه وجعل يقول في نفسه : لقد قصي الأمر وخرجت ماجلولين من يدي ، وأصبحت كهي صفرأ من جميع آلامي وآمالي ، فما العمل ؟ وكيف أحيش ؟ وأين أقضي بقية أيام حياتي ؟ وأية غاية بقيت لي في هذا العالم أحميا من أجلها ؟ ثم خرج هائماً على وجهه لا يعلم أي فيج يسلك من فجاج الأرض ، والأرض أصيب في عينيه من كثرة الحمايل ، فإذا هو أمام بيت الشيخ مولر فرأى المدعوين متصرفين من الحلقة زمراً قاتحى بركن مظلم من أركان السور حتى انقطع خلق الأقدام ، وعلم أن المكان قد خلا بأهله ، فرمى البيت بنظرة شذرة ملتفة لو اتصلت شرارة من شرارها بسقف من مقوفه أو كوة من كواه لأنت عليه في لحظة واحدة ، ثم ما لبث أن رأى النور قد انطلقاً في جميع الغرف والقبعان إلا غرفة واحدة ، فعلم أنها غرفة العرس ، فلم يتماثل أن ثار من مكنته ثورة الأسد المهتاج وأخذ يدور حول السور ذهاباً وحبية وهو لا يعلم لم يدور ، وأين ينتهي ؟ حتى وقع نظره على ثغرة مفتوحة فيه فوقف أمامها لحظة ، ثم حدثت نفسه بإقتحامها فرأى حجراً ضخماً معترساً في فجوتها ، فما زال به حتى زحزحه عن مكانه ، ثم أخذ إلى الحديقة غير خائف ولا وجل ولا مبال بما أقدم عليه ، وأخذ سته إلى سلم الدار حتى يبلغ فصعدته يخلص الخطى اختلاصاً حتى وصل إلى باب الغرفة المضيئة فوقف به وأحس أصواتاً من وراءه ، فشر برعدة تتسنى في جميع أعضائه ، وعجل إليه أن قلبه يتحدر في هوة عميقة لا

فرار لها وأخذ يقول في نفسه : إنها الآن له وبين يديه لا يحول دونها حائل ، وكأني به وهو يفسها الآن إلى صدره ويصلنق منه بنفسها ، ويوسعها ثماً وتخيلاً فتصليه من نفسها ما يعطيها من نفسه ، ثم نظر من ثقب الباب فلم ير شيئاً أمامه فوضع أذنه عليه وأصغى إلى حديثهما فرتت في سمعه أصوات الضحكات والقبلات ، وسمعهما تقول له فيما تناجيه به ، أنت حياتي التي لا حياة لي بدونها ، فجن جنونه وحدثه نفسه أن يضرب الباب بقدمه صرقة هائلة تغير به ثم يفتحهما عليهما فيقتلها ويضرب سرير العرس بدمهما ، ثم يقتل نفسه على أثرهما ، واستصر قوته على ذلك فخذلته ، فوقف بين الإقدام والأحجام يغلي دمه في عروقه غليان الماء في مرجله ، ويمزق صدره بأظافره تمزيقاً شديداً ، حتى استألم قميصه دماً ، وثائرت أظلال جلده بين أصابعه ، وهو لا يشعر بالأم ، بل لا يعلم أنه يصنع من ذلك شيئاً حتى أعياء الجهد ، فزلت به قدمه فانقلب إلى أسفل السلم ، وهو بين الحياة والموت :

ولم يزل في سقطته تلك حتى استيقظت الخادم وجفباب ، مبكرة قبل أن يستيقظ أحد من أهل البيت وضيغانه فرأته صريعاً في مكانه ، فراغها أمره ، وأدهشها وجوده في هذا المكان ، ثم رأت الدم العالق بلبوسه وأظافره فظنت قتيلاً فحاولت أن تصيح فحانها صوتها ، فأكبت عليه لتعلم ما شأنه فأحست رجيع أنفاسه ، فهذأت قليلاً ، وعلمت أنه في غشية جديدة فأشفقت عليه ، وكأنت تحبه وتكرمه ، ولم ترل تتضح جبينه بالأمه وتمسح صدره حتى استفاق فدار بينيه حول نفسه فلذكر ما كان ورأى جفباب بين يديه فاحمر وجهه تحجلاً وسألها هل عرف شأنه أحد غيرها ؟ قالت لا ، فاعترف لها بمجمل قصته ، وناشدتها الله والمردة أن تكتم عليه ما كان ، فوعدهت بذلك فقام يتعامل على نفسه حتى

خرج من المنزل ومضى في طريق قريبه .

(٧٠)

المهديان

قالت جوزفين زوج فرتر للطبيب . وكانت تتولى تمريض
استيفن : لقد أصبحت أخشى على الرجل أن يصيبه شر عظيم ،
وأخاف ما أخاف عليه أن تنزل بعقله نازلة من توازل الجنون ،
فقد أصبح لا يتعلق إلا باسم تلك المرأة ، ولا يشكر إلا فيها ،
ولا يرى في يقظته أو في منامه غيرها ، فيختليها نازة مقبلة عليه
فيتمس لها ويتهلل وينتج ذراعيه لاستقبالها ، وأخرى متصرفة
عنه فيصرع إليها ويهتف باسمها هتافاً عالياً ويحاول التهوس من
فراشه لإدراكها والتشبث بها فهو إما ضاحك أو باك أو هائف
أو ضارع أو مسترحم . ولئن دامت له حالته هذه بضعة أيام
أخرى ذهبت التكة بعقله أو بجيانه ، وما أحسب أن شيئاً غير
ظفروه بتلك المرأة أو اتصاله بها يشفي من داءه ، فقال الطبيب :
لقد خاطرت اليوم بأخر ما في كتابتي من الأسهم ، فسأفرت إلى
قرية ولقياخ وقابلت ماجبولين على غير سابق معرفة في بها ووصفت
لها حالة المريض في جنونه واستهتاره بها ، وقيامه وعوده بأمرها
ليه ونهاره ، رسألتها أن تزوره ورورة واحدة عسى أن تنقعه
وترفه من بعض ما به ، فأبى زوجها عليها ذلك إياه شديداً ،
فلم أزل به أسترحمه وأستعطفه وأشدده الله والمرومة حتى أذعن
بمد لأبي ، واشترط أن يصحبها في زيارتها فقبلت ذلك منه على
مضض ، وقد تركتهما الآن يتهيآن للحضور على أترى .

ثم مشى إلى المريض وجس نبضه وأمر يده على رأسه وقال :
يا للعجب ! لقد قصدته ليلة أمس مرتين في ساعة واحدة فما أجدي
ذلك عليه شيئاً ، ثم جلس بجانبه ينضح جبينه بالماء ويمرعه بنضح
قطرات من الدواء .

وإنه لكذلك إذ قرع الباب قرعاً خفيفاً ففتح فدخلت ماجبولين
وبرامها إيدوار ، فلم يشعر استيفن بهما عند دخولهما ، ثم فتح
عينيه بعد قليل ونظر إلى جوزفين وقال لها : أين ليأبي التي أمرتك
بإحضارها ؟ أما تعلمين أن اليوم يوم الأحد ، وهو موعد ذهابي
إلى الكنيسة للاحتفال بعقد زواجي ؟ فأطرفت المرأة واجمة ،
وأدارت ماجبولين وجهها حتى لا يرى أحد اصفرارها . فتقدم
نحوها الطبيب وسألها أن تلتو منه وتناديه باسمه لعله يعرفها ،
فدلت من سريره ووقفت أمام وجهه ، فنظر إليها نظرة ذاهلة ،
ثم أدار رأسه وأغمض عينيه ، فعلمت أنه لم يعرفها فنادته باسمه
بذلك الصوت الرجم العذب الذي طالما سمعه من قبل فملكك عليه
مداركه ومشاعره ، فكان موجة كهربائية اندفعت في جسمه دفعة
واحدة ، فانتفض من مكانه وفتح عينيه ونهاض متكأ على إحدى
يديه ، وحل يضرب يديه على جبهته كأنما يستحيي في ذمته ذكرى
قديمة طال عليها العهد ، ويدير رأسه بمنة وبسرة ويقب نظره في
وجوه المجالسين حتى وقع على ماجبولين ، فأخذ يمدق في وجهها
تحديقاً شديداً ، ثم ابتسم ومد يده نحوها وقال لها : شكراً لك يا
ماجبولين فقد جشمت نفسك مشقة المحي . إليّ ، وقد كنت على
وشك أن أذهب إليك الساعة لولا أن النوم طرقتني فظنيت عسى
أمري ، فلهي بنا الآن فقد حان الوقت ، وما أحسب إلا أن
أصدقهما ينتظرونا الآن في الكنيسة ، وكانني أراهم ، وقد جلسوا
في دعليزها صغوقاً مثالية ينتظرون إلى الباب بشوق وتلهف يترقبون

حضورنا ، وأرى القيس يد لنا وسادتين من القطيفة المُرَكَّشة
لترجع عليهما أمام المذبح ، وكانني أنس رائحة البخور متصاعدة
من الوقد ، وأسمع أصوات التواقيس تفرح فرحاً متتابعاً ، ثم
صعد نظره فيها وصوبه وقال لها : ما أجملك يا ماجدولين ،
وما أجمل هذا الثوب الأبيض الذي ترتديه ، إنك لا يتفصك
الآن غير إكليل الزهر . ثم مد يده إلى أزهار كانت يجاميه فأخذ
يضفر منها إكليلاً جميلاً ويتأنق في تسيقه وتنظيمه ، ثم نظر
إلى الطيب ، وقد خيل إليه أنه الشيخ مور فقال : انظري يا أبتاه
أن أضع هذا الإكليل على رأس ابنتك ، فظفر الطيب إلى ماجدولين
نظرة استعطف بسلما فيها أن ترحمه ، وألا تنص عليه هناك
الذي يتخيله ، فوضع استغين الإكليل على رأسها ، وهي واجمة
صفراء كأنما قد انقضت من كفن وقال لها : أتذكرين يا ماجدولين
يوم وضعت على رأسك منذ عامين في ساعة من ساعات أسنا
ولمونا إكليلاً مثل هذا الإكليل تضفاه لنا بذلك غيراً وقلنا : ليس
بكبير على الأيام أن يصبح جناً ما لمونا به ، وحققة ما حسباه
خيالاً ؟ فما قد صدق اليوم فأنا ، وصحت آمالنا وأحلامنا ،
فالحمد لله على ذلك وله الشكر على آلائه ونعماته .

ثم نظرت إلى جوزفين وقال لها : إنني أشعر بضيق في صدري
لا أعلم له سبباً فالتفتي هذه النافذة لأستنشق هواء هذا الصباح
الجميل ، ففتحت ، فأخذ يقلب وجهه في السماء ويقول : ها هي
ذي الطيعة تهدي إيتنا في يوم عرسنا أجمل ذخائرنا وأحلامها ،
وهراءها اللليل ، وشمسها الساطعة ، وسماءها الصافية الجميلة ،
فشكراً لها على يدها عندنا ، وشكراً للدهر الذي أنالني أسنيتي
وأظفرتني بها بعد أن كنت على وشك اليأس منها ، ثم التفت فوقع
نظره على إدوار فهش له وابتم في وجهه وقال له : شكراً لك

يا صديقي ، ما أحسب إلا أنك الذي أشرت على ماجدولين بزيارتي
في منزلي ولولاك لخال بينها وبين ذلك الحياء الذي لا يفارحها في
جميع أيام حياتها ، فامدد إليّ يديك وكن أول من يهتني بسعادتي
من بين أصدقائي فأنت أكرمهم عليّ جميعاً ، وأكثرهم عندي ،
أتذكر يا إدوار أيام كنا نعيش في هذه الغرفة الصغيرة التي نحن
فيها الآن عيش البؤس والشقاء ، وكنا نتساقى من الورد كتسواً
تسبنا حلاوتها مرارة الحياة وآلامها ، وكنت لا أجلس إليك
مجلساً إلا قصصت عليك فيه شأني مع ماجدولين ، وأبتك وجدي
بها ، ورجائي فيها ، وقلت لك كلما رأيتك تنظر إليّ نظرات
الغزة والسخرية : إنها قد أنصت لي يميناً محرجة ألا يفرك بيني
وبينها إلا الموت . وإنها لن تحبس بعدها أبداً . وإن هذه السحابة
السوداء التي تراها متلبدة في سماء حياتي لا تستطيع أن تبت طويلاً
على أشعة الحب الحارة المتدفقة ، والحب إله قادر لا يميزه شأن
في هذا العالم ، ولا يثبت على قدرتها شيء ؟ فما أنت ترى أنني
لم أكن كاذباً في تصوراتي وأحلامي ، وأن آمالي وآمالي لم تكن
كما كنت نظنها خيالات شاعر ، ولا هواجس مجنون .

ثم تناول يد ماجدولين وأهوى بضعه إليها ليقبلها فلمع أمام
عينيه شعاع خاطف من أشعة الخاتم اللامع الذي يتألق في أصمها
فاضطرب ومر بخاطره مرور البرق منظر ذلك الخاتم بينه يوم
رآه في يدها للمرة الأولى ، وهي واقفة بجانب إدوار في حديقة
منزلها فرائحت يده وامتقع لونه وانطلق ذلك الشعاع الذي كان
يلمع في عينيه وارفض جبهه عرفاً وأخذ صوابه يعود إليه شيئاً
فشيئاً ، فظل يقول بصوت خافت متهدج : لا ... لا ... لا حتى
لي في تقبيل يدها ، لأنها ليست لي ولا شأن لي عندنا ، ثم تناول
خطاه فأسبله على رأسه وأخذ يبكي بكاء شديداً ، ويقول للطيب :

ليخرجوا عنى جميعاً فلا شأن لهم عندي ، ولا شأن لي عندهم .
فاغرورقت عينا ماجدولين بالدموع ومدت يدها إليه كالقارعة
وهمت بالركوع بجانب سريرها فجذبها إيدوار جذباً شديداً فتبعته
متتالفة ، خطوة والخطوة ، وهي تتول بينها وبين نفسها ، وارجحتاه
لك أيها البائس المسكين .

وما انقضى النهار حتى ترك إيدوار قرية « ولقباخ » ، وسافر
بزوجته إلى « كويلانس » .

(٧١)

البأس

لبث استيقظ في سرير مرضه شهرين كاملين كابده فيهما من
آلام النفس والجسم ما قدر له أن يكابده ، ثم أبلى قليلاً فهجر
فراشه وأخذ يهيم على وجهه ليله ونهاره ، بنام حيث يجد مضجعا
ليلاً أو نهاراً ، ويأكل حيث يجد لقمة ، يمشى أو سواداً ، لا
يسطر بمكان ، ولا يأوي إلى ظل ، ولا يتعهد جسده أو ثوبه بما
يصلح شأنهما ، واستبد به الحزن فدق جسده ، وطارحت عيناه ،
واسترسل شعر رأسه ولحيته ، وآصت نظرة وجهه شحوباً ، وحمرة
خديبه اصفراراً ، وأصبح آية السابطين ، وعبرة القادين والرائحين .

وكان لا يمر بكوخ صديقه « فرتر » ، إلا انفاقاً ، فإذا مر به
خرج الرجل إليه وزوجه وأولاده وتعلقوا به وناشدوه الله والمودة
أن يدخل معهم كوخهم ، فيدخل فلا يلبث إلا ساعة أو بعض
ساعة حتى يدركه الملل فيثور ثورة الوحش المحتاج ويهر من بينهم

واكفاً وقد عاد إلى شأنه الأول .

وكثيراً ما كان يمر في تطوافه بمنزله الصغير الذي بناه في
« جونتج » ، وبني فيه صروح آماله الذاهبة وآماله الضائعة فيصرف
وجهه عنه ولا يطبق النظر إليه ، وربما انكفاً راجعاً حين يلحق
أول شرفة من شرقاته حتى لا يمر به ، ولا يقع نظره عليه .

وكان إذا ركب رأس طريق منى فيه قلعماً لا يقف ولا ينزيت
ولا ينظر يمنة ولا يسرة حتى يعترضه نهر أو جدار أو يرى بين
يديه مجتمعاً من الناس فيستيقظ من ذعوله ويعود أدراجه .

ولقد استمر به المسير يوماً في بعض خلواته حتى وصل في
منتصف النهار إلى « كويلانس » فأخذ يهيم في شوارعها وطرقاتها ،
والناس ينظرون إليه وإلى منظره الغريب وشعره المشعث التاتر
ونظراته الحائرة المتبددة ويعجبون لأمره .

وإنه لكل ذلك إذ مرت على القرب من عجلة فسمع فيها ضحكاً
عالياً خيل إليه أنه يعرف نغمته فالتفت فإذا ماجدولين وإيدوار
فصعق في مكانه وتراجع إلى جدار كان وراءه فاستند به إليه وهو
يقول : « ما أسعدتهما وأهنا عيشهما ، إنهما يتبان سعادتهما على
أنقاض لقتاني » ، ثم ذهل عن نفسه وظل في ذعوله ساعة فلم يستطع
حتى رأى حلقة من الناس محيطة به ورأى قوماً يتصاحكون ويتغامزون
ويشربون إليه إشارات المزه والسخرية فرماهم بنظرة شرراء
رجعت لها قلوبهم وخطا خطوة واسعة إلى الأمام فهالهم منظره
وتفرجوا له عن طريقه ، فسار في سبيله لا يلوي على شيء مما
وراءه حتى بلغ ضاحية المدينة فرأى نهراً جارياً على رأس مزرعة
خضراء فجلس على ضفته يؤامر نفسه على الموت ويقول :

لقد كذب الذين قالوا إن الانتحار ضعف وجبن ، وما الضعف ولا الجبن إلا الرضا بحياة كلها آلام وأسقام فراراً من ساعة شدة مهما كابد المرء من الفصص والأوجاع فهي ذاهبة ولا رجعة لها بعد ذلك .

وهل يوجد في باب الجهالات أقيح من جهالة الرجل الذي يفضل حياة يموت فيها مائة مرة على موتة سريعة عجل نريجه من هذه الميتات المقطعة المتداولة ؟

إني لا أدري لم يضح الرجل بثوبه فيزعه ، ويسج في نظره منزله فيهجره ويترجم بصاحبه فيفارقه ، ويقتل على ظهره حمله فيلقى به ، فإذا ضاقت به حياته لا يتعلمها ، ولا يحدث نفسه بالخلاص منها ، والحياة إذا بوست كانت ألم للتس وأثقل موؤنة عليها من ثوب ضيق ، أو حمل ثقل .

إننا لا نخاف الانتحار إلا لأننا نحب الحياة ، ولا نحبها على ما هي حافلة به من الكوارث والحن إلا لأننا جهلاء أضياء ، نطمع في غير مطعم ونرجو ما لا يمكن أن يكون ، فمثلنا في ذلك كمثل لاعب القمار يزداد طمعاً في الربح كلما ازداد خساراً ، فلا يزال يخسر ، ولا يزال يطمع ، حتى تصفر يده من كل شيء .

إننا لم نأت إلى هذا العالم باختيارنا ، فلم لا نخرج منه متى شئنا ؟ وإننا لم نكتب على أنفسنا عهداً بين يدي أحد أن نبقى فيه بقاء الدهر ، فلا يسمى سبباً في الخلاص منه خيانة وغلوراً ، أو كتراناً بضعه الله وإحسانه ؟

إنها حقوة هفاها شيشرون الروماني في ذلك العهد القديم حينما

قال : « إن كان لصاحب الرابية في الحرب حق في إلقاتها على عاتقه كان للإنسان حق في قتل نفسه ، وجاراه المجتمع الإنساني كله على عقوته هذه حتى اليوم دون أن يخاطر على بال فرد من أفرادها أن يقول له : إن لصاحب الرابية الحق كل الحق في إلقاتها عن عاتقه إذا ثقل حملها عليه .

أصعب من ذلك أنهم لا يذكرون الانتحار إلا ذكروا اسم الله بجانبه واقتوا في تصوير غضبه ونقته على المستحرين ، والله أعدل وأرحم من أن يتل عبداً من عباده بيلة لا تطيب له معها الحياة ، ثم يأبى عليه إلا أن يربط يمانها مدى الدهر ، ولا ينتهي نفسه طريقاً إلى الخلاص منها .

وكذلك صحت عزمته على الانتحار ، وأخذ يفكر في الصورة التي يفارق فيها الحياة عليها فلم يزل يقلب وجوه الرأي في ذلك حتى اعتدى إلى صورة أصعب خيالها الشعري ، وهي أن يكتب كتاباً إلى ماجدولين يبينها فيه آلامه وأحزانه ويحدثها عن عزمه على الانتحار وعن المكان الذي سيلقي نفسه فيه من النهار ثم يترج من أصعبه خاتمه اللسوج من شعرها وبضمه على قمه ويضع يده عليه ويقله بلهفة شديدة ثم يلقى بنفسه في الماء على هذه الحالة ، فإذا أتت ماجدولين وأخرجته من النهار ورأت هذه الصورة المحزنة التي مات عليها أثر في نفسها إخلاصه ووفاءه ، وأسفت على نفسه أسفاً عظيماً ، ولم يفضها الدم على فعلتها معه ، فلا يزال تذكره طول حياتها وتندب مصرعه ومضيره حتى تلتحق به .

وهنا رنت في أذنه تلك الضحكة العالية التي سمعها منذ ساعة وهي راكبة عجلتها مع زوجها ، فطار ذلك الخيال من رأسه

واضح في مسراه اضمحلال الأبرهة الداهية في آفاق السماء ،
وعادت له أناته ورويته وقال في نفسه إن من كان مثلها في حياتها
وغنرها ، وصلابة قلبها وقسوته ، لا يبالي ما أقدم عليه من شئونه ،
فربما ورد عليها كتابي فأخفته ثم سمعت بخبر موتي ففتشت تنفس
الرحمة والدعة واغتبطت بينها وبين نفسها بانفشاع تلك النعمة
السوداء التي كانت تغشى سماء حياتها ، وأعجبها أنها قد أصبحت
آمنة مدى الدهر من أن يذكرها مذكر حياتها ، أو يرأى لها
في مسلك من مسالكها شبح تلك الحياة التي أقرقتها .

ثم أن أنة مؤلمة وقال : «ويل لي من يأس مسكين ! لقد
استحال عليّ كل شيء حتى الموت» .

(٧٢)

السعادة

قال فرتر لاستيفن وقد ركب معه في زورقه ساعة الأصيل
فسار بهما يشق عباب الماء شقاً : ربه عليك قلباً يا سيدي فذلك
أمر قد فات واستبد به من قدر له ، وليس لي في فائت حيلة ولا
لما قضى الله مرد ، ولو شئت أن أقول لك لقلت : إنه غير جميل
بك في فضلك وأدبك ، ووفور عقلك واكتماله ، وعزة نفسك
وأقتها أن تحبس حياتك كلها على امرأة قد علمت ألا خير لك
فيها ، وأنها قد خانتك وخذلك ، وبلغت بك في الشقاء المبالغ
التي لم يبلغها أحد وملعت قلبك تلك الطمة الجللاء التي لا يثل
منها جريحاً إلا بمعونة من رحمة الله وإحسانه وإيها - وأنت تشقى
الشقاء كله في سبيلها - تقضي ساعات ليها ونهارها بين ذراعي

زوجها هائلة منقطعة ، غير حافلة بك ولا آسفة عليك ، ولا ذاكرة
لك ذمة ولا عهداً ، فأين شرك وإياك ؟ وأين عزة نفسك وأقتها ؟
وأين ترفعت الذي أمره لك ويعرفه لك الناس جميعاً عن مواطن
المهانة والضعفة ؟ الحق أقول إنني لا أعرف سهماً أنيب من سهمك ،
ولا رأياً أضعف من رأيك ، ولا حياة أضيع من حياتك .

لقد ملئتك هذه المرأة يا سيدي زهرة حمرك ، فحسبك ذلك
واستبق لنفسك ما بقي منه ، وتحتج فيه بما أعد الله لك في هذه
الحياة من اللذات ومنع لا تنفذ ولا تبلى ، وأطلب السعادة إن أردتها
بين أحضان الطبيعة وأعطائها ، وفي كل ما يجعل بساط الأرض
وتظلل قبة السماء ، فالطبيعة أم حنون تضم بين ذراعيها أولادها
اليوساء المحزونين فتسح همومهم عن صدورهم ، ودموعهم عن
مآقيهم ، وتغزل قلوبهم شبيطة وهناء .

أطلب السعادة في الحقول والغابات والسهول والجبال ،
والأغراس والأشجار والأوراق والأثمار ، والبحيرات والأنهار ،
وفي منظر الشمس طالعة وغاربة والسحب مجتمعة ومطرقة ، والطيور
غادية ورائحة ، والنجوم ثابتة وسارية ، واطلبها في تعهد حديقتك
وتخطيط جداولها ، وغرس أغراسها ، وتشتيب أشجارها ، وتنسيق
أزهارها ، وفي وقوفك على ضفاف الأنهار ، وصعودك إلى قمم
الجبال ، وانحدارك إلى بطون الأودية والوهاد ، وفي إسفائك
في سكون الليل وهدوئه إلى خبر المياه ، وصغير الرياح ، وحفيف
الأوراق ، وصرير الجناب ، وتقيق الضفادع ، واطلبها في مودة
الإخوان وصدقة الأصدقاء ، وإسداء المروف وتفريج كرب
المكروب ، والأخذ بيد البائس المنكوب ، ففي كل منظر من
هذه المناظر ، أو موقف من هذه المواقف ، جمال شريف طاهر

يستوقف النظر ، ويستلهي الفكر ويستغرق الشعور ، ويحيي ميت
الفس والوجدان ، ويملا فضاء الحياة هنا وورعاً .

إنكم تأبون يا أهل المدن إلا أن تشعروا سعادة الحياة بمتاعكم
وأرواحكم والسعادة حاضرة بين أيديكم لا تمنعها ولا قيمة ،
ولكنكم تجهلون وتعرضون عنها وتفتنون ألا وجود لها إلا في
أحضان النساء ، وبين أشتارهن وأرائكهن فتبدلون في سبيلها
من دموعكم وآلامكم ، ما لا قبل لكم باحتماله ، فلا تلبثون
أن تذبل حياتكم ، وتفرض أجسامكم ، وتنطفئ جذوة نفوسكم
قبل أوانها ، فتموتوا أصبح ميتة وأحسرها ، لا أملاً أفدتم ولا
حياة حفظتم .

إنما يشقى في هذا العالم أحد ثلاثة : حاسد يتأمل لمنظر النعم التي
يسخها الله على عباده ، ونعم الله لا تفد ولا تفي ، وطماع لا
يستريح إلى غاية من الغايات حتى تنبث نفسه وراء غاية غيرها
فلا تفي مطامعه ، ولا تنتهي متاعه ، ومقترف جريمة من جرائم
العرض والشرف لا يقارقه خيالها حينما حل وأبنا سار ، وما
أنت يا سيدي بواحد من هؤلاء ، فمن أي باب من الأبواب
يسرب الشقاء إلى قلبك ؟ .

أنت شاعر يا مولاي ، وقلب الشاعر مرآة تراهي فيها صور
الكائنات صغبرها وكبيرها ، دقيقها وجليلها ، فإن أعوزتلك تلك
السعادة فنش عنها في أعماق قلبك ، فذلك الصورة الصغرى
لعالم الأكبر وما فيه .

السماء جميلة ، والشعر هو الذي يستطيع أن يدرك سر جمالها ،
ويشرق بنظراته أديمها الأزرق الصافي فيرى في ذلك العالم العلوي

الثاني ما لا تراه عين ، ولا يمتد إليه نظر .

والبحر عظيم ، والشاعر هو الذي يشعر بعظمته وجلاله ،
ويرى في صفحة الرجاجة صور الأمم التي طواها ، واللدن
التي محاما ، والدول التي أبادها ، وهو باق على صورته لا يتغير ،
ولا يتبدل . ولا يبلى على العصور والأيام .

واقبل موحش ، والشاعر هو الذي يسمع في سكونه وهذونه
أنين الباكين وزفرات المتألمين ، وأصوات الدعاء المتصاعدة إلى
آفاق السماء ويرى صور الأحلام الطائفة بمضاجع الثائمين ،
وغياالات السعادة والشقاء الخائفة في رؤى المجنودين والمحلودين .

والشاعر يرى الجمال في كل شيء . يتأوله سمعه وبصره حتى
في الزهرة القابلة والنبية الخائفة ، والنحلة الطائرة ، والقراشة
الخائفة ، وفي مدارج النعال ، وأفاحيس القفا ، والنوى المهتمد ،
والحدث البالي ، والشبح المحيف ، والخيال الرائع ، وفي الضفدعة
الملقاة على شاطئ البحر ، والذودة الممتدة في باطن الصخر ،
فهو من خياله الواسع في نعمة دائمة لا تفد ولا تبلى .

أنت كالعطار السجين في قفصه ، فمزق عن نفسك هذا السجن
الذي يحيط بك ، وطرح بجانبك في أجواء هذا العالم المنبسط الصبح ،
وتنقل ما شئت في جنباته وأكنائه ، واحذف بأغاريدك البهيمية
فوق قسم جباله ، وروؤوس أشجاره ، وضفاف أنهاره ، فأنت
لم تحلق للسجن والقيود ، بل للهناف والغريد .

فأطرق استيقن ساعدا ، ذهبت بها نفسه كل مذهب ، ثم رفع

(١) الجرد . - صاحب إلهي الخط ، والنسود : التروم .

رأسه وقال : إلي أحوال ذلك يا فرتر منذ أيام طوال فلا أستطيعه ، ولو كان لي فيما قضى الله حيلة لسحقت قلبي بقدمي سحفاً ، ثم أسلمت ذرأته إلى الرياح الأربع تذهب بها حيث تشاء ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء قد بليت به لحين قد أريد لي ، على أني أعاهدك منذ الساعة عهداً لا أنجس به إلا نرائي بعد اليوم ذاكراً لها ، ولا باكياً عليها ، أما ما يفسره القلب من نكل ولوعة فأسأل الله أن يعينني عليه ، فقال له فرتر : ذلك كل ما أريده منك ، والله يتولى شأنه ويعينك على بقية أمرك .

(٧٣)

المسود

الحب قطرة حيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فثمر الرحمة والشفقة والبر والمعروف ، وبالتربة الخبيثة فثمر الحقد والغضب والشر والانتقام ، وكان استيفن ، طيب القلب ، طاهر السريرة فاستحالت تلك الآلام التي كانت تتلجج في نفسه إلى وجدان طاهر شريفاً بشر بيوس البائسين فيرثي لهم ، وفجعة المضحجين فيكي عليهم ، ولقد وفي بعهده الذي عاهد عليه صديقه فرتر فأسك عن ذكر ماجدولين والتفكير فيها ، وأخذ نفسه بنسيانها وتسيان ماضيها معه فاستقام له بعض الذي أراد وتراجعت آلام نفسه وأحزانها إلى زاوية منفردة من زوايا قلبه فكسنت فيها فلم يعد يشعر إلا في القينة بعد القينة ، ولا يذكرها إلا كما يذكر الشيفظ حلماً شتياً من أحلامه المرعبة ساعة أو بعض ساعة ، ثم يمضي ليله .

وكان أكبر ما أعانته على هدوئه وسكونه أنه أخذ نفسه بعمل الخير والمعروف فوجد فيه لذة تفوق لذة تلك الآمال والأحلام ، فوَلِعَ به ولماً شديداً ، وأصبح لا يسمع بمحكوب قريب منه أو تاء عنه إلا ذهب إليه وأعانته على نكته جهد استطاعته ، ولا يطرق عليه باب في دحي الليل أو ضحوة النهار طارق حاجة من الحاجات إلا أخذ يده فيها واحتلمها في نفسه أو في ماله ، واتخذ أسرة صديقه فرتر أسرة له فعالمها ، ووساها وخلط نفسه بها ، وأصبح أتماً لكبيرها ، ووالداً لصغيرها ، ووجد في نفسه من الأتس بها والاعتباط بعشرتها ما كان يتعنى لنفسه طول حياته أن يكون له بين زوجته وأولاده ، وعاد إلى منه القديم ، فن الموسيقى ، وكانت قد شغلت عن تلك الشؤون الماضية ، فتمهده بنفسه واستحياه واستجد جميع آلامه وأدواته ، فكان إذا جن الليل وغلا بنفسه قام إلى قيثارته فغلب بأوتارها أو جلس إلى البيانوفوق عليه بعض الألمان القديمة الحديثة توقيماً يجيد فيه إجادة لا عهد له بمثلها من قبل ، فقد صقلت تلك الآلام الماضية التي كابدتها في حياته صفحة نفسه وأتارتها وملأتها شعوراً ووجداناً وسمت بها إلى سماء فوق سمائها الأولى ، فتجلت بجلالها وروعتها في نبرات صوته حين يتنغم ، وسرركات أنامله حين يوقع ، وما هي إلا أيام قلائل حتى ارتقى به الأمر إلى منزلة الابتكار ، فوضع ألماناً جديدة عزنة كانت تنضج من ذلك القلب المصنوع تفجر المياه الصافية من صدوع الأحجار ، فتساب في أفئدة البائسين والحزوين ، وتتلغلل في أعماق قلوبهم حتى تبلغ سويدها .

وما كان استيفن عالماً من علماء الموسيقى ، ولا حافظاً من كبار حفاظها ، ولا كان نصيبه من الإلام بقواعدها وأصولها أكثر من نصيب زملائه ولذاته ، ولكنه كان ذا قلب ، والقلب هو

البيوع الشجاع الذي يفجر من الشعر والموسيقى وسائر الفنون
الأدبية ، وليس أشعر الشعراء أحفظهم لقواعد اللغة وقوانينها ،
بل أدفهم شعوراً وألطفهم حساً ، وليس أفضل المنين أعلمهم
بفنون النغم ، وضروب الإيقاع ، بل أنطقهم قلباً وأفصحهم
قوفاً ، وما ملك نواحي المثلين أفئدة الناس وقلوبهم في مواقف
تمثيلهم ، ولا استندوا دعوم الباكين من محابرها إلا لأن لهم
لدياً حزينة مضجعة تآثر بصور الوقائع التي يمثلونها ، فإذا بكوا
صدفوا في بكائهم وإذا فجعوا فجعوا بقلوبهم ، ولا يفهم لغة
القلب غير القلب ، ولا يشعر بسر النفس غير النفس ، ورب
أنه بسيطة ساذجة يسعها السامع في جوف القيل من تاكل مكتوب
تأخذ من نفسه ما لا تأخذ قطعة شعرية بليغة مملوءة بترائب المعاني
وبدائع التصورات ، ينظمها شاعر غير باك ويقتنها ممن غير
محزون ، وما قواعد الشعر والموسيقى والرسم والتصوير إلا حدود
يقفي بها المقلدون المحتنون الوغرى في الخطأ الفني ، أما الملهمون
فما أغناهم برقة وجدانهم ، ولطف حسهم وصفاء قلوبهم ،
وسلامة طباعهم ، عن التمثل والاحتذاء .

(٧٤)

من ماجدولين إلى سوزان

كنت أرجو أن تطول عشترا في «كوبلانس» أكثر مما
طالت ، وألا يفرق بيني وبينك إلا الموت ، ولكن هكذا أراد
زوجك أن يطوي بك هذه المرحلة المبعدة ، وأن يجرمني أمر
صديقة كنت لا أجد لذة البش إلا بجوارها ، ولا أستطيع طعم

الحياة إلا معها ، ولعلك هانئة في موطنك الجديد كما كنت هانئة
في «كوبلانس» .

أنا سعيدة والحمد لله ، لا أشكو شيئاً غير قرارك ، وحرمانني
ورؤيتك ، وإدوار لا يزال يجيني وينزل عند رغباتي ويفقد جميع
مرافقي وحاجاتي فله الشكر على ذلك .

لا أكتفك يا سوزان أنني كنت أشعر في نفسي بعض الحزن
على ذلك الفن المسكين الذي لقي في سبيل الشفاء العظيم الذي
تعلمته ، ولقد سررت اليوم سروراً عظيماً حينما علمت من
أخباره أنه قد نسي ذلك الماضي جسده خبره وشعره ، وأنه قد
عاد إلى رشده وصوابه ونزع عن تلك التصورات الغريبة والحالات
السوداء التي كانت تخالط عقله ، وتذهب براحة وسكونه ،
وأصبح يأنس بالناس ويشعر بلذة المخاطبة والاجتماع ويحس
في بيته الذي بناه في «جوتنج» عيشاً هادئاً ساكناً لا يمازجه
حزن ولا كبر ، بل سمعت عنه ما هو أكثر من ذلك ، وهو
أنه يشغل الفن الموسيقي اشتغاله يستغرق جميع مشاعره وحوافقه ،
وأنه قد برع فيه براعة غريبة لا يبلغ مبلغه فيها إلا القليل من
الناس ، ويقول الذين حدثوني حديثه إن شأنه في ذلك الفن سيكون
شأناً عظيماً ، وربما بلغ فيه بعد قليل من الأعوام مبلغ النابيين
من تلاميذه وألفاده ، فحمدت الله على ذلك حمداً كثيراً ، لأنني
كنت أشعر في أحمق نفسي بالحزن عليه والرتاء له ، بل التفتة
على الدهر من أجله ، وكان يميل إلي أنه لو مات في سبيله هذه
لتنصص على عيشي ، ولتقصبت بقية أيام حياتي محزونة النفس ،
موحنة القلب حتى يوانيني أجلي .

اكتفي إلي كثيراً يا سوزان ، وحدثيني عن كل ما يحيط بك

من الأعياء ، فذلك ما يزييني عن فرائك بعض الزاء .

(٧٥)

من ماجلولين إلى سوزان

أنبي إليك مع الأسف والذي فقد مات رحمة الله عليه بعد
مرض لازمه خمسة أشهر ، وكنت قائمة بتبريفه كل هذه اللذة
في «ولفياخ» حتى مضى لرحمة ربه ، ولم أعد إلى «كوبلانس»
إلا منذ أيام قلائل وهذا ما حال بيني وبين الرد على كتابك التي
أرسلتها إليّ فسامعني في تقصيري وإبكي معي ذلك الأب الغير
الرحيم الذي أحبني في حياته فوق ما يجب الآباء أبنائهم ومات
وهو لا بأسف على فقد شيء في الدنيا سواي ، ولقد كنت أسع
قبل اليوم أن الفتاة لتأكل لا تكي أباه وهي متزوجة ، كما
تكيه وهي عذراء ، فأرتاب في ذلك ارتياباً كثيراً ، حتى مات
أبي فيكته بكاه لا تكيه متزوجة ولا عذراء ، لرحمة الله عليه
وعلى أيامه القدر الحسان ، وعلى نفسه الطيبة الطاهرة .

ولقد عزاني عن فقدك بعض الزاء أن كثيراً من صواحي
وأصحاب زوجي كتبوا إليّ كتب تملأ رقيقة حملت عن نفسي
بعض همومها وأشجانها ، والذي عجبت له كل العجب وملاً
نفسى دهشة وحيرة ألي وجدت بين تلك الكتب كتاباً من استيفن
أرسله إليّ من «جوتنج» يزييني فيه أجمل تملأ وأرقها ويضع
فيه على الميت تملأ عظيماً ويخاطبني بتلك اللهجة التي لا يخاطب
بها المرء إلا أكرم أسدقائه عليه ، وأكرم عنده ، فمجت لأمره
كثيراً وقلت في نفسي إن كان الرجل لا يزال يفسر لي في قلبه

حتى اليوم بقية من ذلك الإجلال القديم بعد الذي كان بيني وبينه .
فهو أكرم الناس خلقاً وأشرفهم نفساً وأعلامهم همة ، على أن
الذي سرني في عمله هذا أكثر من كل شيء . أنه قد غفر للملك
الشيخ المسكين تلك الإساءة التي كان يظن أنه أسلفها إليه قمضى
لربه طاهر النفس ، تقى الصحيفة ، لا يعمل بئعة ، ولا يمر
وراءه إنفاً .

ألا تمنجين معي يا سوزان لهذا الإنسان القريب الذي كنا
نصه بالأسف في عقله وتنزل به إلى مرتبة المخالطين المفرورين
الذي لا يصلحون لتأمن من شؤون الحياة ، كيف استحالته حاله
وهذات ثورة نفسه ، وأصبح رجلاً كريماً مهذباً عاملاً مستقيماً
طيب السريرة والنفس ، لا يخذ ولا يسطعن ، ولا يأبى أن
يفخر اللذبة الذي لا يفخره أحد ، وينسى الإساءة التي لا ينساها
إنسان ؟! أهديك يا سوزان تحيّي ، وبلقي فردريك تحيّي وتحية
إبنوار .

(٧٦)

من ماجلولين إلى سوزان

لم تكتبي إليّ يا سوزان منذ ثلاثة أشهر إلا كتاباً واحداً لا
يزيد على خمسة أسطر وهو قليل لا يقنعني منك . فإن لم تكتبي
إليّ لتعزيني وتسرية هموم نفسي أكتبي إليّ لأعلم أنك سعيدة
هائجة في موطنك البلديد .

أشعر يا سوزان منذ مات أبي أنني ضيقة الصدر عائرة النفس ،

شديداً ، ولا يؤثر على رضاك غرضاً من أغراض الحياة وآمالياً ،
وأرى لك أن لا تتفعل بنفسك هنا التمثل كله في مواطن الأشياء
وأعمالها ، ففجو الحياة غير من مجهودها ، والسعادة كالزهرة
لا تزال ناضرة ماقع رائحتها منها بمنظرها وأريجها ، فإذا جاور
إلى لمسها والتبث بها ذبلت وذوت وذهب جمالها ورواؤها وأهدبك
بحبي وسلامي .

(٧٨)

من ماجنولين إلى سوزان

لقد وقع لي منذ أيام أمر غريب لا أجد لي بداً من الإفشاء
به إليك :

دعيت أنا وإدوار منذ أيام فلال إلى حفلة أنس قال صاحبها
حين دعانا إليها إن الذي سيقوم بأدوار الغناء والتوقيع فيها صديق
له من مهرة الموسيقيين وحلقاهم ، فسأناه عن اسمه فأبى إلا
أن يباغتنا به مباغتة ، وقال إنه حديث عهد بذلك الفن وإن هذا
أول عهده بالغناء في المجالس العامة ، وظل يثني عليه ثناء عظيماً ،
ويشعب في تفریطه والإشادة به كل ملعب ، فلم يكن لي هم
عندما ذهبت إلى تلك الحفلة إلا رؤية ذلك الموسيقي الماهر واستماع
أغانيه وألحانه ، فظلت شائعة إلى كرسي البيانو أنتظر ذلك
الذي سيقدّم من بين الحاضرين فيجلس عليه حتى رأيت في
تحيلاً ساهم الوجه تراءى بين أعطاله تحايل العزة والشرف قد
مشى إلى ذلك الكرسي حتى جلس عليه بلباقة وظرف فأملكه
لذا هو «استيقن» وما كلمت أمره لقد انضى من وجهه

ولا أهري ما الذي طرأ على إدوار ، فقد تعير بعض التبرير عما
كان عليه وأصبح لا ينظر إليّ بالعين التي كان ينظر بها إليّ
من قبل ولا أريد أن أقول إنه أبغضني أو تيرم بي أو فتر عن
خديتي والقيام بشأني ، بل أريد أن أقول إنني أصبحت أرى
في عيني قصراً عني وإزوراراً لا عهد لي بهما من قبل وصارت
إبسامته مزيجاً من الجمالة والحب ، وكانت بخالصة للحب قبل
ذلك ، وأصبحت تتخلل أحداثنا فترات طويلة موحشة ما كانت
تخللها قبل اليوم ، وكنت لا أذهب معه في الحديث مذهباً
أستحسن فيه أمراً أو استهجنه إلا ذهب معي فيه ، فأصبح يستهجن
أكثر ما أستحسن ، ويستحسن أكثر ما أستهجن ، كأنما يعتمد
مقابضتي ومخادفتي ، وصار يأنس بالثرثرين والوافدين ويطلب جلوسه
معهم ، ولما كان بينهم بهم أو يهش لقائهم أو يستخفه شيء غير
الجلوس معي والحديث إليّ ، وكنت لا أبسم إلى رجل من
الرجال إبسامة ود أو جمالة أو أتسط مع في حديث إلا وجم
لذلك وجوماً يظهر في عيني وقلبات لسانه ، فأصبح لا يابه لشيء
من ذلك ولا يخفل به ، والتيرة دخان الحب ، فإذا انطفأت
ناره انقطع دخانه .

لا يترك من ذلك شيء يا سوزان ، فربما كنت واهمة أو
متخيلة ، وربما كتبت إليك بعد قليل أنني هائلة سعيدة ، وأن
هذا الوهم لا أثر له في نفسي .

(٧٧)

من سوزان إلى ماجنولين

لاشك أنك واهمة يا ماجنولين ، لأن إدوار يملك حياً

ذلك الإنسان الأشعث الأخير الخشن الأعضاء والملامح ، وحل
عنه إنسان آخر ظريف متأنق هادئ. الحركات حلو الشرائط
بكد يحسبه الناظر إليه للمرة الأولى جبلاً ، وما هو يجميل
ولا مستلح ، ولكنه جمال نفسه قد فاض على جسمه فكساه
ورنقه وبهائه .

ثم بدأ التوقيع فأنشأت أنامله تلعب بأوتار البيانو فكانما كانت
تلعب بأفئدتنا وقلوبنا ، وأخذ ينفي في أثناء توقيعه غناه مشجياً
عزناً خيل إلينا ونحن نسمعه أننا قد انتقلنا من هذا العالم إلى عالم
آخر من عوالم الأرواح ، وأن ما نسمعه ليس صوتاً صاعداً
من علم الأرض بل هابطاً من آفاق السماء حتى أتى على التفتة
الأخيرة فلم يملك السامعون أنفسهم أن هرعوا إليه جميعاً وداروا
به يستوثقون ويقرظونه ويرددون في أحاديثهم أنهم ما سمعوا في
حياتهم توقيعاً أفضل من توقيعه ولا ألحاناً أبديع من ألحانه وهو
يشكر لهم ثناءهم عليه واحترامهم به ويتسم لهم فيما بين ذلك
إتساماً عادلة غريبة ، لا يعلم الناظر إليها أمتكلفتها هي أي هي
إتسامته التي لا تنفج عن غيرها شفتاه ؟ وكيفما كان الأمر فقد
سجل إلى أي رأيت فيها معنى دقيقاً لا أحسب أن أحداً من الناس
أدركه سواي ، وهو أنها مصبوغة بصبغة رقيقة من الحزن العميق .

ولقد كادت تحذني نفسي لكثرة ما نالني من الطرب وغالط
قلبي من الخلل والسرور أن أذهب إليه أعت كما يفعل سائر
الناس ، فلم أستطع حتى أرى رأي إدوار ، فلم أبت أن رأيت
بمضي إليه فبعت حتى هناك فهأنه مثله وكنت أتوقع أن أرى على
وجهه عند رؤيتنا حالة من حالات الغضب أو الارتباك ، فلم
أر إلا رجفة خفيفة مرت بشفتيه عندما نظر إلينا ثم عاد إلى إتسامته

وعظفته وإنشأ بجدتنا يسكون وهلهو كأنما هو يتسم حديثاً كان
يتنا ويته من قبل ، فطلعت أن الرجل قد عا من سجل حياته
تلك الأعرام التي شقى فيها ، وبها معها ذكرى علاقتنا بيومه
وشفتاه ، وأصبح لا يرى بين يديه إلا امرأة قد منحت في عهد
من عهود حياتها الماتية ودعا وإخلاصها وإلا رجلاً قد صادفه
وأخاه وقاسه بيومه وشفتاه في أيام طفولته وصباه ، ثم لا يزيد
على ذلك شيئاً ، فلم ينقض الليل حتى ذهب ما كان بينه وبيننا
من الوحشة والخباء ، وذهبتنا معه في الحديث مذاهب مختلفة
ووعده إدوار أن يزوره في منزله في عهد قريب ، ثم الفرقنا .

(٧٩)

من ماجدولين إلى سوزان

لا أزال يا سوزان غيبقة الصدر ، كثيرة الهم ، ولا يزال
إدوار قريباً مني بعتابه واهتمامه ، يبدأ عني بقلبه وحواطفه ،
فقد ملأ فراغ قلبه بشؤون مختلفة لا أعرفها ولا آبه لشيء منها ،
ولم يترك فيه للحب إلا زاوية صغيرة محدودة لا تتسع ولا تنقبض ،
ولا تجذب الحواطف لنفسها فيها مجالاً ، فهو يجنني حياً هادئاً فأتراً
ربما لا يزيد عن محبة لحيوله وعجلاته ، وقصوره وبساتينه ،
وأحب لو أنه أراد أن يزيد على ذلك شيئاً لما استطاع ، لأن
نفسه ليست تلك النفس الشعرية الثلاثية التي تذهب في الحب
كل ملعب ، وتطير في سماء كل مطار ، ولأنه لا يفهم من
الحب أكثر من ذلك المعنى المادي البسيط الذي يفهمه الحيوان
الأعجم ، بل لا يدرك من شؤون الحياة جميعها غير ما يقع تحت
حواصه ومشاعره .

الوحدة النفسية

لقد صدقت ماجدولين فيما قالت ، فقد ملها إيدوار بعد عامين التين من زواجه منها ويرم بها وانتهى أمره معها بما ينبغي به كل زوج تعده يد الشهوة ، ولقد مل منها أكثر من كل شيء تلك الوحشة التي كانت سائدة على نفسها ، وذلك السكون للمخيم على عواطفها ومشاعرها وذهابها في تصوراتها وكراتها ملعب الخيال الشعري الذي لا يألفه ، ولا يأنس به ، ولا يلتئم مع طبيعة نفسه ومزاجها فلقد كانت نفسه تقساً مادية ضاحكة ونفسها تقساً روحية مكتومة ، وقد تكلف كل منهما الخروج عن طبعه برهة من الزمان لفرض طاريء من أغراض الحياة ، فخرجها عن طبعها تلك اللآلاء الساطع الذي يبر عينها عند انتقالها من القرية إلى المدينة وتلك الفسوخاء الضخيمة التي أحاطت بأذنيها وحالت بينها وبين سماع صوت قلبها ، وأخرجها عن طبعه أنه أحبها والتمن بها ، وكان لا بد له من أن يقع من نفسها ، وينزل عند رغبتها ، فتجمل لها في أحاديثه ومنازحه ، وتصوراته وآرائه ، بما يتجمل به كل رجل لكل امرأة عند خطبتها حتى اتصالاً بصلة الزواج فأخذوا يترجمان شيئاً فشيئاً إلى طبيعتهما وسجيتهما ، ويلهبان في الحياة ملهيهما الذي فطرا عليه ، فتنازرا وتناكرا ، واستوحش كل منهما من صاحبه ، ولقد يكون إيدوار خبير الأزواج لو أنه تزوج امرأة مثل سوزان مادية النفس .

وقد تكون ماجدولين أسعد الزوجات لو أنها تزوجت رجلاً مثل استيفن شعري الطبيعة ، وما عدت سوزان ماجدولين في

والآن أستطيع أن أعترف لك يا صديقي بأنني ما شعرت في يوم من أيام حياتي معه على حبي إياه وإعجابي به بأن نفسي خالطت نفسه ، أو لامستها أو امتزجت بها ذلك الامتزاج الذي يجمل الضمين المحتفظين إلى نفس واحدة ، بل كنت أرى دائماً أنه وإن كان يحبني ويستهم بي ويبدل لي من ذات نفسه وذات يده كل ما يستطيع أن يبدله زوج لزوجته فهو عاجز عن أن يشغل في قلبي نازك الحب الشعري الجميل الذي لا تقع المرأة من الرجل بلونه ولا تأنس منه بشيء سواه ، ونار الحب إن لم يتهدما متهدما بالتأريث والتأجيج فترت وانفطأت واستحالت جلوتها إلى رماد ، والحب كالطائر لا حياة له إلا في الندو والرواح ، والتفريد والتفكير ، فإذا طال سجنه في قفس القلب تضعف وتهاك ، وأحى رأسه يائساً ، ثم قضى .

وأعظم ما أشكو من الموموم في حياتي معه أنني أصبحت أشعر منذ أيام طوال أنني أعيش في عزلة متقطعة عن العالم كله لا أأنس لي فيها ولا مسير ، فإذا مر بخاطري فكر من الأفكار أو احتلج في نفسي غرض من الأغراض ، أو خلق قلبي حقة سرور أو حزن أو ارتياح أو انقباض ، لا أستطيع أن أفصح إليه بشيء من ذلك مخافة ألا يفهمه أو يفهم منه غير ما أريد فيزدريه ويزدريني من أجله ، ويوسخي هزماً وسخرية فلا أجد لي بداً من أن أتكلمه في نفسي ، وأطويه بين أصابعي .

ألا ترى بعد هذا يا سوزان أنني في أشد الحاجة إليك ، وإلى بقائك بجانبني ، لتأخذي بيدي في ظلمات حياتي وتعملني عني بعض همومي وأشجاني : فهل يفتقر لي الله أن أراك بين يدي في عهد قريب ؟

تزين هذا الزواج لها وإفرائها به ، ولا أرادت بها في ذلك سوماً ،
لأنها لم تر لها إلا ما ترى مثله لنفسها ، ولا سلكت بها إلا الطريق
التي سلكت مثلها في حياتها .

والخفة التي يهونها الرجال والنساء جميعاً في مسألة الزواج
أنهم يتسامحون عن كل شيء من جمال أو مال ، أو خلق أو
ذكاء أو علم أو عقل أو حفة أو أدب ويفقدون النظر في ملاك
هذه الأشياء جميعها وزمامها ، وهو الوحدة النفسية بين الزوجين ،
فالنفس نفسان : مادية تقف عند مظاهر الحياة ومرائتها ، وروحية
تنتقل في أعماقها وأطوارها ، وأصحاب النفس الأولى هم أولئك
الجامدون المتبلدون الذين يدورون في الحياة حول محور أنفسهم ،
ولا يفكرون بشيء فيها إلا بما يتصل بمظالمهم أو شهواتهم والذين
إذا شغفوا بشيء شغفوا باعتبار علاقته بأجسامهم لا بنفوسهم ،
وإذا أعجبوا بمنظر من المناظر أعجبوا به من حيث قيمته ومنفته
لا من حيث بهائه ورواقته ، وإذا وقفوا أمام قصر باذخ جميل
شغلهم النظر في غلته وثمرته عن الشعور بجماله وعظمته ، وإذا
أشرفوا على الطبيعة ضاقت صدورهم بمنظر غياضها ورياضها
وأجامها وأمرائها واستوحشوا منها وحشة السائر في فلاة جرداء
أو الهائم في مزارع جوفاء ، وإذا صادفوا الناس صادفهم على
المنفعة أو الشهوة ، أو عادوهم فيها ، يضحكون والعالم
بساك ، ويبرسون والدينا في ماتم ، ولا يباليون أهلكت الناس
أم بقوا ، ما داموا باقين ، وسعدوا أم شقوا ماداموا سعداء
معتبين ، وأصحاب النفس الثانية : هم أصحاب الملكات الشرعية
الذين صفت قلوبهم ، فأصبحت كالمرآة المجلوة فيأمرى فيها
العالم بما فيه من خير وشر ، ففرحوا بخيره وحزنوا لشره ورددت
أفئدتهم ، فشعروا بألم المتألمين فتألموا معهم ، ويبكاه الباكين

فيكوا عليهم ، وخذت أرواحهم فطاروا بأجنحتهم في آفاق
السماء وحققوا في أجوائها فأشرفوا على الطبيعة ، ورأوها في
جميع مظاهرها ومرائتها ، فوجدوا في رويتها من اللذة والنبظة
ما زاحم في تلويهم حب المال والشهوات ، فاعتدلوا في مظالمهم ،
وترققوا في مسامحهم ، وازدروا كل لذة في الحياة غير لذة
الحب ، وكل جمال غير جمال الخيال .

ولا تلتزم النفس المادية بالنفس الروحية بخال من الأحوال ،
ولا تأنس بها ، ولا تجد لذة العيش معها ، وليس الذي يفرق
بين الصالحين أو الزوجين أو العشيرين تفاوت ما بينهما في الذكاء
أو العلم أو الخلق أو الجمال أو المال ، فكثيراً ما تصادق المختلفون
في هذه الصفات ، وتجادوا وصفت كأس المودة بينهم ، وإنما
الذي يفرق بينهما اختلاف شأن نفسيهما ، وذهاب كل منهما
في متازعه ومشاربه ورجياته وآماله وتصوراته وآرائه غير ملدب
صاحبه ، وأن يكون أحدهما مادياً ضاحكاً للحياة سعيداً بضحكه ،
والآخر روحياً باكياً عليها سعيداً ببيكائه ، وهذا هو الذي كان
بين إدوار وماجنولين .

ولم يكن الجمال وحده هو كل مزايا ماجنولين ، بل كان
ألقها شيئاً وأدائها قيمة ، ولكن إدوار لم يستطع أن يفهم شيئاً
غيره أو يعنى بأمر سواه ، فما هو إلا أن حصل في يده واستفد
منه به حتى بدأ الملل يدب في نفسه ديباً خفياً ، فلم تشعر
به ماجنولين في مبدل الأمر ، ثم أخذت تحسه شيئاً فشيئاً ، فذهرت
وارتاحت ، وملأ الريب ما بين جوانحها ، وما هي إلا أيام
قلاتل حتى أخذت تنفض عن عينها تلك النياحة عن صورة
الرجل الذي تعاشره وتزعج أنها تحبه ، فرأت صورة لا تعجبها ،

ولا ترونها ، ولا تحافظ نفسها ، ولا تمارجها ، وعادت إلى ماضيها منه ، فأخذت تقرأ صفحاته صفحة صفحة حتى أتت على آخرها ، فبين لما أنها لم تكن تحبه ، أو أنها كانت تحب فيه شيئاً غير نفسه ، وأن الصلة التي بينها وبينه إنما هي صلة الزوجة بالزوج ، لا صلة القلب بالقلب ، ففرت أنها لم تحسن الاختيار لنفسها ، وأن شقاء طويلاً ينتظرها فيما بقي لها من أيام حياتها .

(٨١)

من سوزان إلى ماجدولين

أراك محدثيني في كتبك كثيراً عن استيفين ، كأنك قد نسبت أنه أصبح رجلاً غريباً منك لا شأن لك به ، وأن ما كان يتكما قد انقضى وذهب ليله ، وأغرب من ذلك أنك تكئين عت بلهجة أفضل من اللهجة التي تكئين بها عن زوجك ، وأخاف أن يكون لانتقائه بك في تلك الحلقة التي قصصت عليّ قصتها صلة بهذا الأكم البديد الذي أصبحت تشرين به اليوم ، فما عهدتك قبل الآن باكية ، ولا شاكية ، ولا تاقمة من زوجك شأناً من شؤونه ، ولا متبرمة بعشرته ، ولا غبيقة الصدر بأطواره ولغلاته ، ولا طائر في سماء الخيال إليك ونهارك تفتشين من الحب الشرعي وتتلصبه تلصص من لا يرى لنفسه غناه عنه ، ولا يعرف معنى الحياة بدونك . فخلعي حيلك من نفسك يا ماجدولين ، واعلمي أن ما كان يمتد بالأس هفوة من الهفوات الصغيرة يصبح اليوم جنوناً مطبقاً لا بمثل جنون ، ولا يوحشك مني ما أقول لك ، فإنا لا نهمك ، ولا أرتاب فيك . وأنت

أعلم بذلك ، ولكنني أعتنى عليك أن يتلاهي في مكان واحد من قلبك ذكرى ماضيك ، وهناك حاضرک ، فيصطرحا ، فينصص عليك أولهما ثانيهما ، فلا الماضي تدرकिन ، ولا بالحاضر تسعدين .

هذا ما أريد أن أقوله لك ، وهذا ما أطلب إليك أن تتهدبه من نفسك وتنبؤ حراست من قلبك أن يأتي يوم لا ينعمك فيه تعهد ، ولا انتقاد .

(٨٢)

من ماجدولين إلى سوزان

لا علاقة لاستيفين بهذا المم الذي أشر به ، وليس بيني وبينه أكثر مما يكون بين صديقين احتمل أحدهما في سبيل الآخر في عهد من عهوده الماضية أقصى ما يستطيع احتماله من المشقة واللؤونة ، فصرف له الآخر يده ، وشكرها له وجزاه وداً بود ، ومروفاً بمعرف .

أما هذا الذي تريدان أن تدعي إليه في كتابك فأقسم لك أنني لا أعرف له أثرأ في نفسي ، ولا أحب أن له أثرأ في نفسه ، فقد رأيت في تلك الليلة التي قصصت عليك قصتها ، ثم رأيت بعد ذلك مرتين ، فلم أر في نظرات عينيه ، ولا ملامح وجهه ، ولا نظرة في حديثه أثرأ من سلك الحب القديم الذي تعرفينه ، وكل ما يستطيع الناظر إليه أن يلمحه في وجهه تلك المسحة الرقيقة من العيون التي تترامى في عينيه حين ينظر . وفي ابتسامته حين يبتسم وما هو بجزين ولا مكتئب ، ولكنها صورة الأكم القديم

قد رسمها الماضي على وجهه ثم ذهب ليقبث هي من بعده ذليلاً
عليه كما تبقى صورة المرح بعد التمام ، فاطمئني يا سوزان
ولكن رأيتك في اليوم وأبك بالأسى ، ولا يقم هذا البعد الذي
بينى وبينك حجاباً بين نفسي ونفسك .

(٨٣)

قلب استيقظ

به ذكر استيقظ ، وعظم شأنه ، وأصبح قابضة من نوايغ
الوسيقى ، وانتشر له صيت بعد في جوتج وما يليها من البلدان ،
ثم امتد صيته إلى كويلانس ، فزاره في فرجة كثيرة من المنين والمثلين .
واقترحوا عليه تلحين القطع التمثيلية ، وأجزوا له الأجر عليها ،
فلحنها أفضل تلحين وأبرعه ودرت عليه أخلاف الرزق ، وسال
وأديه بالذهب سيلاً ، وكان أبوه قد مات وورثته تلك الصباغة
من المال التي كانت في يده ، فكان إذا ذهب إلى كويلانس
ليغني فيها ليلة أو ليلتين لبعض شؤونه الخاصة نزل في بيته
وزاره فيه أسدفاؤه وخلاته ، والمعجبون بفضله ، والمعتزون
بصنائه وأياديه .

ولقد وجد في تلك اللحظة التي انتهجها لنفسه في حياته بعض
الغناء مما لقي في ماضيه ، إلا أنه كثيراً ما كان يخلو بنفسه في
هدوء الليل وسكونه فتمر أمام نظره على الرغم منه جميع الآلام
وهجومه الماضية فيذكر الليلة التي خرج فيها من كويلانس شريداً
طريداً لا يجد موطئاً ولا مبيتاً ، واليلة التي ذهب فيها إلى عرس
سوزان لروبة ماجندولين فقصته أحد الزائرين على وجهه سوطاً

فأدماه ، واليلة التي كابد فيها الأهوال العظام في غرفة قريبة
ليلة وفاته حتى أشرف على الجنون ، واليلة التي قضاهها طريحاً
تحت سلم دار ماجندولين حتى الصباح وهي خالية بزوجها في
غرفة عرسها لتألقه وتقبله وتقول له : « أنت حياتي التي لا حياة
لي بدونها » ويتراءى له مرة شبح أخيه « أوجين » وهو ساقط
في حومة الوعى تحت سنانك الخليل تنموسه وتحوض في أحشائه ،
وأخرى منظر ماجندولين وهي جالسة مع إدوار على مقعد حديديتها
تتأجبه بالحب ويتأجبهها ، إلى ما يقضى من أيام يومه ، والباقي
شقاؤه ، ثم تستل أمام عينيه روضة آمله وهي مورقة خضراء
يتسلل ماؤها ويتفرق هواؤها ، ثم يراها وقد عصفت بها
ريح الحوادث فصوح نبتها ، وذبل زهرها ، واستحالت إلى
قفرة جرداء لا يترنح فيها حصن ، ولا يبتغ بها طير ، فيخيل
إليه أنه يعيش وحده مقطوعاً عن العالم كله ما فيه ، لأن ماجندولين
ليست بجانبه ، وأن ما يشع به من مجد ومال لا قيمة له عنده
لأنها لا تقاسه إياه ، وأن هذه الألمان التي يضعها والأصوات
التي يبتغيها إنما هي مآثم يقيمه بنفسه على نفسه وعلى آمله القاذية ،
وأمانيه الضائعة ، فتتملئه نفسه غمماً وحسرة فلا يجد له سبيلاً
سوى أن يتناول قيثارته فيضنها إلى صدره ويثبها هموم قلبه
والآلام فؤاده ويكفي ما شاء الله أن يفعل حتى يجد بعض الراحة
في نفسه فيأوي إلى فراشه وينام نوماً طويلاً ثم يستيقظ بارثاً
مستغنياً .

ولم يزل هذا شأنه حتى التقى بـ ماجندولين في تلك الليلة التي
قصت هي قصتها على سوزان فاعتبط بمرآها اغتياباً مزوجياً
ببعض الآم لتذكراها وذكرى ماضيه معها ، إلا أنه تجلد واستسك
وكانت نفسه غصتها فلم تشر بشيء مما دار في نفسه حتى انصرفت .

قلب ماجدولين

ما زال اللؤلؤ يأخذ من نفس إدوار حتى مل بينه واجتواه ،
وأنا يبطلب لنفسه العادة خارجة بعدما قددها داخله ، فأخذ
يتلصق بتلك الشؤن التي يدالج بها فقراء القلوب أمراض ملهم
وسأمتهم ، فقامر ثم ضارب ثم ولع بالشراب ثم قضى بعض
لياليه خارج منزله ، فاشتد ذلك على ماجدولين ، ونال منها
مثالاً عظيماً ، وساء ظننها بالحياة وما فيها ، فقيح في نظرها كل
مظهر من المظاهر المادية التي أحببتها هنيئة من الزمان واستهانت
بها فعانت المراقص والمحافل وزهدت المظاهر والتماخر ، وملت
كل شيء حتى ثيابها وزينتها ، وأصبحت لا تفكر ليلاً ونهارها
إلا في الكلمة التي قالها استيفن في بعض كتبه الماسية « لا تصدقني
يا ماجدولين أن في الدنيا سعادة غير سعادة الحب ، لأن صدقتي
قويك لك منك فإني قد حكمت على قلبك بالموت » .

إلا أنها راحت نفسها مع الأيام على مكرونها ، واصطبرت
لحالة التي طرأت عليها صبراً جميلاً لا يتخلله ندم ولا شكوى
فقد علمت أن القدر قد جرى في أمرها بما هو كائن ، وأنها قد
أصبحت زوجة لرجل قد أقسمت له بين يدي الله بيمين المحبة
والولاء ، فلا بد لها من الوفاء له ، والإخلاص إليه ، واحتمال
كل مكروه في عشرته حتى ينفي الله في أمرها بقضائه .

وكان يعزبها عن شقتها بعض الغراء أنها كانت ترى استيفن
من حين إلى حين ، وتحضر بعض مجالسه وجتمعاته فتسمع في

وما هي إلا أيام فلال حتى زاره إدوار في بيته كما وعده
واعتمر إليه من فضته التي فعلها معه قبل عذره قبول من لا
يرى من قبوله بدأ بل زعم له حين جرى بينهما ذكر ذلك الماضي
وشؤونه أن حبه لماجدولين لم يكن إلا خدعة النفس وزرعة طائفة
من نزعات الشباب ، وأنه قد بدأ يمل بماجدولين ويأجسها فلم
يعد يحفل بأمرها ، ولا يفكر في ماضيها ولا حاضرها ، وأصبح
ولا هم له إلا أن يمدد صدقاته مع رجل قد أصبح من أصحاب
الثان العظيم والمظهر الفخم ، والثروة الطائلة ، فصدقه في زعمه
وسكن إليه وذهب في مجامعته والتودد له كمثل ملعب ، ثم رد له
استيفن الزيارة في بيته في اليوم الثاني ورأى ماجدولين وحادثها
وتبسط معها تبسط من لا يحفل بمحاضرها ، ولا يني بماضيها ،
ثم لم يزل يراها بعد ذلك في منازل بعض أصدقائه ، أو في المحفلات
العامة ، وحدها ، أو مع إدوار فيحسن ملتقاهما ، ويوترها بطقه
ورعايته ، إلا أنه كان يتجنب جهده أن يجلس معها مجلساً مفرداً
أو يتحدث إليها حديثاً خاصاً لأنه كان قد أخذ نفسه بنسيانها
ونسيان ماضيها ، فلا يجب أن يشتير ذلك ، ولأنه كان لا يزال
يمسك في نفسه بعض الحب عليها في غدونها به فلا يجب أن ترى
ذلك في نعمة حديثه ، أو لحظات حبه ، أنفة وكبرياء وذعابها
بنفسه ملعب من لا يبالي بمن لم تبال به ، ولم ترع له فعلاً ولا
عهداً .

وجملة حاله معها أنه كان يجمع لها في قلبه في آن واحد بين
عاطفتين مختلفتين عاطفة الرضا ، وعاطفة السخط ، فهو يجبه
لا يستطيع مقاطعتها ويحد عليها فلا يريد أن تنمر بحبه
إياها .

حديثه ذلك الأسلوب الشعري البديع ، وتلك التصورات السماوية
 العالية التي طالما سحرنا وملكت علينا قلبها وأهواها . وترى
 تلك الشهرة العظيمة التي تنتشر له شيئاً غريباً في أنظار البلاد
 فتنتل . قصها إكباراً ، وإعظاماً ، ولا يملك قلب المرأة من
 الرجل مثل الشهرة وامتداد العيب ، وكان يدخلها شيء من
 إصجاب بنفسها كلما ذكرت أنها قد نزلت في عهد من عهود
 حياتها الماضية منزلة الحب من ذلك القلب الطاهر الشريف ،
 فتجد في سعادة الماضي وذكراه بعض الغراء عن شقاء الحاضر .

إلا أن امرأة واحداً لم يخطر ببالها ، ولم يدخل في أحاديث
 قصها وهو أن تعود إلى حبه بعد ما تفقت بينها منه ، أو أن
 تكون الصلة التي بينها وبينه صلة حب وغرام .

(٨٥)

من ماجدولين إلى سوزان

قد اطلعت منذ أيام قلائل على سر هائل ليني لم أطلع عليه
 وليني مت قبل أن أعرف منه حرفاً واحداً .

قد أظن إيدوار وباع جميع ما يملك ولا تزال عليه بقية من
 الدين لا سبيل له إلى أدائها ، وهأنذا أعد علي ليج جواهري
 وحلامي علي أستطيع أن أستغني لبيت الذي نسكته ، ولا أعري
 ما يكون شأننا بعد ذلك ، ولقد نامت ليلة أمس في هذا المكان
 فراوطني قليلاً ثم اعترف لي بكل شيء وقال : إنه إنما أتى من
 قبل القاهرة أولاً ، وللصارفة آخراً ، وأن طمسه في التروية

واستهناره بها هو الذي أفقده إياها ، فعاتبه في ذلك حتاباً لا أظن
 أنني أفقت عليه ، ولكن أتتزين يا سوزان ماذا قال لي ؟ قال :
 إنه لم يخطئه في حياته إلا في أمر واحد ، وهو أنه تزوج من
 زوجة فقيرة لا تستطيع أن تمد له يد المعونة في ساعات شدته
 ولقد صدق فيما قال ، فليس لرجل لثني أو يتزوج إلا امرأة
 غنية تلائم نفسه نفسها ، وليس للمرأة الفقيرة أن تزوج إلا
 رجلاً فقيراً يشابهه عيشه عيشها .

إني لا أبكي يا سوزان على نفسي ، فقد تقصيت أكثر أيام
 حياتي فقيرة معدمة لا أملك من منافع الدنيا شيئاً ، بل على ذلك
 الجبن المسكين الذي يخرجني في أحشائي والذي سأله غداً لتقرر
 والقرية والذل والشقاء .

لقد أصبحت لا أسأل الله إلا مونة عاجلة تلعب بي وبه
 وترميحني وترميحه من شقاء الحياة وعنايتها ، وقبول لي وله إن
 عشت بعد اليوم ساعة واحدة .

(٨٦)

الفرصة للزواج

مرض إيدوار على أثر تلك التكة التي نزلت به مرضه شديدة
 كادت تلتف فيها نفسه ، ثم أبل بعض الإبلال فالترح عليه
 استيقن - وكان قد لازمه مدة مرضه ، ومد إليه يد المعونة في
 تكته - أن يسافر معه إلى «جوتيج» ليفرج قلباً بما به ، ففعل
 وسافرت معهما ماجدولين حتى بلغت بهم العجلة صاحبة القرية ،

فاستقبلهم ، فرترز ، وزوجه ، وأولاده على ضفة النهر فرحين
مبتغيين ، وكانوا على موعد منهم ، فصالح استيفن فرترز وعاقبه
معاينة الصديق لصديقه ، وقبل جين جوزفين ، وضم الأولاد
إليه وأنشأ بقلهم وبدير لهم عديبه فيقبلونه ويبتغون له ويقولون :
لقد طال غيابك عنا في هذه المرة يا سيدي حتى ظننا أنك قد
آثرت الإقامة في « كوريلانس » على الإقامة بيانا ، وقال أكبرهم
وكان في الثالثة عشرة من عمره - : هأنذا لبس الرداء الجديد
الذي أرسلته إليّ فشكراً لك يا سيدي ، فسأله : هل أصبح
يستطيع نشر شراع الزورق وحده بلا مساعد ولا معين ؟ قال :
نعم وأستطيع أيضاً أن أطويه وقت اشتداد العاصفة ، قال :
سأرى الآن ذلك أيها الملاح الصغير ، قال أوسطهم وكان في
الثامنة من عمره : لقد بل حلفائي يا سيدي فهل جئني بمخاء
جديد ؟ قال : نعم لقد جئكم جميعاً بأحذية جميلة ، وقبعات
فساحرة .

فرح الأولاد وتهللت وجوههم ، وأحاطوا بأهمهم بهمسون
في أذنها بهذا النأ الجديد ، ونشبت برداته الطفلة الصغيرة وقالت
له : لقد ولدت الشاة التي أهديتها إليّ صغيراً أبيض اللون أسود
العين فتعال سمى أريك إياه ، فقبم وضمها إليه وقال لها :
سأذهب معك يا فكتورين عما قبل ، ثم التفت إلى ماجولوين
وقال لها : إنهم يجهنون كثيراً ، وأنا الآن أعيش بينهم كأنني
أعيش في أسرتي بين أهل ونومي ، فارتعدت ماجولوين واصفر
وجهاً وظلّت تقول في نفسها : لقد أصبح سعيداً بنفسه ،
وكان يظن أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً بدوني ، ثم ركبا
الزورق جميعاً وأخذ الملاح الصغير ينشر الشراع ويصبح استيفن .
ها أنذا يا سيدي أنشر الشراع وحدي بلا مساعدة ولا معين ،

فيقول له : أحست يا بني أحست ! حتى عبروا النهر إلى الضفة
الأخرى ، فاعتمد إدوار على ذراع استيفن ومشوا جميعاً على
أقدامهم إلى المنزل ، وكان على كتب منهم ، فقدم فرترز وكان
معه مفتاح الباب قفصه . فدخلوا الحديقة ووقع نظر ماجولوين
على حائط السور فرأها مكسوة بفلاحة بدبغة من أزهار البضج
تدور بها من جميع جوانبها ، فذكرت ذلك الكتاب الذي كتبه
إليها استيفن منذ خمسة أعوام قبيل زفافها لإدوار ، وقال
لها فيه : إنه قد كسا سور البيت الذي ابتناه لها في جونتج بأزهار
البضج التي تحبها ، ثم التفت فرأت حوض الماء المقام في وسط
الحديقة ، ورأت حوله ذلك السياج الذي قال لها استيفن في
كتابه إنه قد أقامه حوله خوفاً على أولادها من السقوط ثم لمحت
في زاوية من زوايا الحديقة كرمياً طويلاً موكناً من مقعدين متقابلين ،
وأرجوحة صغيرة من أراجيح الأطفال ، فسمجت من احتفائه
بهذه الآثار التي توثله وتذكره بشفائه الماضي ، ثم قالت في نفسها :
ما أحب أنه تعمد إقامها والحافطة عليها ولكنه تركها ورثاًها
فقيت في مكانها على حالها .

وهنا نمرت بتلك التضاضة التي بشر بها الدليل في موقف
ذله ومهانه ، وظلّت تقول في نفسها : إنه ما عفا عنها ، ولا
غفر لها سيئها عنده ، ولا أمسك عن عتابها وتأنيبها ، ولا أعطها
من نفسه هذا الوجه من الرضا ، إلا لأنه يحضرها ويزورها ،
ويراها أصغر في عينيه من أن يأخذها بذنب ، أو يعتد عليها
بسته ، وإن هذه النظرة العلية التي أصبح ينظر بها إليها إنما هي
نظرة العزيز المرتفع التي يلقبها على البائس الشقي الذي يستحق
عطفه ومرحمته ، فأخذ من نفسها هذا الخاطر مأخذاً شديداً ،
وأحزنها وملأ قلبها غصه والماً أنها قد فقدت كل ما كان

لما في قلبه حتى منزلة الاحترام .

وكان استيقن قد أنشأ في طرف من أطراف الحديقة عرفاً
أعدّها لتمامه وجلوسه ونزول ضيفاته وترك المزل جميعه لا
يعطرقه ولا يأوي إليه طلباً لرخصة نفسه من آلام الذكرى وهجومها ،
فأعد لإدوار غرفة منها ذهب به إليها ساعة وصوله ، وكان
إدوار يشكو بقية من الألم في جسده فما أخذ مضجعه من فراشه
حتى استغرق في نومه وأقبل الليل فعدت أسرة فرتر إلى بيتها
ولما بستاني الحديقة إلى غدده وبقي استيقن وحده مع ماجبولين
وهي المرة الأولى التي جلس إليها متفرداً منذ أن المرقاة فعدت
إلى ذهنه تلك الصورة القديمة التي كان يتخيلها في ماضيه لسعادته
وعنائه ، وظل يقول في نفسه : ها هو الليت وها هي الحديقة ،
وها هو الليت والشجر ، والليل والقمر ، والسماء الصافية والأشعة
المترققة ، والنسيم الليليل ، والسكون السائد ، وها هو حوض
الماء تسبح فيه الأسماك غادية ورائحة ، وها هي ماجبولين
جالسة ليس بيني وبينها حائل ولكنني لا أستطيع أن أمد يدي
إليها ، بل لا أستطيع أن أمد نظري منها لأن بيني وبينها حل
شدة هذا الحزن بعد ما بيني وبين ذلك النجم الثالث في لحن
السماء .

وظل مستغرقاً في خياله هذا ، حتى فاجتته ماجبولين الحديت
وقالت له : ما أجمل دارك يا استيقن وما أبدع منظرها ، إنها
أجمل مما كنت أتوقع ، فخليل إليه أنها تبرأ به وتستعين بألامه
فلا تبالي أن تذكره بها ، ففاصلته ما لم يملك نفسه معه وقال لها :
إن من يعيش في قصر جميل فحرم كتحصرك الذي تعيش فيه في
كوبلانس لا بعباً بمنزل صغير كهذا المزل ، فشرحت أنه يريد

ويعرض لما بذلك الإساءة التي أسلفتها إليه فيما مضى فتأملت في
نفسها أما مزوجاً يبيض الغبطة والارتياح ، لأنها علمت أنه لا يزال
يتذكر فيها ، ولا يزال يضرر في نفسه بقية من ذلك الحب القديم ،
وأرادت أن تنقل إلى أحماق نفسه فقالت له : حينما يجيد المرء
سعادته في مكان مهسا عجز شأنه فهو أجمل التصور وأفصحها ،
فنظر إليها نظرة منكسرة كاد يقول لها فيها إنه ليس بسعيد ،
وإنه أشقى إنسان حل وجه الأرض ، ثم استردّها سريعاً ، فلم
تشر بها وظل صامتاً .

فلحبت معه في الحديت مذاعب أخرى ، حتى مضت قطعة
من القيسل فنهضت من مكانها ، ونهض بنهوضها ، وتحشيا
قليلاً في أنحاء الحديقة حتى حرا بسلم الطيقة العليا فقالت له :
هل تأذن لي يا استيقن أن أسعد إلى هذه الطيقة لأراها ، وهل
تفضل بالصعود سمي إليها ؟ فاضطرب قليلاً ثم قال لها : لك
ما شئت يا سيدتي ، وسعدت معها ذلك السلم الذي لم تعده نفسه
منذ خمس سنين حتى بلغا أعلاه ، فمشى إلى الغرفة الأولى
وفتح بابها وقال لها : ها هي الغرفة التي كنت أعددتها بلخوسي
ومراسني ، ولا حاجة لي بها الآن ، فقد التقت من بين غرف
الحديقة بدلاً منها ، ثم تركها وفتح باب الغرفة الثانية وقال :
وها هي الغرفة التي كنت أعددتها لتمام أبيك رحمة الله عليه أيام
كنت أظن أنه سيأكنني في هذا المزل ويعيش سمي فيه . فرأت
فرشاً جميلاً وأناثاً حسناً وأصص زهر وربحان قد يست وجف
وزقها وتالت في أنحاء الغرفة ، فشرحت بانقباض في نفسها لذكرى
أيها ، واغرورقت عينها بالدموع ، ثم انتقل إلى الغرفة الثالثة
ومد يده إلى مفتاحها ثم استردّها وقال بصوت خافت متهدج :
عفواً يا ماجبولين لأنني لا أستطيع أن أفصح هذه الغرفة لأنها

الفرقة التي كانت معللة لأخي أوجين ، وقد آلت على نفسي أن لا افتح بابها ما حبيت ، فآثر في نفسها منظره ، وأكبرت حزنه وألمه ، وقالت له : احزين أنت حتى اليوم على أوجين يا استيفن ؟ قال : نعم حزناً لا يفارني حتى الموت ، ثم مشى إلى الفرقة الأخيرة ومد يده إلى مفتاحها بهلوه وسكون ففتحها ثم انحرف عنها قليلاً وأطرق برأسه ولم يقل شيئاً ، فألقت عليها ماجدولين نظرة ألقت بجميع ما فيها ، فرأت غرفة جميلة رحة قد دعنت جدرانها باللون الأزرق ، ووسط في أرضها بساط أزرق ، وأوم في أحد أركانها سرير من النحاس الأبيض منطى بملاءة حزرية زرقاء ، ورأت متصلة جميلة قد صفت عليها أدوات زينة النساء ، وخزانة للملابس ، ومراة كبيرة وكرياً طويلاً ذا مقعدين ، وبضعة مقاعد أخرى كلها زرقاء اللون ، وقد علقتها جميعها طبقة رفيقة من الفايبر ، فعلقت أها أمام الفرقة الزرقاء التي حدثنا عنها في بعض رسائله الماضية وقال لها إنه قد أعدها تحديداً لئولهما ، وأنه إنما اختار لها هذا اللون لأنه لون البضج الذي تحبه ، فآثرت في نفسها تلك الذكرى القديمة ، ومشت ما بين قمة رأسها وأخمص قدمها رعدة شديدة كادت تزأل لها أعضاؤها ، واشتد خضوق قلبها واضطرابه ، ثم نظرت إليه فإذا هو مطرق صامت ، وإذا دموعه تتحلى على خديه يتبع بعضها بعضاً ، فهالما منظره ، وازدحمت الدموع في عينها تتبادر إلى السقوط ، فأخذت يده بين يديها وقالت له : ما بك يا استيفن ؟ وكأنما قد راحه أن يفضح الدمع سره الذي كان يكتمه منذ عهد طويل ، فاجتذبت يده من يدها برقت وقال لها : لقد هاجني ذكر أخي أوجين ، وأشار إليها بالزول ، فزلا حتى وصلا إلى مكانهما الأول من الحديقة ، فقالت له : رفه

عليك قليلاً يا صديقي قلبس فيما قضى الله حيلة ، ولا تفاتك مرد ، ولقد مات أخوك مينة كريمة لم يمتها أحد قبله ، فليكن صبرك عليه كريماً كصيتي ، فرفع رأسه إليها وقال لها : إنني أستطيع أن أنسى كل عهد من عهود حياتي الماضية ، ولا أستطيع أن أنسى تلك الأيام التي أحييت فيها وأحيي ، وأخلصت له فيها وأخلصت لي ، ولقد جمعت بيني وبينه المصائب منذ كنا طفلين صغيرين ، وألقت ما بين قلبينا الكبيرين حتى أصبحنا قلباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويتألم بألم واحد ، ولا تزال حاضرة أمام عيني حتى الساعة تلك الأيام التي قضيتها معاً في مدرسة جوتج بعيدين عن أبوينا ورحمتها وعطفها لأن أماً كانت قد ذهبت إلى قبرها ، وأبائنا كان يقسو علينا ، ولا يحفل بنا ، وقد يؤس علينا يوماً بي بي به الصغبر ويعطير له لب الكبير ، وبلغنا في الشقاء المبالغ التي لا يبلغها إلا البائس المنقطعون عن الأهل والرحم ، أو أبناء السبيل المشردون في آفاق البلاد ، وكنا نرتدي أرت الثياب ، ونأكل أفضه الطعام ، ولا نحضدي إلا الأحنبة المرفعة ، ولا نلبس إلا القلائس المخرقة ، ولا نجد ما نستعين به على إصلاح شأن ملابسنا وأجسامنا ، فكنا نلأق بسبب ذلك من معلمينا أشد العقاب وأصاه ، فنحمل الأثم بصبر وجلد . ولا نستطيع أن نعتذر إليهم عنراً شديداً ، نقيم به وجهنا لأننا إن فعلنا قد عفتنا أبائنا وتركنا للألسنة سيلاً إليه ، وهذا ما لا يحب أن يكون ، وكان طلبة المدرسة في شأننا قسامين ، هازيء لا يزال يسخر بنا ، وراحم لا يزال يتوجع لنا ، ودمعة الراحم كانبشامة الساخر وكلاهما يؤلم النفس ويعلموها قصة وأسى ، فكنا نضيق بالخالين ، وننألم في الموقنين ، وكثيراً ما كان يأمرنا معلوننا كلما زارهم زائر كريم بالإترواء في الركن المظلم من أركان قاعة القدس حتى

لا يجملوا بنا أمانه فإذا انصرف عدنا إلى مقاعدنا كما كنا ،
فكنا نجد في نفوسنا من المصعب والألم ما لا يعلم سببه إلا الله ،
وكان الطلبة يخرجون جميعاً في أيام الأحاد مع المعلمين للتزود في
الأحراش والغابات أو على ضفة النهر أو على سفح الجبل في
أزياء جميلة وشارات حسنة ، ما عدنا فقد كان معلماً يتطلب
علينا للعل في ذلك اليوم حتى يأمر بسجنا في بيت الدجاج نبرماً
بنا ، وامتنعاً لزيانا وهيتنا ، فإذا خلا بنا المكان اختلف شأننا
اختلافاً عظيماً فأظلم أبكي وانتحب ، وبظلم أوجين يلعب ويمرح
لأنه كان على صرسته أوسع مني صدراً وأكثر احتمالاً ،
وكان لا يعرف سيلاً لتزييني وتسرية هوموم نفسي غير هذا
السييل ، فلا يزال يبغي ويصبح ويقفد أصوات الحيوان ، ويطارد
الدجاج والأوز ويغنى في عوته ولفوه ، حتى نهياً نفسي ،
ويحف مدممي ، ولا أرى لي بداً من المضي معه في شأنه ، وكنت
أرحمه وأحتو عليه حتى أوم على رضيعها ، فلا أستطيع أن
أراه باكياً أو شاكياً أو مستوحشاً أو مثالماً ، وكان يجيل إلي أنني
لو رأيت دعة واحدة تجري على عده لقلت نفسي حزناً وكمداً ،
وكثيراً ما كنت أتمارض ساعة الغداء أو أظاهر بالشع إن رأيت
الطعام قليلاً في أيدينا حتى يستطيع أن يأخذ حقه منه ، فلا أرى
على وجهه صفرة الجوع ، ومثالماً ضمنت في الليالي الباردة عطائي
إلى غطائه وأسبته عليه من حيث لا يشعر رحمة به وحتواً عليه ،
حتى إذا أصبح الصباح ورأني نائماً بجانبه يغير غطاء ضمني إلى
صدره وقبلي ، وقال إنك تقفل نفسك يا استيفين من أجل !
ولم يزل هذا شأننا حتى وفد علينا إدوار ، وكان متكوباً
بمثل نكبتنا فتقاسمنا نحن الثلاثة هذا الشقاء وتعاونوا عليه برهة
من الزمان حتى فرقت بيننا الأيام .

وهنا اختفى صوته بالبكاء فلم يستطع المضي في حديثه وأطرق
إطراقاً طويلاً ثم رفع رأسه ، فإذا عيناه محمرتان من البكاء
فألقى على ماجبولين نظرة طويلة دامعة وقال لها : أنتدين يا
ماجدولين ماذا صنعت بهذا الأبح الذي كنت أحبه أكثر من كل
إنسان في العالم ، وكان يميني أكثر مما أحبه ؟ قالت : لا أعلم
ألك صنعت به شيئاً ، قال : إنني قد فعلته ، فهدرت ماجبولين
واصغر وجهها وقالت : لني لا أفهم ما تقول ا قال : كتب إلي
من ميدان القتال أن سرجه بال مرقق يوشك أن يخلده في الميدان ،
وأنه في حاجة إلى عشرين فرنكاً ليتناع بها سرجاً جديداً ، وكنت
قادرأ عليها ففصنت بها عليه ، فالتقطت به سرجه أثناء المركة
ففاست حواقر الخيل فمات ، فاستعبرت ماجبولين باكياً ، وقالت :
وا أسفاه عليه وعلى شبابه الغضب وضعت الياسق الضعيف ، فمدق
استيفين في وجهها تحديقاً وقال لها : وهل تلدن لم فصنت عليه
بهذا المال الذي سألتني ؟ قالت : لا . قال : لأنني كنت لا أملك
سواه ، وكنت بين أن أرسله إليه ليتناع به السرج الذي يريد ،
أو أنفق في السفر إلى كوبلايس لأراك ، فأثرت رؤيتك على
حباته ، فنكست ماجبولين رأسها ، واحمر وجهها حياءً وعجلاً ،
وظل جسمها يرتعد ارتعاداً شديداً - ثم عاد إلى حديثه يقول :
وهل تعلمين ماذا تم لي بعد أن سافرت إليك هذه السفرة ؟
فصفت ماجبولين ولم تقل شيئاً ، فقال : ذهبت إليك في ملعب
الأوبرا فلم أجدك فانتظرتك طويلاً فلم تأت فقلقت عليك
قلقاً عظيماً ، وذهبت إلى بيت سوزان لأكف على أمرك فرأيت
هناك وليمة حاله فسألت عنها فعلمت أنها عرس صديقك ،
فأيت أن أذهب دون أن أراك ولو على البعد لحظة واحدة ،
ثم انصرف لشأني وكان لا يبد لي من أن أحتال لذلك احتيالا ،

من ماجلولين إلى سوزان

لم يبق لي بدٌّ من أن أعترف لك بكل شيء .

قد أصبحت أحب استيفن حياً لم أسهر له مثله فيما مضى
من أيام حياتي ، لأنه حب بلا أمل ولا رجاء .

لا ، بل أعتقد أنني ما سلوته يوماً من الأيام ولا يسبه ،
وأنني كنت أمدح نفسي وأكلمها حينما ظننت أنني أستطيع
أن أحيا بدونك ، أو أسكن إلى عشرة إنسان سواه .

إنه لا يزال يحبني ويستهم بي ، ولا يزال يذكر ذلك الماضي
كأنه لا يزال حاضراً بين يديه ، وقد كنت أسهل ذلك منه ،
ولا أرى له أثراً في وجهه ، حتى جلست إليه منذ ليالٍ جالساً
متفرداً فحرق بيبي وبينه حديث ثلث في عواطف نفسه ثورة
شديدة ، فبكى وتألّم وغضب واحتدم ، فطلعت أنه لم ينس
شيئاً وأنه إنما كان يكافئني لواجب نفسه وآلامها ، ويعطوني أحناء
ضلوعه على مهجة تتحرق لوعة وأسى ، فربيت له وبكيت
لبكائه ، وأكبرت فيه تلك العاطفة الشريفة عاطفة الولاء والإخلاص
لامرأة قد غدت به أفتح غمر ، وسخاته أطلع حياة ، وملأت
عليه فضاء حياته يوماً وشقاء .

إنه لم يفكر في الزواج حتى الساعة ، ولم يفتح باب الطقة
العليا من . . . التي كان أعددها لسكاننا إلا مرة واحدة منذ ليالٍ .
وكان ذلك من أجل ، ولا تزال غرفة العرس باقية على عهدنا

فأعظمت بالندم كأنني واحد منهم وكانت ثيابي أشبه بياجم
حتى تمكنت من اللجوء إلى فناء القصر ، ووصلت إلى باب
قاعة الرقص فنظرت من زجاجها فرأيتك ترقصين مع إدوار
تلك الرقصة التي كنت تفتحين بها حياتك الجديدة معه ، وأنا
أنا كذلك إذ دفع الباب دفعاً شديداً وخرج منه أحد الزائرين
فأمرني أمراً لم أحسن القيام به ففرضني على وجهي سوطاً لا يزال
أثره باقياً على عدي حتى الساعة .

وهنا وضع يده على خده كأنما قد وقع السوط عليه في هذه
الحظة وانفجر باكياً بصوت عال وتركها مكانها ومضى في
الطريق الموصل إلى مخدعه فطلقت به عند باب المخدع وثبتت
برهانة ومدت يدها إليه ضارعة وقالت له : ألا تستطيع أن تعرف
عه يا استيفن ؟ فجلذب رداءه منها ، وألقى عليها نظرة شرراء
عائلة ، وقال لها : اذهبي أيتها السيدة إلى مخدع زوجك فإنه
مريض ، وربما كان في حاجة إليك ، ثم دخل مخدعه وأقبل بابه
فلبثت في موقفها ساعة باهتة مذهولة ، ثم انصرفت إلى مخدع
زوجها .

في هذه اللحظة علمت أنه لا يزال يحبها . ويستهم بها ،
وأنها تحبه حياً يستعيدها ، ويملك عليها كل عاطفة من عواطف
قلبي ، وإن قد حبل بينها وبينه إلى الأبد ، قفقت في مضجعيها
ليلة ليلاء ما يكاد يهرب لها نجم ، ولا يطلع لها فجر ، وما كان
ليه بأثر من ليلها .

كما هي ، ولقد رأيتها فرأيت الغبار متشراً فوق سريرها ومقاعد ما
وأستارها فشمعت عند النظر إليها بما يشمر به المائل أمام جدت
بال قد ضمه إليه ، وطوى به بين ترابه وأحجاره .

لقد خسرت يا سوزان كل شيء ، ولم يبق في يدي من جميع
أمانتي وآمالي أمل واحد ، فقد ضاعت الثروة التي بنت سعادتني بها ،
وتنصص على الزواج الذي وضعت فيه جميع آمالي ، وخرج من
يدي ذلك الرجل الذي أحببته لأكثر من كل إنسان في العالم ، والذي
لا أستطيع أن أحب إنساناً سواه ، ولا أعلم ماذا بقي لي في ضمير
السر بعد ذلك من مخاوف وأهوال .

إنني أشعر بخوف شديد ترتد له مفاسلي ، وأظن أن ساعة
العقاب قد دنت ، ولقد أذيت ذنباً عظيماً ، فلا بد أن يكون
عقابي عظيماً .

(٨٨)

من ماجنولين إلى سوزان

قد حلت النكبة الكبرى ، فقد تركني إدوار وسافر إلى جهة
لا أعرفها سوى ما يقول بعض الناس من أنه ركب البحر من هامبورج
إلى أميركا ، ولا أعلم أصدقاً ما يقولون أم كذباً !

وكان استيفن أحسن الله إليه قد أصلح له بعض شأنه بعد نزول
تلك النكبة به ، وبدل له من المصونة ما لا يبذله أخ لأخيه ، ولا
حبيب لحميمه ، ولكنه لم يزل من عثرته هذه حتى عاد إلى سيرته
الأولى وانقطع في القفارة اندفاع المبتون فما هي إلا أيام قلقل

حتى استدان نيفاً مائة ألف فرنك ولم يبق له بد من السقوط .
فبعت جميع جواهري وحلالي علي استقله من سقطته فلم أصنع
شيئاً ، ثم استيقظت صباح يوم من الأيام فذهبت إلى عهده فلم
أجده ، فسألت عنه الخدم فأخبرني أحدهم أنه لمح خارجاً في
الطلس من باب القصر ويده حافية سفر ، ولا يعلم أين ذهب .
ثم علمت بعد ذلك أنه باع القصر إلى أكبر غرمائه وأخذ بقية ثمنه
وهرب وترك سائر الغرماء وشأنهم دون أن يوفيهم ديونهم ،
فعرفت أنه - وقد فعل هذه التهمة التي لا يقدم عليها رجل شريف
غير عائد من بعدها أبداً ، ولم أر بدأ من أن أقوم عنه بوفاء بقية
ديونه ضناً بكرامته وإفقاء على شرهه ، فبعت في سبيل ذلك البيت
الذي ورثته عن أبي في ولفباغ والمزرعة التي يجانبه ، وقد سألت
عنه في كل مكان وسافرت لتفتيش عنه في كل جهة أعلم أن له
شأناً فيها أو صلة بها فلم أوفق له حل أثر ، ولا يعلم إلا الله كم
فوتت من التمرع وكابدت من الآلام منذ حلت تلك النكبة بي
حتى اليوم ، ولقد أرسل إليّ بالأمس مالك القصر الجديد بتلوني
بالمخروج بعد شهر واحد ، وبلغ في ذلك إلحاحاً شديداً ، ولا
أدري ماذا أصنع ولا أين أذهب ؟ فليس لي قريب آوتي إليه ،
ولا حبيب أرجو معونته ، ولا أملك ما أستعين به على قضاء ما
قدر لي أن أنقذه في هذا العالم من أيام حياتي ، وقد انقطع استيفن
عن زيارة كويلانس فأصبحت لا أراه ، ولا أسمع به ولا أعلم
سبب إنقطاعه ، ولقد حدثني نفسي كثيراً بالانتحار فقال لي
وبين ذلك أنني إن قتلت نفسي قتلت معي هذا الجنين المسكين
الذي لا ذنب له ، وكبير على الأم أن تمد يدها لقتل ولدها ،
فتصالي إليّ يا سوزان أو التفتي لي أن آتي إليك ، لا ، بل لا بد
من مجيئك إليّ ، لأنني لا أستطيع أن أحصل مشقة هذا السفر

العبد وأنا في الشهر الأخير من حمل .

إني أنتظر كتاباً منك بعد أيام قلائل ، فلم يبق لي في العالم من أعتد عليه أو أرجو معرفته سواك .

(٨٩)

من ماجدولين إلى سوزان

كنت أنتظر أن يأتيك منك كتاب بالأمس فلم يأتي ، فليت شعري ماذا حدث ؟ أمريضة أنت ؟ أم شغلك عني شأن عظيم لا يسمح لك بمراسلتي ؟ أكتبني إلى على كل حال ، فقد بلغت في الشدة منهاها ، وانقطع عني الناس جميعاً فلا أرى أحداً من صواحي ولا من أصلحاء زوجي .

الحياة مظلمة في عيني ولقد بكيت كثيراً حتى جفت مدامي وفكرة الانتحار تصادفني اليوم أكثر من ذي قبل ، فانظري في أمري يا سوزان واكتبي إلي يا سوزان . اكتبني إلي أنك قادمة أو التدي لي بالسفر إليك فإن لم يأتي منك كتاب غداً ، فلا أعلم ماذا سيكون شأني بعد غد .

(٩٠)

من فردريك إلى ماجدولين

أكتب إليك كتابي هذا وسوزان في أشد حالات مرضها وقد

أمرني الطبيب أن أجنبها كل ما يؤثر في نفسها من سرور أو حزن ، وقد جنبتها كل شيء حتى الاطلاع على الرسائل التي ترد عليها من صواحيها ، وقد سهوت بالأمس ففصفت كتابك الأخير الذي أرسلته إليها عفواً فألمت بطرف من الشدة التي تكاد يبتها فأسفت لذلك كثيراً ، وهممت أن أطلعها على الرسالة أو أكتب إليك على غير علم منها بالحضور إليها ، ولكنني أشفتت عليها أن يقلها الحزن لمصائبك ، أو الفرح برونك فرجائي إليك أن تنتظري بحضورك بصفة أسابيع حتى أحتال للأمر أو نهياً عن سوزان عنها ، والسلام عليك من صديقك الذي يرثى لك ويتلم لألك .

(٩١)

الجزء

قرأت ماجدولين ذلك الكتاب فرابها أمره ووقع في نفسها أن سوزان ليست بمریضة ولا عاجزة عن قراءة رسائلها كما يقول زوجها ، وإنما إنما تريد مداومتها والتخلص منها ، فهالها الأمر وتعاظفها وظلت ساعة بين الشك واليقين حتى دخلت عليها فتاة من صواحيها وصواحب سوزان كانت تختلف إليهما من حين إلى حين فسألتهما ماجدولين متى كان آخر عهدهما برسائل سوزان ؟ فقالت : قد جاءني منها كتاب بالأمس تبثني فيه بعيد ميلادي وتقترح علي أن أسافر إليها لأقضي عندها في برلين ، فصل الربيع ، فكنت إليها شاكراً لما تبثتها ، واستغفيتها من السفر . فصمتت ماجدولين ولم تغل شيئاً حتى انصرفت الفتاة فقالت يئنا وبين نفسها : لا عتب عليها فيما فعلت ، إنما هي

الإرادة الإلهية تأتي إلا أن يجازيني غداً بقدر وكفرانا بكفراان .

(٩٢)

الدموع الأخريرة

استيقظ سكان قرية ولباخ في صباح أحد الأيام فلذا بهم
برون تلك الفتاة التي فارتتهم بالأمس وهي أنصر القتيات وجهاً
وأسمعن حلاً ، قد عادت إليهم صفراء متضمضة شاحبة اللون
بالية الثوب . تخشي مشية الذليل المهين ، وتقلع قلبها في مسيرها
افتلاخاً . فنجبروا لأمرها ورونوا لها ، ولم تزل سائرة في طريقها
حتى مرت أمام ذلك البيت الذي قضت فيه أيام طفولتها وصباها
وسعدت فيه بالحلب الشريف الطاهر أياماً طويلاً حتى فارقت
قلوبها هناك الحياة ودخلها . فخلق قلبها حفقة الألم والحزن .
ووقفت أمامه ساعة قلب نظرها في جنباته وأحائه ، فرأت السكون
غيباً والوحشة سالدة . فعلمت أنه لا يزال مهجوراً وكان باب
الحديقة مفتوحاً فدخلتها نفسها بدخولها . فدخلتها وخطت فيه
بضع خطوات . فلمحت البستاني وزوجته جالسين إلى أصل شجرة
من الأشجار العظام يطبخان طعامهما ، فمشت إليهما حتى صارت
على كعب منهما ، فأنكرها إذ رأياها ثم عرفاها . فانفضا من
مكائنها انفضاضاً ، ومشيا إليها فحياها ، ونظر الرجل إليها نظرة
واجمة مكتئبة وقال لها : ما الذي طرأ عليك يا سبيلي ؟ فأفضت
إليه بحمل قمتها ، ثم قالت له : أريد أن أستاجر الفرقة العليا
من المنزل لأقضي فيها شهراً أو شهرين . وربما لا أحتاج إليها
أكثر من ذلك فاستأذن لي صاحب البيت في أمرها . فاستعبر

الرجل باكياً وظل يبجب لتضليات الأيام وتبدل صورها وأثرها .
ويتبد ذلك الزمن الذي قضاه في خدمتها وخدمة أبيها ، وما
هي إلا ساعة حتى أعد لها الفرقة التي أرادت ، فصعدت إليها
فوجدتها باقية على عهدا أيام كان استيفن يسكنها وذكرت ذلك
اليوم الذي سعدت فيه إليها بعد سفره وأصلحت من شأنها وبللت
تربتها بدموعها حزناً على فراقه ، وظلت تقول في نفسها : قد
كنت أبكي قبل اليوم على فراقه ، أما اليوم فقد أصبح ذلك الفراق
قطيعة دائمة لا واصل لها ، فمن لي بدموع تعيني عليها ؟
وخلت بنفسها تذكر أيامها وهوومها وأشجانها ، وتلوف آخر
ما أبقي لها الدهر في أبقائها من دموع ومن هو أولى بالكاء والغم
سها وقد ضربها الدهر بجميع ضرباته وتكر لها كل وجه من وجوه
الحياة ، فهجرها زوجها وعانتها صديقتها ، وتقم عليها الرجل
الذي تحبه ، وفقدت الثروة التي بذلت في سبيلها سعادت ، وأصبحت
لا تستطيع أن تغلب الراحة من طريق الموت ، لأنها لا تستطيع
أن تقتل ولدها ولا أن تجدها في الحياة لأنها لا تمك ما تستعين
به على عيشها ، وما هي إلا أيام قلل حتى جاءها المخاض فلم
يجزر غير زوجة البستاني وصبور من جارها القديمت فولدت
طفلة جميلة لم تبسم عند رؤيتها إلا لحظة واحدة ، ثم أخذت تبكيها
بكاء التاكل وحيدها ساعة موته ، وما كادت تنهض من نقاسها
حتى جاءها الخبر بأن إدوار قد اتحر شقاً في تفق من فادق
وشبكاغو ، كان ينزل فيه منذ سافر إلى أمريكا ، على أثر ليلة
قضاه في القامرة وعسر فيها كل ما كان بيده من المال ، فسقطت
عند سماع الخبر مغماً عليها وهي تقول : « وايمم ولداه ! »

ثم استفاقت بعد حين فلذا هي تتال صامت ، جامد ، لا
تنطق ولا تبكي ولا تشكو ولا تتألم ، ولا تضم طفلتها إلى صدرها

إلا إذا أزعجها بكاؤها ، ولا تطلب الطعام في غداة ولا عشي ، ولا تتناول منه حين يقدم إليها إلا المصقة أو المصتين ، ثم ترضع بلعها عنه ، وتغر بها الساعات الطوال وهي ذاهبة بصرها في الساء لا يعلم إلا الله أين تنجب ، ولا ابن تتغلغل نفسها في ظلمات هذا الوجود ، فإذا ثابت نفسها إليها سألت البستاني هل أتاها كتاب ، أو سأل عنها أحد ؟ فيجيبها أن : لا ، فتعود إلى صمتها وذمها .

(٩٣)

قلب استيفن

أصبح استيفن بعد انقراض جرح قلبه عليه في تلك الليلة التي حدث فيها ماجدولين ثائراً مهتاجاً ، ولا يبدأ ولا يسريح ، ولا يسكن إلى نوم ولا يقظة ، ولا يبتأ باجتماع ولا خلوة فبدأ له أن يسافر إلى بعض مقامات الشمال ليروح عن نفسه هومها وآلامها ، فسافر سفرة طويلة زار فيها كثيراً من المدن واجتمع بكثير من علماء الموسيقى والمغنين وكتاب الروايات الغنائية الذين سمعوا به ولم يروه . فاحتفلوا به احتفالاً عظيماً وأجملوا مودته وعشوته ، ونظم في تلك السفرة بعض القطع الشعرية الجميلة ولحنها ولحن كثيراً من أغاني الروايات التشيلية التي لا تزال خالدة حتى اليوم ، فازداد صيته انتشاراً ، وبلغ من العظمة أوجها الأعلى واجتمع الذين سمعوا غناؤه أو توقيعه أن ساء ألتانيا لم تطلع فيها منذ مات « بهوفن » شمس مثل شمس ، ولا أشرق فيها نجم أسطع من أجمه ، وظل في حياته هذه بضعة أشهر حتى ورد إليه في أحد الأيام كتاب من أحد أصدقائه في كوبولانس يخبره

فيه خبر إدوار ، ويقص عليه قصة سفره وانتحاره ، فحزن عليه وعلى مصيره حزناً شديداً وبكاءه الذي لا يبسى أن ينسى في موقف الموت كل شأن من شؤون الحياة ، ولم يذكر له في تلك الساعة من ماضيه إلا شيئاً واحداً فقط ، وهو أنه كان صديقه ورفيق طفولته وصباه ، وأتيس وحدته في أيام يونس وشقائه لا يزيد على ذلك شيئاً ، ورأى أن لا بد له من العودة ليرى ما حل بمجدولين بعد نزول تلك النكبة بها ، وليرى إليها بد معرفته في بأسائها التي صارت إليها ، فسافر إلى كوبولانس فقص لها ليلة ، ثم ذهب إلى جوتنج وظل يسقط أخبارها حتى عرف عنها كل شيء . . . وعلم أنها تعيش مع طفلتها عيش اليأس والشقاء في الفرقة العليا التي كان يسكنها من بيتها الأول فسي في تلك الساعة وجدته عليها ، واستحال غضبه وقصته إلى رحمة وشفقة ، فركب عجلته في الصباح وسافر إلى ولقباخ حتى بلغها ضحوة النهار ، فأخذ في طريقه إلى بيت الشيخ مؤر حتى بلغه ، فسأل البستاني عنها فقص عليه مجمل قصتها ، ووصف له حياتها القرية التي نحياها منذ عادت إلى القرية ، وذكر له صمتها وسكونها ، وذمها واستراقها ، واستبداد المم بها استبداداً يكاد يقتلها ، ويأتي على حياتها فقال له استأذن لي عليها فلاني أحب أن أراها ، قال : إنها تقضي أكثر أوقاتها جالسة على ذلك المقعد الذي كنتما تجلسان عليه معاً في أيامكما الماضية ، وقد تركتها الساعة هناك ، فاذهب إليها إذا شئت ، فمشى إليها حتى رأها جالسة على الهيئة التي وصفها الرجل فلم تنتثر به حتى صار أمامها فانقضت إذ رآته اتفاعة ترابلت لها أعضاؤها ، وتساطت فيها نفسها ، فلم تستطع النهوض من مكانها ، ولرنج عليها فلم تطلق بحرف واحد ، فجلس بجانبها وقلبه يلذوب حسرة وأسى ، وأخذ

جزئياً عن نكبتها ، ويتوجع لما حل بها وعظها بالصبر على مصابها ،
فأثابت إليها نفسها شيئاً فشيئاً ، ونظرت إليه نظرة منكسرة وقالت
له : قد كنت أحثل هذه النكبات كلها بصبر وجلد لو أنك
عفوت عني يا استيفن .

فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه إليها وقال لها : أما العفو فإني
لا أستطيعه لأنني لا أستطيع أن أنسى ، فأصفر وجهها اصفراراً
شديداً ، وشعرت أن روحها تتسرب من بين جنبها قطرة قطرة
ونظرت إليه بيمين تترقق في إنسانيتها الفجع وقالت له :
ألا يذكرك يا استيفن هذا المكان الذي تجلس فيه بشيء من
ماضينا ؟ قال لا يذكركي إلا بشيء واحد ، وهو أنني شهدت
فيه ذلك المشهد الذي فضحني في جميع أماني وآلامي ، وقفل
قلبي ثقلاً لم يبق من بعدها حتى اليوم ، قالت إنك تقسو علي
كثيراً يا استيفن ، ولو شئت لرحمتني وأشفقت علي .

نظر إليها نظرة شديدة ، وقد غمطت أمام عينيه جميع الآلام
الماضية دفعة واحدة وقال لها : ذلك شأن المرأة في كل زمان ،
وفي كل مكان ، تزعم أنها ضعيفة واهنة ، وأن الرجل قوي
مقتدر ، فهي تسأله عن كل شيء ، ولا تسأل نفسها عن شيء ،
لم تكنوني قاسية عليّ يوم تزكيتني في هذا المكان وحدي منذ خمسة
أعوام أقاسي أعظم ما ناسى امرؤ في حياته من الموم والالام ،
وأخذت بيد عطفك على مشهد مني ومرأى وذعبت به إلى
غرفتك دون أن تلفظي إليّ التفاتة واحدة لترى ما حل بي من
بعلك ، وهل أنا باقى على قيد الحياة أم ذهبت النكبة بما بقي من
رمقي ؟ لم تكنوني قاسية عليّ أيام أرسلت إليك تلك الرسائل
التي ضرعت إليك فيها ضراعة لا تحفلها نفس من نفوس البشر

فأثابتها وأهملتها ، ولم تعني بدموعي الغزار التي سكبتها فيها ،
ولم تكني إليّ إلا كلمة واحدة بعد حين قطعت بها آخر خيط
كان في يدي من عيوب الرجاء ؟

إني لا أزال أذكر حتى الساعة أنك سألتني في تلك الرسالة
أن أتناسى ذلك الماضي ، وأن تحل الصداقة بيننا على الحب ،
فها أنا قد جئت إليك باسم الصداقة التي تواتقتا عليها منذ ذلك
العهد أتفقك وأتمهد شأنك وأهين لك حياة هنية تحببها مع
طلقتك في أي مكان نشأين آمنة عفوات الدهر ونكباته ما مد
الله في أملي ، فاستعيرت باكية ومدت يديا إليه ضارعة وقالت :
أهدأ كل ما بقي لي في قلبك يا استيفن ؟ لهاجت ووجهه مدامعها ،
وانبشت من مكانها في لحظة واحدة جميع حوافل قلبه المختلفة ،
وظلت تتناول نفسه واحدة بعد أخرى ، فذكر حبه إياها وحاجته
إليها ، وأنه لا يستطيع أن يعيش سجيناً في الحياة بدونها ، ثم
ذكر حياتها وغلدها ، وقسوتها عليه ، وزرايتها به وبآلامه
ودموعه ، فسمحت عاطفة الغضب من نفسه عاطفة الحب ، ولكنه
ما ليث أن رأى دموعها المهجرة على خديها ، ومنظر بؤسها
وشقاها ، وبديها المملودتين بالضراعة إليه ، حتى عاد إلى عطفه
وإشفاقه ، وحدثه نفسه أن يأخذها بين ذراعيه ، ويضمها إلى
صدره ، ويقول لها : قد نسبت كل شيء يا ماجدولين لتعالي
إليّ لأنني لا أستطيع أن أميش سجيناً في الحياة بدونك . ثم
مرت بخاطره مرور اليرق تلك الساعة التي وقف فيها على باب
غرفتها ليلة عرسها وسمعها تلقي بنفسها بين ذراعي زوجها
وتقبله وتستقبل قبلاه ، فارتدت في نفسه عاطفة العزة والأففة
التي لم تفارقه في يوم واحد من أيام حياته وقال في نفسه : إنني
لا أمد يدي إلى فضلات الرجال ، ولا ألبس أكفان الموتى .

وجهاً ذلك اللون الذي يثنى وجوه المتلذذين بالموت ، فغطت
ليانتها ساهرة بجانب مصباحها ، تكذب مرة ، وتلذذ صموغها
أخرى ، وتضم طفلتها إلى صدرها فيما بين ذلك ، حتى انصلح
عمود الصباح .

(٩٤)

الكارثة

قال فرتر لزوجته والشمس تشرف على الدنيا من وراء
خدرها والكون يمسح عن عينه سعة الكرى : أما أنا فلاني باق
هنا لأنني أريد أن أمطاد لاشيفين نوعاً من السمك قال لي صباح
الأمس إنه يجب أن يكون على مائدته اليوم ، واذهي أنت إليه ،
وانتظريه حتى يستيقظ ، ولا تأخذني سمك من الأولاد غير
طقلك الرخبع ، وأغلب ظني أنه لا يستيقظ من نومه إلا متأخراً ،
فقد عاد أس من تلك السفرة التي سافرنا إلى ولقباخ حزباً
مكتئباً كثير الهم والشجن ، فسأته عن شأنه فلم يخبرني بشيء ،
فجلست إليه أحدثه أحاديث مختلفة رجوت أن أسرى بها عن
نفسه ، فلم يصنع إليّ ، حتى انتصف الليل ، فأذنتي باللحباب
إلى منزلي ، فتركته وهو يعالج النوم فلا يجد سبيلاً إليه . قالت :
سكبن هذا الرجل ، ما أحسب أن أحداً شفى في هذه الحياة
شقاه ، أو لاقى فيها ما لاقاه ، والناس يحسونه سعيداً مقبلاً ،
ويحسدونه على نعمته وهنائه قال : نعم لقد فطنت ذلك الغرام
القديم بنفسه فتحة لا أحسب أنه يرى منها أبداً الدهر ، فوارحمناه
له ، ووا أسفاه عليه ، اذهبي إليه يا جوزفين وانتظري بقلته ،

وكذلك ظل يتقلب ساعة بين أيدي هذه العواطف المختلفة ،
وهو صامت مذهول ، وماجدولين ناظرة إلى شفتيه نظرة التهم
إلى شفتي قاضيه ، تنتظر تلك الكلمة التي تفصل في أمرها ،
فترفعها إلى سماء السعادة التي لا سماء فوقها ، أو تهوى بها في
مهواة الشقاء التي لا قرار لها ، ثم مدت يدها إلى يده فأخذتها
برفق وضمتها إلى صدرها وانثأت ثقلها ، وتبللها بدموعها ،
فتناسى في تلك الساعة كل شيء ، وحنا عليها وأهوى بنفسه إلى
فمها ، حتى إذا لم يبق بين تلامس شفتيهما إلا بحر الهواء بينهما
إذ سمعها تقول له وهي ترتعد بين يديه : أنت حياتي التي لا
حياة لي بدونها ، وهي بعينها الكلمة التي سمعها منها منذ خمسة
أعوام وهي تقولها لزوجها ليلة زفافها في غرفة عرسها . فما
رنت في أذنه حتى وثب على قدميه وثبة الفانج المخنبل . وانزع
يده من يدها ، ودفعها عنه دفعاً شديداً ، فسقطت تحت المقعد .
وقال لها بصوت شديد قارح : لم يبق لك في قلبي شيء . أيتها
السيدة منذ ذلك اليوم الذي وضع الكاهن فيه يده على رأسك
ورأس زوجك وبارككما ودقت على أثر ذلك أجراس الكنيسة
مؤذنة بانقضاء كل شيء .

ثم تركها مكانها ومضى غافض الطرف ، مطأطئ الرأس ،
حتى وصل إلى باب الحقيقة فرأى البستاني واقفاً في مكانه فأخرج
من جيبه كتاباً مختموماً وقال له : أعط هذا لاجدولين ، ثم ركب
عجلته وذهب في سبيله .

فمشى البستاني إليها فرآها ساقطة تحت المقعد تعالج سكرة
سكرة الموت فما زال حتى رجعت إليها نفسها ، فأعطاهما
الكتاب فأخذته من يده صامتة ، وصعدت إلى غرفتها وقد ليس

واحدري أن يرضجه بكاء طفلك ، وربما لحقت بك بعد قليل ،
 فذهبت حاملة طفلها على يديها حتى دنت من باب الحديقة فمرت
 على مقربة منها مرور البرق امرأة مقنعة في أخلاق رثة مشعة ،
 تسرع في مشيتها وتتعمّر في ذبلها ، فصجبت لأمرها ولكنها لم
 تحفل بها ودخلت الحديقة فراعها أن رأت بين يديها في دهليز
 الباب سقفاً صغيراً كأن به شيئاً يضطرب ، فذنت من فرأت
 طفلاً رضيعاً ملففاً بشيابه يمتص يدباً صناعية موضوعة بجانبه ،
 فذكرت تلك المرأة التي رأتها منذ لحظة تسرع في مشيتها كالخفاقة
 المدحورة ، وقالت في نفسها إنه طفلها ما من ذلك بد قد آمنت
 فيه وحاولت التخلص من عاره فأثقت هنا ، وهضت بالبستاني
 وكان يعمل في ناحية أخرى من الحديقة طابعا ، فسأته عن
 السقط ، فدعش إذ رآه وقال : إنه لم يره إلا الساعة ، فلم تر
 أن تصنع شيئاً دون أن ترى رأي استيفن . فذهبت إلى محده
 وأشرفت عليه فرأته مستيقظاً في فراشه ، فدعاها حين رآها .
 فدخلت إليه وقالت له : قد كنت أظن أنك لا تستيقظ اليوم
 إلا ضحوة النهار ، قال إني لم أم حتى الساعة ، فقصت عليه
 قصة السقط وأخبرته خبر المرأة المقنعة التي رأتها ووصفت له
 حالتها في اضطرابها وتحليلها فداخله رب عظيم . ونفض غطاءه
 عنه نفضاً وخرج مسرعاً في مبادله حتى بلغ مكان السقط فرآه
 ورأى الطفل في مضجعه من ، ورأى بجانبه هنا بيضاء فتأملها
 فإذا كتاب مخنوم . فأخذه وقرأ في عنوانه ، من ماجدولين
 إلى استيفن ، فقصه بسرعة وأمر نظره عليه إمراراً فلمح بين
 سطوره كلمة الموت ، فصرخ في وجه جوزفين : أين ذهبت
 تلك المرأة التي حدثني عنها ؟ قالت : ذهبت في هذا الطريق .
 وأشارت إلى طريق النهر ! فصرخ صرخة عظمى وقال : إنها

ماجدولين ، وإنما قد ذهبت إلى الموت ، وألقى الكتاب من يده ،
 وعدا عدواً شديداً حتى أشرف على النهر فرأى خلقاً كثيراً مجتمعين
 على ضفته وكلهم يشير إلى الماء بأصبعه ، فنظر حيث يشيرون
 فرأى الفرقة تضطرب في أيدي الأمواج ، وتمدد يديها ناحية
 الضفة كالستيفنة ، وكانت الزوينة نائرة ، والريح تمصف من
 كل جانب ، ورأى صديقه فرتر يحنث زوزقه إليها لإلقاها ،
 فأخذ يهتف ويقول : أدركها يا فرتر ، ألقها يا صديقي .
 إنها ماجدولين ، ثم نضا ثوبه عنه وهم بإلقاء نفسه في الماء ،
 فأشفق عليه الناس أن يصيبه مكروه فاعترضوا سبيله ، فدفعهم
 عنه دفعاً شديداً ، واتحتم النهر وظل يسبح وراء الزورق .
 والموج يدنو من مرة . ويتأني به أخرى حتى بلغه بعد لأي فنتشت
 به ، وكان الزورق قد دنا من مكان الفرقة والفرقة تعلقو وترسب .
 ويتسوج شعرها على سطح الماء مرة بعد أخرى .

في هذه الساعة . والقلوب خائفة ، والنفوس ذاهلة . والناس
 يهتجون بالدعاء مرة ويصرخون صرخات الفزع أخرى . ثارت
 موجة هائلة حول مكان الفرقة كالطود الشامخ . ولبت لحظة
 نبح وتصطخب . فصاح الناس بصوت واحد : رحمتك اللهم
 وإحسانك ، ثم انحسرت فإذا سطح الماء امس مسطح . وإذا
 الفرقة لا عين ولا أثر .

وما رأى استيفن هنا المنظر حتى جن جنونه ، وألقى بنفسه
 في الماء ، وغاص حيث غاصت فاندفع فرتر وراءه ، وهبط
 مهبطه ، وما زالا يرسبان مرة ، ويطلقوان أخرى ، ويصارحان
 في هبوطهما وسعودهما جياورة الأمواج صراعاً شديداً ، ثم
 انفرج الماء عنهما ، فإذا هما صاعدان يحملان الفرقة فوق

أبيهما ، ولا يملنان أحبة هي أم مبة ؟ وما زالوا يسبحان حتى
 بلغا الضفة فطرحاها ، وأكب الناس عليها يتسعون ضربات
 قلبها ، ويتلمسون أنفاسها ، واستيقن واقف ناحية بشخص يصره
 إليها ويستظر قضاء الله فيها ، ثم اتيه فإذا القوم جاؤون من حولها ،
 وقد رفعوا قباعهم عن رؤوسهم ، وأقبلوا يهمهمون بصلواتهم
 فلم أن الأمر قد انقضى ، فسكن للحادث سكونا عميقا لا تتخلله
 زفرة ولا أنة ، وجتا بجانب البلائين يصلي بصلواتهم ، ويدعو
 بدعائهم ، فأبكى منظره الناس جميعا ، وهالهم من سكونه
 وجموده فوق ما كان يورهم من جزعه زيكاته ، ثم أقبلوا
 ينصرفون واحداً بعد آخر ، حتى إذا لم يبق منهم أحد نهض
 استيقن من مكانه ومشى إلى الحفة فاحتملها على يديه وسار بها
 إلى المنزل ، وفرط بتمه صامتاً . فصعد إلى الطبقة العليا ودخل
 إلى تلك الغرفة الرقاه فأضجها على ذلك السرير الذي كان
 بالأسس سرير عرسها ، فأصبح اليوم لحدها الأخير .

وجتا على درجات السرير جني العابد على درجات الميكل ،
 وظل على حاله تلك بضع ساعات لا يطرف ولا يتحرك ، حتى
 حلت ساعة الدفن فنهض من مكانه وأكب على الحفة وكشف
 اللطاف عن وجهها ، وتناول من فمها تلك القبلة التي كانت تحرمها
 عليه الحياة ، حتى أحلها له الموت ، ثم سقط مغشياً عليه .

(٩٥)

من ماجلولين إلى استيقن

ماذا أصنع بالمال من بعدك يا استيقن ، بل ماذا أصنع بالحياة

جميعها بعد ما فقدتك ، واتقطعت أسباب دنياي من أسباب ذلك .

كنت أرجو أن أعيش لك ، وأن أؤدم إليك في مستقبل حياتك
 هناك أفضل من الهناء الذي كنت ترجوه في ماضيك ، لأنك
 بملك عن سبني التي أسلفتها إليك ، فعلت بيني وبين ذلك ،
 لأنك كنت واجداً عليّ ، وكنت ترى ألا بد لك من الانقسام
 لنفسك ، فقفيت بملك عليّ وعلى نفسك في آن واحد ، لأنني
 أعلم أنك تحبني ، وأنت لا تستطيع أن تنها بالحياة من بعدي .

كنت أشعر أن بين جنبي ثروة من الحب تملأ فضاء حياتك
 هناك ورغداً ، وكنت أرى أن في استطاعتي أن أمتحك في كل
 ساعة من ساعات حياتك من السعادة مالا تستطيع امرأة في العالم
 أن تمنحه رجلاً في الكثير من الأحوال ، ولم أكن أرجو على
 ذلك أجراً سوى أن أراك سعيداً بين يدي ، وأن أعيش بجانبك
 عيش الثبة الضيقة بجانب الدوحة العظيمة يفرح عليها قلبها ،
 ويتفرق عليها نسيمها .

لم تعف عني يا استيقن ؟ ووالله ما أحببت أحداً في الحياة
 غيرك ، ولا سكنت نفسي إلى عشرة إنسان سواك ، ولم يستطع
 الرجل الذي تقمت مني زواجي منه ، حاسني عليه حساباً
 شديداً أن ينتصر قوة واحدة من ذلك الحب الذي أصمرته لك
 في قلبي مذ عرفتك ، فلر أنتك أفضيت عز حقوقي ، وأذنت
 لحلمك أن يسع جهول ، لوجدت بين يديك فتاة عذراء بقلبيها
 وعواطفها لم تمسها يد ، ولا عبت بنواذرها طلت ، ولا فرق
 بينها وبين تلك الفتاة القروية الساذجة التي أحببتها في ولعناخ
 جياً جمعاً ، وعاهدتها على المحبة والولاء .

كانت الكأس مَرعة بين أدينا ، وكان منظرها جميلاً رائعاً
تأخذ العين ، ويهول له القلب ، وكان جديراً بنا أن نتساقها
قطرة قطرة حتى نأتي على القطرة الأخيرة منها ثم نموت معاً
سعيدين بنشوتها كما عشت سعيدين بنساقها ، ولكنت كنت شقياً
سيء الحظ فدفعتها عنك بقدمك دفقاً شديداً فكسرتها ، وأرقت
ما فيها ، فأصبحنا لا نجد لذة الحياة إذا عشنا ، ولا نهباً بضجة
الموت إذا متنا .

لم لم تعف عني يا استيفن ؟ وقد عاقبني الدهر بذنبك عقاباً
أليماً ، وأخذ لك مني فوق ما تستطيع أن تأخذ لنفسك بنفسك ،
فلسني الروة التي فتنتي عنك ، والزوج الذي مالأك على الغدر
بك ، والهاء من الحب التي كانت تلسع في قلبي فضني . ظلمته
إلى نار آكلة تحرقه وتضطرم في أمثاله ، وتخلخل في أمثاله وأطوائه ،
ولم يترك في موضعاً واحداً يسع عقوبتك وانتقامك .

أنتري يا استيفن من هي تلك المرأة التي جلست إليها بالأمس
تقرعها وتؤنبها ، وتمد عليها ذنوبها وآثامها ، وتتلذذ بمنظر ذلها
وضراعتها ؟

إنها لم تكن إلا شبحاً من الأشباح الضئيلة المتهافة . قد ذهب
الدهر بجميع قواها ، وضعف جميع سواها ومشاعرها ، ولم
يترك لها من آثار الحياة إلا عيباً تنظر ولا ترى ، وأذناً تسمع ولا
تعي . ونفساً ذاهلة عن كل شيء . حتى عن نفسها ، وروحاً تتسرب
من بين جنيتها شيئاً فشيئاً ذاهبة في سيلها .

تلك هي المرأة التي فسوت عليها ، ولم ترحم بوسها وضعفها
فنددت إليها يدك القوية القادرة وطعناتها ، وهي جريحة متخنة

تلك الطعنة النجلاء التي نفذت إلى قلبها ، وقضت عليها القضاء الأخير

قد غفرت لك كل شيء . يا استيفن ، لأنني أحبك . ولأنني
أعلم أنك ما فسوت عليّ هذه القسوة كلها إلا لأنك تحبني ،
فأمنحتني عفوك ومغفرتك وأنزلتني من نفسك المزلّة التي كنت
أزلقها من قبل ، والتي أبدل اليوم حياتي في سيلها ، فإن كنت
لا بدّ أخذاً الموتى بذنوبهم فلا تأخذ بذنبي تلك الطفلة البينة
المعكبة التي لا سند لها ولا عصب ، فهي وإن كانت ابنة المرأة
التي خانتك ، فهي ابنة المرأة التي أحببتك ، ولأنني أهيئها بكرمك
وفضلك أن تلوق طعم الشفاء على عهدك . أو أن تحمل بها كرامة
من كوارث الدهر بين سمعك وبصرك .

أطعمها وتصدق عليها . فطللاً أحسنت إلى أروبا من قلبها .
واجعل لها من صدرك الرحيم ملجأً يجد فيه حنان الأم ، ورحابة
الأب ، ولا تكلها إلى نفسها تصارع أهوال الحياة وآلامها فتصرعها
وتول بنفسك أمرها في الساعة التي تجتاز فيها تلك العقبة الكبرى
من عقبات الحياة حتى لا تسقط سقطت تشقى بها أهد الدهر ،
واذكر لها دائماً أن أمها كانت تحبها حباً جماً ، وأنها ما آثرت
الموت على الحياة إلا لأنها عجزت عن أن تعيش بمجانها ، ولأنها
كانت شقية مرزأة فأشغقت عليها أن يقيش لإيها سهم من سهام شقائها .

الوداع يا استيفن ، الوداع يا أحب الناس إليّ . اني أفارق
هذه الحياة وأنت آخر من أفكر في ، وكل ما أسف عليه ، فأذكركني
ولا تنسى ، وتمهد بالزيارة قبوري من حين إلى حين ، إن كان مقدراً
لي أن يكون لي قبر على ظهر الأرض ، واحفظ بالودعة التي
أودعتك إياها فهي تذكاري الدائم المقيم عندك ، وليهون عليك

فقدني أن روحي قد امتزجت بروحك امتزاجاً لا يبره فناء ولا
بل ، فلئن فرقت بيتنا الأكليل في هذه النار فستلتي في النار
الأخرى لفناء لا يتخلص عليا موت ولا فراق .

الوداع يا استيفن ، وآخر كلمة أقولها لك في آخر ساعة من
ساعات حياتي : «إني أحبك ، وإني أموت من أحبك» .

(٩٦)

القصة

استطاع استيفن أن يستيق من غيبته في أوّل اليوم التالي ،
ففتح عينيه ودار بهما حوله فرأى فرتر وزوجه وأولاده جلوساً
تحت قلمبه يكونه ويتوجسون له ، فظل شامساً بصره هنيهة ،
ثم انفتحت إلى فرتر وألقى عليه نظرة طويلة وقال له : هل دفنتموها ؟
فأطرق فرتر واجماً وقال بصوت خافت : نعم يا سيدي منذ
الأمس ، قال : وأين طفتها ؟ قال : قد كفلتها جوزفين ، وهي
تتولى إرضاعها مع طفلتها . قال : وأين ذلك الكتاب ؟ قال :
ها هو ذا يا سيدي ، وأعطاه إياه ، فأمره بالانصراف إلى منزله ،
فانصرف هو وأسرته ، فلما خلا استيفن بنفسه أخذ يقرأ الكتاب
ونفسه تتظاهر لوعة وأسى ، حتى فرغ منه ، فيكى ما شاء الله
أن يفعل ، ثم أخذته كلمة شديدة للعلل عن نفسه وظل مستغرقاً
في شعوره بضع ساعات حتى انتصف الليل ، فلما من مكانه بطفه ،
وكانه طاف بهفه طائف من الجنون ، وخرج إلى الحديقة فمشى
في أمثاليها يسمع فلم يشعر بجرعة ورأى البستاني قائماً في غرفته

ورأى فأسه على بابها فتناولها وفتح باب الحديقة بهدوء وخرج ،
فلما استقبل القضاة أخذ سمته إلى القبرة حتى بلغها ، وكان الجو
مكثهاً والريح عاصفة والسحب تعجب وجه القمر ولا تنحسر
عنه إلا حيناً بعد حين ، ثم لا تلبث أن تعود إلى تراكبها وتكاثفها ،
وكان يحيط بالقبرة من جهاتها ثلاث سور متهدم كبير الثمرات
والصخوات ، ويمتد مع جهتها الرابطة نهر جوتنج ، وقد قامت
على ضفته أشجار عالية غيابة تعصف الريح بفروعها وأوراقها
عصفاً شديداً فيتألف من ضيفها وخزير ماء النهر الجاري بجانبها
صوت غليظ أجش يملأ القلوب روعة ورهبة ، فلم يزل استيفن
سائراً في طريقه حتى لاح له رؤوس تلك الأشجار ، وسمع
خفيف أوراقها ، وخزير المياه المتلطفة من تحنها ، فغفل إليه
أنها أشباح سوداء من الجن تتقدم نحوه في جوف الليل راقصة
منزحة ، وتقدم بأصواتها المنيقة المرعبة ، فمشت في جسمه
رعدة الخوف إلا أنها لم تنمعه من المضي في وجهه فاستمر في
سياله حتى دخل القبرة ، وكان القمر يظهر حيناً فيرشده إلى
الطريق ، ثم لا يلبث أن يتوارى في غمار السحب فيقف عن
المسير ، فلذا تراءى له رأى على ضوئه نواويس الموتى ، وقد
جفت فوق تربتها تلك الأشجار القصيرة التي أضفل غلرسوها
أمرها بعد أن بلى في قلوبهم حزمهم على موتاهم ، ولم يزل يتصفح
أوجه القبور حتى رأى بين يديه قبراً حديثاً لا تزال تربته محضلة
فأكب عليه يتصفح جوانبه فقرأ على أحدنا على شعاع ضيف
يعد إليه القمر في تلك الساعة سم ماجدولين ، فجثا على ركبتيه
وهمهم بصلاة قصيرة ، ثم نهض قائماً على قدميه وتناول القاس
التي أتى بها معه وسرب بها الأرض ضربة شديدة ، فلم يسمع
لضربته صوتاً لشدة عصف الرياح وزيفها في تلك اللحظة .

ثم أخذ يجر حتى ضرب ضربة أخرى رنت رنيناً شديداً ملأ أرجاء المقبرة. فالتفت يده ، وبرد دمه في عروقه ، وسقط على ركبته ، وسقطت القأس من يده ، لأن الضربة كانت قد أصابت الثابت الذي يجوي الجنة ، فخلل إليه أنها أصابت جمجمة الميتة ، وكان القمر قد برز من وراء غمامة في تلك الساعة وأضاء المقبرة كلها ، فمثل له أن القبور قد فتحت جميعها ، وأن الموتى قد أخرجوا رؤوسهم منها ، وأغلوا بنظرون إليه بعيون ملتفة متوقفة ، فطار من رأسه ما بقى فيه من الصواب وترك القأس مكانها ، وركض ركضاً شديداً ، وهو يتخيل أن الموتى يتأرونه ويركضون وراءه حتى وصل إلى المنزل منظره؟ من الكلال ، وهو يصيح : ما كفاني أن تفتلها حتى مثلت بها ، وسع البستاني صيته فاستيقظ وذهب إليه فرآه على تلك الحالة ، فقال له : ما بك يا سيدي ؟ فهذا قليلاً عندما رآه ، ونهض من مكانه وقال له : البغي ، فيه الرجل صامتاً لا يعلم أين يريد ، حتى بلغ المقبرة ، وكان القمر لا يزال مشرقاً في جنباتها فمشى إلى ذلك القبر فالتفت عليه ، فرأى أثر القأس في الثابت ، ولم ير شيئاً مما كان يتخيل ، فسكن وهداً ، وعلم أنه إنما كان في ثورة من نوبات الجنون ، فأمر الرجل أن يعيد التراب إلى ما كان عليه ، فأعاد ، ثم أمره أن يأخذ رأسه ويعود إلى المنزل ففعل ، وجنا هو بجانب القبر يلتم تربته وأثره ، ويلصق عنده بصفاحه وأحجاره ، ويكي بكاء شديداً حتى اشتدت نفسه ، ثم انصرف لسيه . وهو يقول : قد كنت أرجو أن أدفن بجانبك يا ماجدولين فلم أوفق إلى ذلك وأحسب أن ذلك مني غير جيد .

وأصبح منذ ذلك اليوم غائر النفس ، متخضب الصدر ، كئيباً مستوحشاً ، ينظر إلى الحياة وما فيها نظر الغريب التازل بقدر لم

بطرفها من قبل ، ولم يأنس بالمقام فيها ، فهو بعد عدته للرحيل عنها ، ثم ما زال يلجج به الأمر حتى أصبح يستوحش من الناس ، ويتبرم بمرآهم ، ويستكر سماع أصواتهم ، فانقطع عن الاختلاف إلى من كان يختلف إليه من أسدقائه ومعارفه ، وأبى أن يقابل أحداً من زائريه . وأمسى لا يفارق تخياله في نومه ويقظته وذمابه وجيته منظر ماجدولين ، وهي تغرق في التهر ، ولغداثها الذهبية الصفراء طافية على وجه الماء ، ويدها تتحركان حركات الاستغالة فلا تجرد مغبياً ولا مغبياً ، فكان يجد في نفسه لتلك الذكرى ألماً محضاً يقيمه ويقعده ويلعب براحته وسكوته ، فيصرخ كلما تراءى له ذلك الخيال : نعم أنا الذي فتلتها ، وانتزعت حياتها من بين جنبيها ، وفرقت بينها وبين قللة كبدها ، فويل لي ، ما أشقائي ! وما أسوأ حظي ! لقد كتب لي أن أقتل بيدي جميع الذين يحبونني على ظهر الأرض ، وأن أبقي من بعدهم شقياً معذباً أبكيهم وأندبهم . لا أستطيع أن انساهم ، ولا يقبض لي أن ألحق بهم .

ولقد استيقظ صباح يوم من الأيام صبيح الصدر ، كثير الضجر ، فخرج من المنزل هاتماً على وجهه ومشي في طريق ممهدة بسين المزارع لا يلتفت أين يذهب ، ولا أي غاية يريد ، واستمر به المسير بضع ساعات فإذا هو أمام قرية ولغياح فهاجت في نفسه تلك الذكرى الماضية ، ومشي إلى بيت الشيخ مولر ، فراه وأدهته أنه لم ير أثراً لتلك البيت ، ولا لتلك الحديقة ، فلا عرف ولا قيمان ، ولا سقف ولا جدران ولا أشجار ولا أغراس . بل رأى أنقاضاً مبعثرة ، وجلوعاً متناثرة ، وأحجاراً ذاهية ههنا وههنا ، فلم أن مآك البيت ، الحديدي قد هدمه ، وانتزع أشجار حديقته وأغراسها ، فأحزنه المنظر وآله ، ووقف أمامه مطرفاً حاشعاً وقوف العابد أمام محرابه ، ولثلى والدروس جلال

في النفس فوق جلال الجدة والعمران ، وظل على ذلك ساعة ، ثم أخذ يندور بعينه في تلك المرصات الخالية وينلس أثرًا من آثار تلك العالم التي قصي فيها أيام سعاده الأولى ، كما ينلس الساري في ظلمة الليل نجمة القطب في أطباق السحب ظم يعد شيئاً ، فهتف صارتاً : ماذا صنع الدهر بي وبها ؟ لقد أثكلتها وأثكلني كل شيء . بعد ما حتى آثارها ، وظل يتأجج تلك الأطلال النوارس ، ويستنطق نوبها وأحجارها ويسألها عن أهلها وساكنيها فلا يجيبه غير الصدى المتردد ، حتى عي بوقفه ، فانصرف ولقلبه وجبات كأنها شقائق برق في السماء لوامع .

(٩٧)

بيتهوفن

انقطعت أخبار استيفن عن كوبلانس وأنديتها وعجاسها ، وكان غرة جيبها المثلثة ، وشمس جمالها الساطعة ، فتأملت من أسرارها ومعارفه وصنائع أياديه وفواضله ، والمعجبون بذلكته وشوذه ، حتى عرفوا قصته ، وما كانوا يعرفون شيئاً منها قبل اليوم ، فهالهم الأمر وتماظمهم ، وأشفقوا أن تختطف يد الدهر من أيديهم تلك الحياة المنصورة الزاهرة التي لم يمتنعوا بها إلا قليلاً من الأيام ، فمضى بعضهم بذلك إلى بعض ، واجتمع منهم جمع عظيم ضم بين حاشيته كثيراً من كبار الموسيقين ونوابغ الممثلين ورجال الشعر والأدب ، فأجمعوا رأيهم على زيارته في قريته ، وألا يزاولوا به حتى يهجر عزله ويعود إلى حياته الأولى بينهم ، فكتبوا إليه أنهم وافقون لزيارته غداً ، ثم ركبوا في أصل اليوم

الثاني عجلاتهم . واستصحب كثير منهم لساعدهم وفتياتهم ، وذهبوا إلى القرية فاستقبلهم استيفن على باب داره باسمًا متطلقاً كأنه لا يضر بين جنيه لوعة ولا أذى ، وكان قلبه لا يلذوب بين أصالته فوب السيكة في يوتفتها ، فقطعوا فيه إذ رأوه .

وخيل إليهم أنه قد برئ مما به أو كاد وأن هذه الصغرة الرقيقة التي لا تزال تليس وجهه إنما هي أثر من آثار ذلك الماضي سيلعب مع الأيام وكان قد أعد لهم في الحديقة مائدة عظيمة للعشاء ، فجلسوا إليها وكانوا نيقاً وثلاثين رجلاً وامرأة وجلس هو بينهم يخدمهم ويترقبهم بلحمه ونواذره ، ويحجب في أحاديثه معهم كل ما يتعق بكارثته ، فلم يجرؤ أحد منهم أن يفاتحه فيها حتى فرغوا من الطعام فصرقوا في أنحاء الحديقة زمراً زمراً يرتاضون ويسمرون . حتى مضت قطعة من الليل فاقترح أحدهم أن يؤتى بالبيانو إلى فضاء الحديقة ليوقع عليه من بشاشتهم . فأتى به ، فجلس إليه الموسيقي « فرديريك » ووقع عليه لحناً من ألحان « موسيقار العظيم » بيتهوفن ، فطرب له السامعون طرباً عظيماً ، وقال أحدهم : لقد كان بيتهوفن الرسول الإلهي الذي بعث الله إلى البشر ليخاطبهم بلغته ، فهو الرجل الذي استطاع وحده من دون الموسيقين جميعاً أن يتلق بلسان الطبيعة ، ويردد أنغامها وأهازيجها وأن يكون في غنائه هادئاً كاللؤلؤ ، وصافياً كالسما ، وعميقاً كالبحر ، وصادحاً كالطير ، وصادقاً كالنجم ، فقال الموسيقي « مورات » نعم ، ولكنه كان سيء الحظ عائر الحد ، فقد قضى حياته فقيراً معدماً يسمى إلى الكفاف من العيش فلا يجده وخاملاً مغموراً ، يطلب الشهرة من طريق الفن فلا يظفر بها ، حتى مات شريداً طريداً في وطن غير وطنه ، وبين قوم وأمة غير قومه وأسرته ، فقال الشاعر : « سيدروف » من منكم يحفظ تاريخ حياته الأخيرة فيقصه علينا ؟ فقال استيفن : أنا أقصها عليكم ، لأن أطم الناس به فقد كان أستاذي « هومل » ورحمة الله عليه

صديقه الذي عاشه في آخر أيام حياته حتى مات وتولى دفنه بيده .
وكان كثيراً ما يقص علي ذلك التاريخ وهو يبكي بكاء شديداً فأنا أرويه
لكم كما كان يحدثني به ثم أقبل عليهم وأنا يقول :

لقد قسا الدهر علي يتيهوفن نسوة عظمى لم يقسها علي أحد من قبله
من رجال الفنون والآداب ، فقد وضع للعالم تلك الموسيقى المساوية
العالية التي حاكميها الطبيعة في نعماتها ودناتها ، وصور فيها أدق
عواطف القلوب وغوايها ، فلم يحفل بها الناس كثيراً ، ولم يأنسوا لها ،
وكانوا قد ألفوا قبل ذلك تلك الموسيقى الصناعية المتكلفة التي كان يتأقن
الموسيقيون المأخوذون في تسقيها وتديبها تأقن التحات في صنع التمية
الجميلة التي لا روح فيها ، وانتقوا بها انتقائاً عظيماً فلم يستطيعوا أن
يلهموا غيرها أو يشعروا بشيء سواها ، ولم يكن مصابه يجهل الناس إياه
واحتقارهم له بأقل من مصابه بمسح حساده من أبناء حرفته ، واضعافهم
عليه ، بل لم يكن له مصاب غير هولاء ، فهم الذين تقفوا في وجهه ،
واعتزوا سبيله ، واستقبلوه حين وقف عليهم بتلك القيثارة الجميلة
الرنانة بأبسامات المزم والسحرية . وذهبوا كل مذهب في النيل منه ،
والولع به ، والنفض من شأنه ، وما كانوا يجهلون فضلهم ومقداره ، وقيمة
ما استحدثه في الفن من بدائع المبتكرات وغرائبها ، ولكنهم عجزوا
عن الصعود معه إلى ذروته التي صعد إليها فلم يكن لهم يد من أن يثيروا
حول كوكبه الساطع المتألله في سماء الموسيقى هذه الغيرة السوداء من
إتساب والطامع ، فلا يرى الناس أشعته ، ولا بإمكانها حتى أن يعابدين
نفسه وكان أكثرهم اعتدالاً وأدناهم إلى العدل والإنصاف لم يستطع أن
يسمح لنفسه بأن يقول عنه في تفريلته أكثر من أنه « عازف ماهر »
فكان مثله في ذلك مثل من يقول عن شاعر مثل شاعرنا « جيتيه » إنه
« يحسن الإملاء » !

ولم يزل هذا شأنهم مع حتى نفصوا عليه حياته ، وذهبوا براحة
نفسه وسكونها وملأوا قلبه وساوس وأوهاماً ، فساه ظنه بنفسه وأصبح
يرتاب معهم كما يرتابون في اقتداره وتبوغه ، ولولا أن صديقه دهمل
كان مرآته الصادقة التي يرى فيها نفسه من حين إلى حين لتفص يده من
الموسيقى نفص اليأس للقائط ، ولحزمت الأمة الأثابة هذه القيثارة
البيدعة الساحرة التي لم يخلق قطها شيئاً في العالم منذ خلقت الدنيا حتى اليوم
فويل للاشرار الخبيثاء ، ماذا كانوا يريدون أن يصنعوا وماذا كان يكون
شأن الموسيقى في العالم لو تم لهم ما أرادوا ؟

ولم يستطع يتيهوفن أن يصبر طويلاً علي هذه المظلمة القادحة التي
ناكته وضاق ذرعه بتلك التفتريات المؤلمة التي أصبح الناس ينظرون بها
إليه كلما مشى في طريق أو ظهر في مجتمع ، فلم يطق القيام بينهم ، ولا
العيش فيهم . فظل ينتقل في أنحاء البرد غلواً ورواحاً ، لا يهبط ببلدة
حتى يطير به الفجر إلى غيرها ، ولا تطلع عليه الشمس في مكان
حتى تقرب عنه في مكان آخر ، وكان له في ميلاد أمره ثروة صالحة
يعود بها علي نفسه وذوي قرياه ، ولكنه كان من أصحاب الملكات
الشعرية والشعر والحزم لا يجتمعان في رأس واحد ، فلم يزل به إسراره
وتحرقه حتى أصابها ، فأصبح لا يملك أداة من أدوات الرزق غير
قيثارته ، وقيثارته سلفه كاسدة في سوق الفنون لا يبتاعها منه أحد ،
فزهد المجامع والمحافل وعاف المدائن والقرى . وفر بنفسه إلى الغابات
والأحراش وقسم الجبال وضفاف الأنهار ، وهناك في خلواته ويمزلاته
حيث لا يسمع صوتاً غير الطبيعة ، ولا يرى وجهاً غير وجه الله ، أخذ
يبت قيثارته الآله وأحزانه ويسكب مدامه التزيرة بين متاليها ومثالها
ويضع وهو جاثع طاو صفر اليد والأحشاء تلك الموسيقى العظيمة التي
يعيش الموسيقيون اليوم بهركتها عيش السعداء ، ويتعمون في ظلها بنعمة
العيش الرغيد .

وكثيراً ما كان يستمر به المسير حتى يصل إلى جزر الدانوب فيهم
على ضفاف ذلك النهر أياماً طويلاً لا يفرش إلا العشب ، ولا يتحف
غير الطل ، ولا يطعم إلا ما يقذف به إليه النهر من أحيائه ، حتى يعبر
به صليته « هومل » فيعود به إلى الممران .

ولم يتفق الدهر منه بذلك حتى رماه في أنهر أيامه بالصمم ، فلم
يأسف لهذه التكبيرة كثيراً ، بل قال في نفسه : إني أحمد الله على ذلك فقد
كفاني نصف شرور الناس فلمه يكفيني نصفها الآخر ، فلا أرى في
وجودهم ولا أسمع أصواتهم . ولقد صدق فيما قال ، فقد أهدت الناس
يسمونه بعد نزول تلك الكارثة به بالموسيقى المجنون ، فلم يسع شيئاً
بما يقولون .

وأصبح منذ ذلك اليوم هادئاً ساكناً لا يشكو ولا يتعجب بسل لا
يشعر ولا يتلم ، وذهب إلى غابة قريبة من مدينة « بادن » لعاش فيها
وحيداً مفرداً لا يسمع إلا صوت قلبه ولا يصغي إلا لتلك التنفسات
الداخلية التي تتردد بدون انقطاع في أمان نفسه ولا يرى أحداً من
الناس غير صديقته « هومل » من حين إلى حين ، فإذا جاءه طرح عليه ما
وضعه من الأكلان فيحمله عنه إلى الناس من حيث لا يشعر وهو باقي في
مكانه لا يفارقه .

وكان الناس قد أصبحوا بالقرن أنغامه بعض الشيء ويصغون إليها
لا لأن حساده قد هدأوا عنه ، أو انتظروا عن مناوآته والغض منه ، بل
لأن تظيعة سلطاناً فوق سلطان الضعائين والأحفاد ولأن السحب المطيعة
في آفاق السماء لا تستطيع أن تظفي نور الشمس ، بل تحجب ضياءها
عن العين لحظة من الزمان ثم لا تلبث أن تتشع عنها فإذا هي ملء العين
والانتظار .

ولم يقض في عزله هذه زمناً طويلاً حتى ورد عليه كتاب من ابن
أخت له في « فيينا » كان قد نبأه في صغره وأحبه كثيراً يقول له فيه :
إني منهم بتهمة عظيمة لا سبيل لي إلى الخلاص منها إلا بحضورك ،
فصاح إليه دون أن يقابل صديقه « هومل » ولم يكن معه من المسال ما
يقوم بتفقات سفره ، فكان يمشي على قدميه حياً ويركب عجلات الثقل
أحياناً ، حتى نال منه الجهد ، وأصبح عاجزاً عن المسير ، وكان الطريق
إلى « فيينا » لا يزال بعيداً فمر ذات ليلة بيت منفرد في ظاهر إحدى
القرى فوقف ببابه وأخذ يقرعه قرعاً خفيفاً فخرج إليه صاحب البيت
وسأله : ما شأنه ؟ فقال له : إني شيخ أسم غريب عن هذه الديار وقد
أظللني الليل وعجزت عن المسير فلا أستطيع المضي في سبيل ، فإذن
لي بمضجع آوي إليه بقية ليلتي ، وإن شئت فأمر لي بكسرة خبز أسد
بها رمقي فأشفق عليه الرجل وأوى له وأحمله من بيته أكرم عمل وأسماه
وكان للرجل إستان في سن الشباب فقامتا بين يديه فحمله حتى رجعت
إليه نفسه فدعوه إلى المائدة فأكل معهم ، ثم مشى إلى مصطل في أحد
أركان القاعة فجلس إليه يصطلي ويحف ثيابه وكان صاحب البيت من
المولعين بالموسيقى والمغربين بتوقيعها ليلتهم ونهارهم ، فما فرغ من
الطعام حتى جلس أمام « بانو » وأخذ يقلب دفتر الموسيقى الذي بين يديه
حتى وقع على ما يريد ، فأشار إلى ابنته أن تأخذ فيثارتيهما ففعلتا .
وأخذوا يعزفون جميعاً بنغمة واحدة فالتفت بينه وبينهم فوجدوا لم
يسع من غنائهم شيئاً وكل ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك
الحن الذي يوقعونه سلطاناً عظيماً على نفوسهم فقد وآ متأثرين عند
توقيعه أثرأ شديداً ، ورأى صاحبة البيت وخادمتها قد تركتا ما كانتا
يشغلتان به من شؤون البيت وأعماله ووقفتا للاستماع وقد سكنت أطرافوا
وتأمل وجهاهما ، وذهبتا يبصرهما في السماء كأنهما تتبعان أثر تسلك
التعدت في طريقها إلى الملاء الأعلى ، حتى انتهت القطعة فاغرورقت

عينا الفتاة الصغرى بالدموع ، وألفت الكبرى بنفسها بين قواصي
ألمها وبكت بكاء شديداً .

فتنهض بيتهوفن من مكانه ومضى إليهم وقال لهم - إنني لم استطع
أن أسمع شيئاً من ألمانكم أيها الأصدقاء ، ولكنني استطعت أن أفهم أنها
ألحان جميلة مؤثرة فتأثرت منكم وطربت لظربكم ، ولقد كنت قبل
أن تحمل لي هذه النكتة التي ترونها أحب الموسيقى حباً شديداً ، ولا يلد
لي في الحياة شيء مثل استماعها ، فهل تأذنون لي أن أنظر في دفتر
الموسيقى لأقرأ القطعة التي كنتم ترقعونها ؟ فأولموا إليه بالإيجاب فأكب
على الصحيفة فما وقع نظره على القطعة ورأى اسم صاحبها في رأسها
حتى اصفر لونه ، وارتعدت يده وارتفض جيبه عرقاً ، ثم أخذ يبكي
بكاء شديداً ، فالتفت القوم إليه ، ونهضوا من مكانهم مذهورين ،
وأحاطوا به يسألونه ما خطبه ، فأشار بأصبعه إلى عنوان القطعة فلم
يفهموا ما يريد ، فقال لهم : إنها قطعتي أيها الأصدقاء وأنا الموسيقي
بيتهوفن ، فدعشوا جميعاً ، وظلوا يتظرون إليه باحثين مذهولين ، ثم
رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وجثوا بين يديه خاضعين متخشعين ،
وتناولوا يده وأخذوا يقبلونها واحد بعد الآخر ، فكانت هذه الساعة
هي الساعة الوحيدة التي ذاق فيها لذة الاحترام في حياته ، وكانت هي
بميتها الساعة التي رفرغ على رأسه فيها طائر الموت فقد شعر تلك
اللحظة بوخزة مؤلمة في جنبه ، فانساق في مكانه ، فظفوه على أيديهم ،
واحتلوه إلى سريره ، وسهروا بجانبه الليل كله يطلونه ويستشقون له ،
فيستيقن مرة ، ويستغرق في شئبة أخرى ، حتى الصباح .

وكان صديقه هومل قد عرف أمر سفره فتبعه في الطريق التي سلكها
وظل يسأل عنه في كل مكان حتى عرف القرية التي وصل إليها ،
والبيت الذي نزله ، فصعد إليه فراه في سكرته التي يعالجها ، فيجلس

بجانبه يبكيه وينوجع له حتى انتهى له بيتهوفن بعد حين . فابتسم له إذ
راه وقال له : هل جئتني بقيثارتني يا هومل ؟ قال نعم يا سيدي وما هي
ذي ، فتناولها منه وتناعض متكاتا على إحدى يديه ؟ تمكن من الجلوس
وأنشأ يوقع على مسح من القوم لحنة المحزن المشهور « رب لم أشقيني
وما أشقيت أحداً من عبادك » فما أنه حتى ارتعدت يدها وجحقت
الموت . ثم فتح عينيه بعد لحظة فرأى صديقه هومل فأمسك بيده ونظر
إليه نظرة طويلة وقال : ألم أكن في حياتي عظيماً يا هومل ؟ قال :
على أكبر من عظيم فتהלل بالبشر ووأكبر من عظيم فتهلل وجهه بالبشر
وأسيل عينيه وهو يقول « الآن أموت سعيداً ؟ ثم قضى !

وفي اليوم الثاني حمل ذلك الرجل العظيم إلى مقبرة تلك القرية الحثير
مدفن فيها ، ولم يشج جنازته غير صديقه هومل وأفراد تلك الأسرة
التي مات بينها ، وكان هذا كل حظه من الحياة .

(٩٨)

لحن الموت

ما وصل استيفن في حديثه إلى هذا الحد حتى اصفر لونه ، وتدفق
جيبه وأطرق برأسه إلى الأرض ، فالتفت إليه القوم فإذا هو واضع يده
على قلبه ، وإذا دموعه تنحدر على خديه متتابعة ، فقال له أحدهم :
ما بك يا استيفن ؟ فرقع رأسه بعد هنيهة وقال : إننا أبكي على هذا
الرجل المسكين الذي عاش في حياته شقياً ومات مسكيناً ، ولم ينس له
الدهر في يوم من أيام حياته ابتسامة واحدة بكافته بها على يده التي أسدا
إلى هذا المجتمع ، وكأننا قد كتب للعالمين على وجه الأرض جميعاً أن

يعيشوا فيها عيش الأشجار العظيمة في الصحارى المحرقة ، تظلل الناس
بوارف ظلها ، وهي تصطلي حر الهاجرة وأوارها ، ولو أن القسدر
انصفهم ووفاهم أجورهم لما شهد أحد في الحياة سعادتهم ، ولا هنيء
فيها هناءهم .

قصت القوم جميعاً ، وقد شعروا أنه إنما يحدث عن نفسه ويرسل
في حديثه بعض الزفرات التي تتلجج في صدره .

ولهم لذلك إذ نهض من مكانه بعتة ومشى بقدم هادئة مطمئنة
حتى وصل إلى كرسي البيانو ، فجلس عليه ثم التفت إلى القوم وقال
هم : هل تأذنون لي أيها الأصدقاء ، وقد قصصت عليكم تاريخ حياة
بيتهوفن أن اسمكم لحنة الأخير الذي وقعه في آخر ساعات حياته ؟
فتهللت وجوههم فرحاً ، وقد ظنوا أنه إنما يريد أن يسري عن نفوسهم
تلك الكتابة التي غشيتها منذ الساعة ، فقالوا جميعاً : نعم !

فبدأ يوقع ذلك اللحن « رب لم أشقيني وما أشقيت أحداً من عبادك
ويغنيه بصوت ضعيف خافت ، ثم أهدت عواطفه تشتمل شيئاً فشيئاً ،
فلا صرته وأنشأت نعماته تنتشر في أجواز القضاة ، فسمع القوم
تلك الموسيقى السماوية العالية التي لم يخلق الله لها مثيلاً ، والتي هي غاية
ما أنتجه العقل البشري ، فأطرقوا برووسهم لإجلال هذه العظمة المشرقة
عليهم من سماها ، وعجل إليهم أنهم لا يرون بينهم متقياً يوقع على
أوتاره ، بل ناكلاً متضجماً يلفر مداممه ويصعد زفراته ، حتى
الموسيقى « مورات » همس في أذن أحد الجالسين بجانبه قائلاً : إن
الرجل لا ينبغي بل يموت ولذي أشم من أنفاسه رائحة الكبد المحترقة ،
وكان كلما استمر في غناؤه اشتد تأثره وانتهت عواطفه ، وتلون صوته
بلون الأنين المحزون ، حتى فني عن نفسه وعمّا حوله ، واستولت عليه

حالة غريبة من الدهول والاستفراق .

وما أتى على النعمة الأخيرة ، وكادت أعلى النغمات وأطولها وأذهبها
في أجواز القضاة ، حتى نهض القوم جميعاً على أقدامهم وانحدوا
بصفقون تصفيقاً شديداً ويهتفون « ليحيا استيفن » .

ولهم ليصفقون هذا التصفيق الشديد ويدعون له بالحياة الطويلة ،
يندفعون إلى مكانه لتنتهه وتمجيدته ، إذا بهم ينظرون إليه فيرونه
مائلًا برأسه على ظهر كرسيه ، وقد اقتشر وجهه ، وتغيرت سحته ،
وأمسك بكفنه على أحشائه ، فطارت ألبابهم ، وطاشت عقولهم ، ومرت
بخواطرهم جميعاً مرور البرق تلك الصورة التي مات عليها بيتهوفن في
قصته التي قصها عليهم منذ الساعة ، فشاهموا وانقبضت نفوسهم ،
وأحاط به جماعة منهم فاحتلوه إلى سريره ، وحضر الطبيب ففحصه
ثم نظروا إليهم نظرة اليأس ، فأطرقوا واجمين مكثيين واحتاطوا بسريره
ينظرون قضاة الله فيه ، ففتح عينيه بعد ساعة ودار بها حوله ونطق
باسم « فرتر » وكان حاضراً فلباه ، فنظر إليه طويلاً ثم نطق باسم
« ماجدولين الصغيرة » فما لبث أن جاءه بها ، فضمها إلى صدره وقبلها
قبلة امتزجت فيها عاطفة الرحمة بعاطفة الذكرى ، وظل ينظر بعينيه
إلى السماء مرة وإلى فرتر أخرى ، كأنما يوصيه بالطفلة ويستشهد الله
على ذلك . ثم التفت إلى القوم وقال بصوت ضعيف متهافت : « أشهدكم
أيها الأصدقاء أن جميع ما تملك يدي سمة بين هذين » وأشار إلى فرتر
والطفلة ، ثم عاد إلى ذعوله واستراقه وأمسك بيده وظل على
تلك ساعة ، ثم فتح عينيه مرة أخرى ، فرأى القوم يبكون من حوله
يرتجفون له ، فمرت بشفته إبتسامة خفيفة ، كأنما اغضب بمنظر تلك

شبا فتحابا حباً شريفاً طاهراً فانتهى بهما الأمر إلى الزواج فعاشا أسعد
 عيشة وأنهاها . وأما المنزل فقد اشترته جمعية الموسيقى الملوكية في برلين
 وحفظته تذكيراً لاستيفن ، ولا يزال حتى اليوم مزاراً يزوره الناس
 ويشاهدون فيه آثار ذلك التاريخ السذي دونه الشاعر « سيدروف » ،
 و « يرون حديقته ، وأزهار البنفسج المنتشرة في أنحاءها ، والحوض المقام
 في وسطها ، والسياح الدائر من حوله والمقعد الذي جلس عليه استيفن
 وماجدولين ليلة عاتبها وغاضبها والفرقة الزرقاء التي كانت غرفة عرس
 ماجدولين أولاً ، ولحدها أخيراً ، ومكتبة استيفن ، وقبائرتة ، والبيانو
 الذي وقع عليه في ساعته الأخيرة ولحن الموت » .

فلذا فرغوا من زيارة المنزل ذهبوا إلى المقبرة فراروا ذلك القبر
 الذي دفن فيه الشقيان البائسان ، قبيل تربيته بالدعم منهم من نكب في
 سمياته بمثل نكبتهما أو عاش فيها شقياً كعيشها .

تمت

العظمة التي تجلّت له في دعوع هؤلاء العظماء وأخذ يقلب عينيه فيهم
 فتقدم نحوه الموسيقي فرديريك وكان أعظم القوم شأنًا وأكبرهم سناً .
 وقال له : هل توصي بشي . يا مولاي ؟ فحاول التلق فلم يستطع .
 فظل يعالجه حباً حتى استفاد له . فأنشأ يقول : أوصيك يا فرديريك أن
 تجمع ألحاني كلها في كتاب واحد ، وأوصيك يا سيدروف أن تكتب
 تاريخ حياتي كما يعلمه فرتر ثم تنشره في الناس ، وأوصيك يا فرتر أن
 تدفني مع ماجدولين في قبرها وأن تتولى شأن هذه الطفلة الصغيرة
 وتحميها مما تخمي منه أمك وولديك ، حتى إذا بلغت زوجتها من الزوج
 الذي تختاره لنفسها

وأوصيك جميعاً ألا تحزنوا على موتي . فإني وإن قصبت حياتي
 شقياً فما أنتم ترون الآن أنني أموت بينكم سعيداً . وكان هذا آخر
 ما نطق به . ثم أسلم روحه .

وكذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب جسده .
 ولكنه أحيانا نفسه وسجلها في سجل النفوس الخالدات .

(٩٩)

النهاية

أما أسرة فرتر فقد سعد حالها ، وأصبحت في نعمة واسعة من
 العيش لا ينقصها عليها إلا ذكرى ذلك المحسن الكريم ، وأما ماجدولين
 الصغيرة فقد تولى فرتر شأنها ورباها مع ولده « برنار » الذي راضت
 معه في صغره - تربية قروية ساذجة بعيدة عن مفاسد المدينة وآفاتها حتى